الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء السادس عشر

مــــؤرخــــو القـــــرن الســـــابـــــع

من

١ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب

٢ـ بغية الطلب في تاريخ حلب

للصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن

أبي جرادة ـ ابن العديم

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبين لنا بشكل واضح من خلال مواد المجلدات المتقدمة مدى اهمية حلب ، مع عظمة الأدوار التي شغلتها هذه المدينة العريقة ، ولقد رأينا هذه المدينة تنجب عددا كبيرا من المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ الاسلامي العام ، او بالتاريخ المحلي مع التركيزعلى احداث الحروب الصليبية ، ومثلما حدث في دمشق حين وصلت الكتابة التاريخية ذروتها مع ابن عساكر في كتابة العملاق« تاريخ دمشق» فإن الكتابة التاريخية وصلت الى الذروة في حلب بعد جيل واحد من ابن عساكر ، وذلك على يدي الصاحب كمال الدين ابن العديم ، ونحن وان عددنا ابن العديم بشكل غير مباشر من تلاميذ ابن عساكر ، انه بتقديري اعظم مؤرخ انجبته بلاد الشام على الاطلاق ، وابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله... ابن أبي جرادة ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل الى المكتب الدراسة ، وهناك ظهرت استعداأته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به ابوه عناية كبيرة ، فحدب على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظرا لمنزلة والده ولما تمتعت به اسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافيا من معارف عصره الدينية والدنيوية ،ويروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك انه ـ اي الأب ـ كان رديء الخط ، فأراد ان يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحا كبيرا للغاية ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله:« واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقيد فسواد ابن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي إبن هلال» ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب

بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحدا من الع النساخ في تاريخ العربية واكثرهم ضبطا وبراعة وامانة ويقظة ودراية.

وفي باب العناية في انشاء ابنه وتثقيفه صحب احمد بن هبة الله ولده عمر في رحلاته واسفاره ، حيث زار دمشق اكثر من مرة كما زار بيت المقدس ورحل الى العراق والحجاز.

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل امامه كلها مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبه وثقافته واسرته الفضل الاكبر في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلا التعرف الى اسرة ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته:

يعرف الجد الاعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن ابي جرادة ، وكان صاحبا لامير المؤمنين علي بن ابي طالب ، ينتسب الى ربيعة من عقيل احدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش اولاد آل ابي جرادة واحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم احد افراد اسرة ابي جرادة الى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ ان الم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال بلاد الشام ،ومفتاح الطريق الى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع آسية الصغرى والأراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى اسرة نمت مع الأيام عددا ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الأسرة الاملاك ، كما ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت اسرة آل ابي جرادة من ابرز اسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على ايدي جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ، انما في القرن الأخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، اخذ رويدا

يعم في الاستعمال اكثر من الاسم الأصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو « العديم» ، ونحن لانملك تعليلا لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت:« سألته أولا لم سميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من اهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال: هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا».

ودانت اسرة ابن ابي جرادة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن الخامس/ الحادي عشر ، هذا وان كنا لانعرف بالتحديد تاريخ اخذ هذه الاسرة بمذاهب السنة امكننا ان نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان(وهو امر بحثته بالتفصيل في مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) ونظرا لعلاقات اسرة آل ابي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لابد ان الحال اقتضى المسايرة والتحول الى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي.

وفي عودة نحو سيرة الصاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الاول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الأجل بهاء الدين ابي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله ـ المعروف بالعجمي ، وكان شيخ اصحاب الشافعي ومن اعظم اهل حلب منزلة وقدرا وثروة ومكانة سياسية ودينية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق الصاحب كمال الدين اولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه احمد طفلا يدب على الأرض ، ويمكننا التعرف الى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على ابيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر ان ابن العديم مات دون ان يقوم باعادة النظر في مؤلفه « بغية الطلب» ولم يقم بتبييضه، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، انما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى ان مكانة الكتاب واهميته هي هي ، ذلك ان اهمية الكتاب نابعة مما

حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفا ممتازا ولم يكن « مؤرخا» حسب مصطلحات ايامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تعليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات ايامنا هذه...

ومنذ ان بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب اخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين - صاحب حلب - فيكرمه ويقربه ويقبل عليه اكثر من اقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة ولي ابن العديم اول عمل رسمي لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت وكانت من اجل مدارس حلب وارقاها ، كل« هذا وحلب اعمر ماكانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، الاانه رؤي اهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، والقى الدرس بجنان قوي ، ولسان لوذعي ، فأبهر العالم واعجب الناس» ويبدو انه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت اجل مدارس حلب ، وهي مدرسة مازالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه.

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم ، فسفر عن ملوك حلب الى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى ، والى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، واودع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن ان نرى اهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية اخرى يمكننا ان نرى المدى الذي وصلت اليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات.

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد اودع ما أخذه عن علماء عصره ، وماراه من احداث او شارك به ، اودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب اشبه بمنجم للمعلومات لاينضب معينه.

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل الى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عددا كبيرا من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل اشهر كتبه« كتاب زبدة الحلبمن تاريخ حلب» و« كتلب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري» وكتابه بغية الطلب الذي اشرنا اليه حتى الآن كثيرا ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في اجزاء ثلاثة في دمشق ، واعدت الآن تحقيق اكثر من نصفه ، واعمل الآن على تحقيه كله. اما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الأولى بحلب ثم اعيد طبعها في القاهرة ، واقول قطعة ذلك ان الكتاب لم يصلنا كاملا بشكل مباشر.

وعندما قلت بشكل مباشر اردت ان اقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات ان واحدا من احفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتابا حول القاضي الفاضل دعاه باسم« سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل» ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي إن في ثنايا الكتاب ورد في احدى رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم ان يعرف بالمعري ، فقال: قال جدي في كتابه الانصاف والتحري : واثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصورا على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سابقا ، ومضيت الى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ،

فتيقنت من عدم دقته وأن حفيد ابن العديم نقل قليلا من كتاب جده الانصاف والتحري.

ويعود سبب انتقال ابن العديم الى القاهرة ، الى تعرض مدينة حلب الى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته الى دمشق ، ثم منها الى غزة فالقاهرة ، ويبدو انه عاد بعد عين جالوت الى دمشق ، وربما اراد التوجه الى حلب ، او توجه اليها فعلا ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي اثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد الى القاهرة ، حيث امضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الاولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكنت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق وقد انتزعت من هذا الكتاب جميع المواد الواردة خلال التراجم ولها علاقة بموضوع الحروب الصليبية ، وبالوقت نفسه اعدت تحقيق ما يزيد على النصف الأخير من كتاب زبدة الحلب ، وهذا الكتاب يختلف عن كتاب بغية الطلب ، فهو اشبه بكتاب الحوليات ، ويماثل كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ولايمكن عده ملخصا لكتاب بغية الطلب ، وكان المرحوم الدكتور سامي الدهان قد حقق هذا الكتاب ونشره في اجزاء ثلاثة ، وبذل الدكتور الدهان جهودا طيبة في تحقيق الكتاب لكنه اخفق في عدة اماكن في قراءة النص بشكل صحيح ، الى حد ان« عين الجر »جاءت عنده « عبر الجسر» يضاف الى هذا قام رحمه اللهباقحام عناوين كثيرة جدا في متن نص الكتاب ، ويمكن وصف هذا بالتزييف ، واعتمدت في عملي على المخطوطة نفسها التي اعتمدها الدكتور دهان ، بل اكثر من ذلك على المصورة نفسها ، لأن مصورات مكتبته رحمه الله بيعت في دمشق فشريت بعضها ، وأقوم الآن بتحقيق الكتاب كله وسيخرج ـ ان شاء الله ـ في جزئين فقط والله الموفق .

ولمواد ابن العديم في بغية الطلب وزبدة

الحلب مكانة سامية ، لهذا ســلف وتــرجم بعضــها الى الفــرنسية والانكليزية ، ولابد الآن من اعادة النظر بهذه الترجمات بعــد اعادة ضبط النصوص الأصلية.

الله جل وعلا اسأله التوفيق وله الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه اجميعين.

دمشق ١٥ / ٥ / ١٩٩٥

سهيل زكار

من زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم

وأما (١) سليمان بن قطلمش فانه حاصر حلب مدة ، ثم ترددت الرسل الى أهل حلب في التسليم ، فاستقرت الحال بينهم على موادعة مدة .

وسير سليمان بن قطلمش قطعة من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا مع شرف الدولة ، فهربوا ، ولحقهم شدة عظيمة من دخول البرية في حزيران .

وتوجه سليمان الى معرة النعمان وكفر طاب ، وتسلمها ، ثم سار الى شيزر ، فقاتلها وقرر أمرها على مال يحمل اليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرجال ، وعدل اصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب . (٢)

وجرت بالمعرة اسباب وصل لاجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جمادى الأولى ، يطلب اصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتل جماعة من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي (منها وجعل) (٣) على أهل البلد عشرة الاف دينار .

وأما بلاد شرف الدولة فملكها (بعده أخوه) (٣) ابراهيم ، ماخلا حلب ، وكاتب من بحلب في تسليمها اليه فلم (يرده الخبر) (٣) .

وأما الشريف حسن الحتيتي فانه كان متقدم الأحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشريف المنسوبة اليه ، وبنى عليها سورا دائرا ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفا على نفسه ان يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتفق الشريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن

كاتبا السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب اليه ، ويحثانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنسرين وتحول اليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشريف حسن لنجدة تصله من السلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل الى تاج الدول تتش يستدعيه الى حلب ليتسلمها .

وعرفه ما استقر بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرح بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنسرين .

ووصل إلى تاج الدولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى الناعورة وعول على مراسلة الشريف حسن فان سلم اليه تفلت والا عاد لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عين سيلم (٤) ، وتراءى العسكران ، فدبر ارتق عسكر تاج الدولة احسن تدبير ، والتقوا فانهزم عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكره والعرب الذين معه جميع ما كان في العسكر .

واختلف في قتل سليمان ، فقيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النصرة نزل عن فرسه ، وقتل نفسه بسكين خفه ، وقيل : ان المصامدة تتبعت اسلاب القتلى فظفروا بدرع مرصع بالياقوت والعقيان النفيس .

ونمى الخبر الى تاج الدولة ، فأحضره فقال « هذا يشبه سلب الملوك » ، وسار الى الموضع واذا به مختلط بدمه فقال :« يشبه أن يكون هذا » . وقد كان قال لهم :« لاتبينوه لي حتى اريكموه من بين القتلى » ، فقيل له :« ومن أين علمت ذلك ؟» فقال :« قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه ».

ثم قال بلسانه :« ظلمناكم ، وأبعدناكم وذقتلكم !» ثم مسح عينيه واغتم لقتله ، وترحم عليه ، وأحضر أكفانا نفيسة فكفنه ، وصلى عليه ، وحمله الى حلب فدفنه الى جانب مسلم بن قريش قبل ان ينقل مسلم الى سر من رأى ، وقيل : دفن معه في قبر واحد .

ولما جرى ماجرى من قتل سليمان وسار تاج الدولة الى حلب عدل الشريف حسن الحتيتي عما كان اتفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب الى تاج الدولة ، واحتج بأن كتب ملك شاه وصلته بتجهيز العساكر اليه .

فأقطع تاج الدولة بلد حلب وأعمالها لعسكره الا ماكان لبعض العرب الذين وفدوا عليه ، فانه أقره في أيديهم ، ثم رحل الى مرج دابق (٥) وأقام أياما .

ثم عاد ونازل حلب ، فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبي ، وراسل تاج الدولة في تسليم حلب اليه ، ورفع بعض اصحابه بحبال الى بعض ابراج السور ، وساعده قوم من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدولة في ذلك الموضع ، وتسامع الناس فنادوا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة .

فانهزم هبة الله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه الى القلعة الكبيرة الى سالم بن مالك ، (٦) وبقي الشريف حسن في قلعته المجددة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فخافوا على اهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمنه تاج الدولة بوساطة ظهير الدين أرتق .

وخرج الى أرتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلم القلعة الى تاج الدولة تتش ، وسيره ارتق الى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدولة بن قريش لما ولاه فيها أوصاه أن لايسلمها الا الى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيته ، وامتنع ان يسلمها الى تتش .

وأقام تتش بمدينة حلب الى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وأحسن الى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أن السلطان ملك شاه وصلت عساكره الى نهر الجوز (٧) قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدولة الى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه اياما يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع بـرسق واياز وبـوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الروم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ، ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل الى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إن السلطان وصل بعدهم الى الرها فسلمها اليه الفلاردوس (٨) وأسلم على يده ، وسار منها الى قلعة دوسر – وهي المعروفة بجعبر – فتسلمها في طريقه من جعبر بن سابق القشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطريق .

وسار حتى وصل حلب في الثالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

وتسلم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشام ، وعوض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، وأقطعه معها الرقة وعدة ضياع .

وتوجه السلطان الى انطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية بغي سيان بن الب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها ، وتم الى السويدية (٩) وصلى على البحر ، وحمد الله على ماأنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب .

وعاد الى حلب ، ورتب بها الأمير قسيم الدولة آق سنقر (١٠) ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرؤساء بن الخلال في جمع الأموال .

ووصل اليه الشريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة الى حلب ، ويذكر خدمته وماجرى عليه ، فتظلم منه أهل حلب فلم يأذن له السلطان فيما التمسه .

وكان هذا السلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلا حتى أن أحدا لايقول : ان أحدا من ذلك العالم العظيم من عسكره - وحزره أربعمائة ألف - اخذ لأحد من الرعايا قسرا وظلما مايساوي درهما واحدا ، حتى أن البازيار الذي له اقتنص طائرين من الدجاج من الاثارب (١١) طعما للبزاة في الطريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدده حتى أعادهما الى صاحبها بعد عودة من أنطاكية .

وخرج هذا السلطان الى ضياع معرة النعمان يتصيد ، وبات بضيعة بينها وبين المعرة ثلاثة فراسخ ، فابتاع منها أصحابه

ماحتاجوه بأوفى ثمن ، ووضع السلطان في هذه السنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبق من يستخرج مكسا في مملكته .

وأقام السلطان بحلب الى أن عيد بها عيد الفطر ، وعاد مذكفئا الى الجزيرة ، وقد قرر ولاية حلب ، وولى بقلعتها ذوحا التركي ، وبلغه عصيان تكش (١٢) بترمذ فسار السلطان ، وقطع مابين حلب ونيسابور في عشرة أيام ، وعاد مذكفئا الى الجزيرة وقد قرر ولاية حلب لقسيم الدولة آق سنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكنه فيها .

وقيل انه مملوك لملكشاه ، وقيل انه لصيق وأن اسم ابيه أل ترغان ، وولى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخلال الرحبي ، وقال شاعر حلبي فيه وفي الوزير ابن النحاس :

قد زنجر العيش على الناس
مابين « خلال » و « نحاس »

فأحسن قسيم الدولة في حلب السيرة وأجمل السياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطاع الطريق ، وتتبع الذعار في كل موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلابين اليها من كل مكان .

وحكى لي والدي ـ رحمه الله ـ : أنه استأصل أرباب الفساد الى حد بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لايغلق أحد بابه ، وأن يتركوا آلاتهم التي للحرث في البقاع في الليل والنهار .

فخرج متصيدا فمر على فلاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة

الحرث معه الى منزله ، فانفرد من عسكره وقال له :« ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لايرفع أحد من أهل القرى شيئا من آلة الحرث ؟ » فقال:« بلى والله – حفظ الله قسيم الدولة – والله لقد أمنا في أيامه من كل ذاعر ومفسد ، ومارفعت هذا خوفا عليها ممن يأخذها ، وإنما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدة ههنا جاءت وأكلت هذه الجلود التي عليها ».

فلما عاد قسيم الدولة أمر بالصيادين وبثهم في أقطار بلد حلب لصيد بنات آوى حتى أفنوها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سببا لقلتها في بلد حلب الى يومنا هذا ، دون غيرها من البلاد .

وفي ايام قسيم الدولة جدد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خلف بين أهل لطمين (١٣) وبين نصر بن علي بن منقذ في سنة احدى وثمانين ، فخرج أق سنقر الى شيزر ، وقاتلها ، وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلا ، وعاد الى حلب بعد أن نهب ربضها ، واستقرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شيزر .

وكان أق سنقر قد تزوج خاتون داية السلطان ملك شاه (١٤) ، وكانت جالسة معه في بعض الأيام في داره بحلب ، وفي يده سكين فأومأ بها اليها على سبيل المداعبة والمزاج ، فوقعت في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمد لها ، فماتت وحزن عليها حزنا شديدا ، وتأسف لفقدها ، وحملها في تابوت لتدفن في مقابر لها بالشرق ، وخرج من حلب لتوديع تابوتها في مستهل جمادى الآخرة .

وتسلم أق سنقر حصن برزويه (١٥) ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الأرمن – وهو آخر ماكان قد بقي في أيدي الكفار من أعمال انطاكية – وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدمه في ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين .

وكتب ولاة الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايلقونه من خلف بن ملاعب بحمص من قطع الطريق واخافة السبيل ، فكتب الى قسيم الدولة وتاج الدولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ، وأعطاها السلطان تاج الدولة تتش .

ونزل قسيم الدولة على أفامية ، فأخذها من خلف بن ملاعب وسلمها إلى نصر بن منقذ .

ثم إن السلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى اصبهان ، فحبسه الى أن مات ملك شاه ، وتوجه إلى مصر وعاد إلى الشام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلمها قسيم الدولة الى أن ورد عليه أمر السلطان بتسليمها الى تتش (١٦) .

ومات السلطان ملك شاه ببغداد في الليلة السادسة عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أق سنقر قد خرج من حلب وافدا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد الى حلب ، وخطب لابنه محمود مدة يسيرة ، ثم انه خطب بعد ذلك لتاج الدولة تتش – على مايذكر – (١٧) .

ولما عاد الى حلب قبض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاج الدولة قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم الى طاعته ، والكون في جملته ليسيروا معه الى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوه الى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أول سنة ست وثمانين ، وسار إليه قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان ، ووثق به أق سنقر ، وفتح تاج الدولة الرحبة ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهب للقاء تاج الدولة .

والتقـى العسـكران على دارا (١٨) ، وعاد كل فـــريق الى موضعه ، فركب الأمير قسيم الدولة في خلق من العسـكر ، وحمـل حتى توسط عسكر ابراهيم فلم يثبـت العـرب ، وتبعــه بـــاقي العسكر ، فقتل منهم مايقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وسبيت الحرم ، وقتل جماعة من نساء العرب نفوسهن .

وأمر تاج الدولة بعد ذلك بجمع الأسرى ووهبهم مـن محمـد بـن شرف الدولة ـ وكان قد صار في جملتـه قبـل الحـرب ـ واقـطعه نصيبين (١٩) .

وعظمت هيبة تاج الدولة بعد هذه الوقعة ، وراسلته زوجـة أخيه تحثه على الوصول ، واستقر الحال على أن تتـزوجه ، فسـار عند ذلك بعد أن تسلم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصـل الى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب وعمـاد الدولة بوزان وسارا الى بر كيارق ليكونا في خدمته ـ وكان بـالقرب من الري (٢٠) ـ

وكان سبب نفار قسيم الدولة وبوزان تقـريب تـاج الدولة يغـي سيان وميله اليه ، وقيل : لانه لم يولهما شـيئا مـن البـلاد التـي افتتحها ، فـرجع تـاج الدولة الى ديار بـكر ، وشـحنها بالرجال ، وسار منها الى سروج فأخذها وولى فيها بعض ثقاته .

ووصله الخبر بوصول آق سنقر وبوزان الى باب السـلطان بـر كيارق ، واكرامه لهما ، وانهمـا وجـدا خـاله مسـتوليا على أمره ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبسطت يد بر كيارق ، واستقامت أحواله ، وخاطبه آق سنقر وبوزان ان يسير معهما إلى بـلادهما حلب والرهـا وحـران ، لئلا

يجري عليهما حادث من تاج الدولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدولة ، فسار معهما الى الرحبة ، وعقد بينهما وبين علي بن شرف الدولة حلفا .

وسار علي بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعه من عسكر السلطان بر كيارق مع قسيم الدولة ، فأوصلوه الى حلب ، فدخلها في شوال من سنة ست وثمانين وأربعمائة .

وسار بوزان الى بلاده ، وعاد من كان معهما الى السلطان ، وأما تتش فانه قطع الفرات وتوجه الى انطاكية ، وأقام بها مع يغي سيان مدة ، فغلت بها الاسعار ، فسار الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة .

وكان وثاب بن محمود مع نفر يسير من بني كلاب ، فأنفذ آق سنقر بعد مسير تتش الى دمشق من أحرق حصن أسفونا (٢١) وحصن القبة ، وقبض اقطاع وثاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس بسعاية المجن بركات الفوعي به إلى قسيم الدولة ، ولم يزل به إلى أن أمره بخنقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السنة .

وفي شهر ربيع الاول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدولة تتش من دمشق ، ومعه خلق عظيم من العرب ، ولقيه يغي سيان بعسكر انطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياما ، وزوج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان ، وسيره عائدا إلى دمشق .

وسار تاج الدولة بعساكره فنزل تلمنس (٢٢) ، وأقام بها أياما ، فوصله الخبر بوصول كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ، ويوسف بن أبق صاحب الرحبة ، في ألفين

وخمسمائة فارس الى حلب ، لنجدة أق سنقر ، فعـدل تـاج الدولة إلى الحـاذوته ، ورحـل الى الناعورة ، وعول على قصـد الوادي (٢٣) وأن يسير منه الى أعمال انطاكية ، وأخـذ العسـكر دواب الذقرة و(أحرق) بعض زرعها .

فخرج أق سنقر ومن وصله من النجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل مـن بني كلاب - وكان قـد اطلقهمـا مـن الاعتقال في هذه السنة - ومحمد بن زائدة في جماعته وجمـاعة مـن أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وعدة عسـكره تـزيد عن سـتة الاف فارس وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عدة .

وقصد عسكر الملك تاج الدولة ، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السنة ، والتقوا على « سبعين » (٢٥) ، وكان أول مـن قـطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتـب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربـوقا لم يتمـكن مـن قـطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سـنقر العـرب الذين معه ، وخاف ميلهم الى تاج الدولة ، وكان عسكر تـاج الدولة في مثل هذه العدة من العرب والرجالة ، وكان الترك معـه في قلة لأن اصحابة وخواصه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدولة على عسكر أق سـنقر فلم يثبـت لحـظة واحدة ، وانهزمت العـرب وبـوزان وكربـوقا نحـو حلب فدخلاها ، واستأمن يوسف بن أبق الى تاج الدولة .

واسر أق سنقر وجماعة من خـواصه ووزيره أبـو القـاسم بـن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدولة اسيرا ، فقتله صبرا ، وقـال له تاج الدولة :« لو ظفرت بـي مـاكنت صـنعت ؟» قـال :« كنت أقتلك » فقال له :« فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » فقتله .

وحكى وثاب بن محمود قال :« جلس تاج الدولة ، وطلب قسيم الدولة ، فأحضر مكشوف الرأس ، مكتوفا ، فقام تاج الدولة ، وكلمه كلاما كثيرا ، فلم يرد عليه جوابا ، فضربه بيده أطار رأسه ».

وحمل رأسه الى حلب وإلى دمشق ، ودفن جسده في القبة التي على سطح جبل قرنبيا (٢٦) ، غربي المشهد الذي ابتناه بقرنبيا ، ثم نقله ابنه زنكي لما فتح حلب إلى مدرسة الزجاجين (٢٧) ، ووقف شامر – قرية من بلد حلب – على من يقرأ على قبره .

واختار قسيم الدولة وقتا للخروج الى اللقاء ، وهو وقت قران زحل المريخ في برج الأسد – وهو طالع بيت السلطان بحلب – وكان موقتا بالظفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقوه بالحبال لكتافهم بها ، وكان تاج الدولة قد عزم على ماذكرناه ، ولم يكن مؤثرا لقاءه ، فنصره الله تعالى كما شاء وأراد ، ولامعقب لحكمه ، ولاتأثير لشيء في ملكوته .

وأسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تاج الدولة لابن أخيه وثاب بن محمود .

وعول بوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظار النجدة من بر كيارق ، لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل ، وقرروا مع الأحداث ذلك .

فوصل تاج الدولة بعسكره الى حلب ، وتحير أهلها فيما يفعلونه ، فبادر قوم من الأحداث ممن لايعرف ولايذكر ففتحوا باب انطاكية .

ودخل وثاب بن محمود في مقدمة أصحاب تاج الدولة الى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بقلعة الشريف ، وسلمها الى تاج الدولة فدخلها ، وبات بها ، فراسله ذوح والي القلعة

الكبيرة ، وسلمها اليه بعد ان توثق منه ، وطلع تاج الدولة اليهــا في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة ٠ (٢٨)

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبته صبرا ، وأخذ كربوقا واعتقله بحمص ، واقطع الشام لعسكره ، واقطع معــرة النعمــان واللاذقية ليغي سيان ، ورتب أبا القاسم بن بديع وزيرا بحلب .

وأقام ثلاثة أيام ثم توجه فقطع الفرات ، وتسلم حران ، وســار الى الرها فتسلمها ، وقيل : بأن واليهــا امتنع مــن تســليمها الا بعلامة من بوزان ، وأن بوزان كان محبوسا بحلب ، فأنفذ اليه مــن قطع رأسه ورماهم به ، فسلموا الرها اليه ، وتسلم ديار بكر .

وسار الى ميافارقين فقتل بني جهير بعد أن قطع رؤوس أولادهم وعلقها في رقابهم .

وعدل عن الموصل ، وسار للقاء زوجــة أخيه خــاتون الجــلالية لاتمام ماكان استقر بينهما فماتت في الطريق .

وتوجه تاج الدولة الى الري ، فوصله خلق كثير مــن التــركمان وعساكر أخيه ، وملك كل بلدة مــر بهــا ، وخــطب له على منابــر الاسلام : الشام والفرات ، وبغداد .

وعند وصوله الى همذان كتب الى ولده الملك رضوان يستدعيه من دمشق فتوجه إليه ومعه بقية من تخلف من أصحابه بالشام .

ودخل تاج الدولة الري وملكها في المحــرم ســنة ثمــان وثمــانين وأربعمائة ، وخرج بركيارق من أصــبهان ، والتقــوا على خمســة فراسخ من الري في يوم الأحد السابع عشر مــن صــفر ، فــانهزم عسكر تاج الدولة تتش ، واستبيح ونهــب ، وقتــل ذلك اليوم تــاج الدولة وخواصه في الحرب .

وقتل تاج الدولة بعض أصحاب قسيم الدولة بعد أن اصطنعه وقربه ، ضربه بنشابة في ترقوته اليسرى فوقع ، وقطع رأسه وطيف به العسكر ، ثم حمل الى بغداد فطيف به ، وتفرق من سلم منهم إلى مواضعهم .

ووصل الخبر الى ولده الملك رضوان ، وهو نازل على الفرات بعانة (٢٩) متوجها الى والده ، فقلق وخاف من وصول من يطلبه فحط خيمه في الحال (٣٠) ٠

ورحل مجدا حتى وصل حلب في جماعة من غلمانه وحاشيته ، وترك باقي عسكره من ورائه ، فسلم وزير أبيه أبو القاسم بن بديع إليه المدينة والقلعة ، وصعد إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها .

ووصل إليه إلى حلب من الفل أخوه أبو نصر دقاق (٣١) وجناح الدولة حسين ، فاستولى جناح (٣٢) الدولة على تدبير ملك الملك رضوان ، وكان تاج قد جعله مدبرا له ، وهو أتابكه في حياته ، وجعل دقاق مع أتابك ظهير الدين .

ولما افتتح ديار بكر سلمها الى ظهير الدين ، وشمس الملوك دقاق معه ، ولم يزل بها الى أن سار الى الري فسارا معه .

وعاد دقاق الى حلب فأقام بها مدة يسيرة ، وراسله الأمير ساوتكين الخادم ـ وكان نائب تاج الدولة بدمشق في حفظ القلعة والبلد ـ وقرر لدقاق مملكة دمشق سرا ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وهرب الى دمشق من غير أن يعلم به أحد ، وجد في السير ، وتبعه رضوان ، وأنفذ خلفه عدة من الخيل ففاتهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين الى طاعته ، وصارت دمشق وبلادها بحكمه .

وقتل رضوان اخويه ابا طالب وبهرام ابني تتش (٣٤) ، وكان اتابك طغتكين معتقلا عند السلطان بركيارق ، وقبض في الوقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة النين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتفق رايهم أن يسيروا عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق الى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان ابق أيضا من جملة من قبض عليه من الجماعة النين كانوا مع تتش فخاطبوا السلطان في اطلاقه وتسييره فأجابهم الى ذلك ، وسيره إلى حلب ، فلما وصله أكرمه رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيره مكرما .

فأطلق بركيارق أتابك طغتكين (٣٥) وجميع من كان في اعتقاله من خواص تاج الدولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه ، والقى تدبير أموره اليه ، فقام فيها احسن قيام .

فاستأنن عضب الدولة الملك رضوان في الوصول اليه فأنن له ، وقرر معه قرب العودة الى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب الى اصحابه بعزاز يأمرهم بتسليمها الى رضوان فسلموها .

ولما وصلت هذه الاخبار وثب أهل افامية على حصنها فأخذوه من الاتراك ، وقتلوا بعضهم ، وكان تاج الدولة قد أخذه من ابن منقذ ، وسار جماعة من أهلها الى مصر يستدعون واليا من قبلهم لميلهم (٣٦) الى الاسماعيلية ونفورهم من الترك .

ووصل خلف بن ملاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائة وتسلمها ، وعاد الى الفساد وقطع الطريق ، وقتل خلقا من افامية .

وأما الملك رضوان فانه خرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدولة حسين ، ووصله يغي سيان ويوسف بن

أبق من انطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا الى الرها ، ومعهم رهائن أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المقيمين فيها من أصحاب والده .

فلما نزلوا الرها أراد يغي سيان ويوسف ان يقبضا جناح الدولة ويتفردا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطع الفرات ، ووصل حلب وتبعه رضوان ، فدخل حلب ، وهرب رهائن الرها من العسكر ودخلوا ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

وكتب رضوان الى سكمان (٣٧) واقطاعه سروج (٣٨) يستدعيه الى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفرات فلقيه يوسف بن أبق في عدة وافرة فخافه سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناح الدولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وصول رضوان من الرها قد سير جماعة من عسكر حلب الى معرة النعمان مع عضب الدولة لأخذها من يغي سيان .

وكاتب وثاب بن محمود فوصل ببني كلاب لمساعدته على أخذ المعرة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلموها .

وعاد عضب الدولة ووثاب ، فلما وصلا حلب حدث ماذكرناه من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناح الدولة بالعسكر فلقيه يوسف بالقرب من مرج دابق فهرب يوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، ودخل يوسف انطاكية ، وعاد جناح الدولة وسكمان ووثاب وأبق الى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرة النعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصد دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فلما نزلا دمشق ، وصل اليهما أن دقـاق قبض على نجـم الدين ايلغازي بن ارتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان الى حلب ، وسار سكمان الى بيت المقـدس وتسـلمها مـن نواب أخيه وأقام بها .

. وراسل يوسف بن أبق الملك رضوان واستأذنه في الوصـول الى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثم خاف رضوان وحسين منه فتقدما الى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن (٣٩) بقتله ، فهجم عليه وأصـحابه فقتلوه ونهبوا داره وأخـذوا راسـه ، وسـيروه الى بـزاعا ومنبج ، فتسلموها مـن أصـحابه ، وقبضـوا على إقـطاع أخيه وأصحابهما ، وهربوا من حلب ، وكان الملك قد توهم منه الارتـداد عن الاسلام .

ثم ان رضوان وجناح الدولة خرجا في سنة تسع وثمانين الى تـل باشر ، وشيح الدير (٤٠) ، وفتحاها بالسيف من أصحاب يغـي سيان ، وأغارا على أعمال أنطاكية ، وعادا الى حلب ، وسـارا في أول شهر رمضان منها الى دمشق .

فسار يغي سيان منجدا لدقاق فضعفت نفس رضوان ولم يتمكن من العود ، فسار الى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقاموا متحابسين مدة .

وأشرف عسـكر رضـوان على التلف فـانفصل عنه جناح الدولة ، وهرب على طريق البرية الى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدة وحصلا بجميع العساكر بحلب .

وعاد دقاق وطغتكين الى دمشق ويغي سيان الى أنطاكية ، وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البرية حتى وصل حلب على البـرية في المحرم من سنة تسعين وأربعمائة .

واجتمع بجناح الدولة واتفقا على قصد بلاد يغي سـيان فخـرج دقاق وطغتكين ، فوصلا حماه وعاث العسكر في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا الى كفـر طـاب في الثـاني مـن ربيع الأول ، فقاتلوها ، ونهبوها ، وقرروا على أهلها مالا .

وهرب أصحاب سكمان من المعرة فتسلمها يغـي سـيان وقـرر عليها مالا ، وتنقل العسكر في الجزر (٤١) وغيرها مـن أعمـال حلب ، فاستنجد رضوان بسـليمان بـن ايلغـازي صـاحب سميساط (٤٢) فوصل بعسكر كثير الى حلب .

وجمع رضوان من قدر عليه مـن التـرك والعـرب وأحـداث حلب ، ونزل عسكر دقاق بقنسرين .

ونزل عسكر حلب بحاضر قنسرين فاتفق الأمر على أن يجتمعـوا على نهر قويق ويتحدثوا ، فاجتمعوا وتحدثوا ، والنهر بينهم ، فلم يتفق الصلح ، فقال يغي سـيان لسـكمان : « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهـم ، أنت يابياع اللبـن دخـولك معهـم لاي صفة ؟» قال :« غدا تبصر ايش أنا ».

فأصبحوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سـنة تسعين وأربعمائة فأبلى سكمان بلاء حسنا .

ولم تزل الحرب بينهم الى آخر النهار ، فانهزم يغي سـيان الى أنطاكية ، ودقـاق وطغتـكين الى دمشـق ، واسر في الحـرب اصباوه (٤٣) ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب الى دمشـق ولم يقتل من العسكر الا القليل .

وقتل الفلاحون في الطريق وقت الهزيمة مـن الأرمـن الذين كانوا مع يغي سيان جماعة كثيرة ، وتغيرت نية الملك رضـوان على جناح الدولة حسين فهرب من حلب الى حمص ، وخرج من حلب ليلا ومعه زوجته أم الملك رضوان وأقام بحمص لأنها كانت في يده وحصنها .

ووصل يغي سيان الى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبـر أمره ، وتزوج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك (٤٤) .

وعول رضوان على قصـد جناح الدولة بحمص ، وقصـد دقـاق بدمشق ، ووصله رسول الافضل (٤٥) من مصر يدعوه الى طاعة المستعلي واقامة الدعوة له ، وعلى يده هدية سنية من مصر ، ووعده بأن يمده بالعساكر والاموال .

فتقدم بالدعوة للمصريين على سـائر منابـر الشـام التـي في يده ، ودعا الخطيب أبو تـراب حيدرة بـن أبـي اسـامة ، بحلب للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان قد ولى الخطابة أبا تراب وعزل جد أبي أبا غانم محمد بـن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخـطابة بحلب ، لان تـوليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مـات في هـذه السـنة المذكورة ، وهو على القضاء والامامة بحلب .

وولى رضوان قضاء حلب في سـنة تسـعين القـاضي فضـل الله الزوزني العجمي الحنفي ، وسيره رسـولا الى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي اسامة الحلبي ، ودامت الدعوة بحلب الى رجـب مـن سـنة اثنتين وتسـعين وأربعمائة ، وقيل : لم تدم أكثر من أربع جمع (٤٦) .

وأعادها رضوان للامام المستظهر ثـم للسـلطان بـركيارق ثـم لنفسه ، ولم يصح له مما التمسه من المصريين شيء .

وأعاد القضاء والخطابة الى جـد أبـي أبـي غانم على قـاعدته الأولى ، في سـنة خمس وتسـعين وأربعمـائة ، حين قتـل

الزوزني ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقتل في بعض الدروب ، وكان ازرى على الباطنية وعلى معتقدهم فقيل انهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا الى شيزر متوجهين الى حمص لقصد حمص (٤٧) فتواصلت الأخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : « عودنا الى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى » ، وقال سكمان :« مسيرنا الى ديار بكر وأخذها من المتغلبين عليها ونتقوى بها ، وانزل أهلي بها ونعود الى حمص أولى » واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلا وكان معه وزيره أبو النجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولاه وزارته حين ملك حلب ، فاتهماه أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع الى حصن شيزر ، وأقام به عند ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار الى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مغاضبا ليغي سيان وسكمان عاد (٤٨) والامراء من شيزر الى أنطاكية ، وبلغهم نزول الفرنج البلانة (٤٩) ونهبها .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمدا ، فسار أحدهما الى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبث كتبه الى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمد ابنه الى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه الى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس الى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ماكان

التجـــار ، ونهبـــوا اللاذقية وعادوا ، ووصـــلت الفـــرنج الى الشام ، واعتبروا عســكرهم فـكانوا ثـلاثمائة الف وعشرين ألف انسان ، لأنهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثاني مـــن شـــوال نزلت عســـاكر الفـــرنج على بغراس (٥١) وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عصى مـــن كان في الحصون والمعـاقل المجـاورة لأنطـاكية ، وقتلوا مـــن كان بها ، وهرب من هرب منها .

وفعل أهل ارتـــاح (٥٢) مثـــل ذلك وا ســـتدعوا المدد مـــن الفرنج ، وهذا كله لقبح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية الليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرم من سنة أحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثـلاثين ألفا من الفرنج الى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فـأفسدوا ونهبـوا وقتلوا من وجدوا .

وكان قد وصل الملك دقاق وأتابك ومعهمـا جناح الدولة ، ونزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي ســيان وهـــم ســـائرون لانجـــاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السرية ، فســاروا إليهـــا بقـــطعة مـــن العسكر ، فلقوهم في أرض البارة (٥٢) فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفـرنج الى الروج (٥٣) ، وعرجـوا منه الى معـــــرة مصرين (٥٤) ، فقتلوا من وجدوا وكسروا منبـرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل الى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما الى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم عسكر المسلمين الى حارم (٥٥) وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفـرنج الى حارم فانهزموا الى حلب ، وغلب أهل حارم من الارمن عليها .

وفي شهر ربيع الاول من السنة وصل خلق من الأرمن الى تل قباسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه ، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الاتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون الى بعض الحصون الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى الى حلب فقتلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نزل الفرنج ـ لعنهم الله ـ بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البلد خندقا لأجل غارات عسكر انطاكية عليهم وكثرة الظفر بهم ، ولايكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود الا ظافرا .

وجعل يغي سيان الناس على البعد والقرب ، وكان حسن التدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحب الموصل عسكرا عظيما ، وقطع به الفرات ، ووصل دقاق وطغتكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دقاق .

ووصل وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشام ، وقرر عليهم دقاق مالا أخذ بعضه ورهائن على الباقي ، وسيرهم الى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر الى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أول ليلة من رجب واطأ رجل يعرف بالزراد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه ، وذلك أن يغي سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند وقال له : « أنا في البرج

الفلاني ، وأنا أسلم اليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيتني كذا وكذا » فبذل له ماطلب ، وكتم أمره عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدمين عليهم كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن أخته طنكريد وصنجيل وبغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمند وقال لهم :« هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟» فاختلفوا ، وكل طلبها لنفسه ، فقال :« الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة ، فمن فتحت في جمعته فهي له » فرضوا بذلك .

فلما كانت نوبته دلى لهم الزراد ـ لعنه الله ـ حبلا ، فطلعوا من السور ، وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا وجاءوا الى الحراس فقتلوهم ، وتسلمه بيمند بن الانبرت (٥٦) .

وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصائح من ناحية الجبل ، فتوهم يغي سيان ان القلعة قد أخذت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولما حصل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن فهرب الخادم عنه ، وقتله الأرمن وحملوا رأسه الى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية مايفوت الاحصاء ويجاوز العدد ، ونهبت الأموال والآلات والسلاح ، وسبي من كان بأنطاكية ، ووصل هذا الخبر الى عم وإنب (٥٧) ، فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغ الخبر الى دقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا الى أرتاح ، وسار بعضهم الى جسر الحديد (٥٨) وقتلوا من كان فيه

من الفرنج ، وتوجهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا ان قلعتها باقية في ايدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الاسلامية بذلك ، فوصلوا الى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم من كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

ونزل المسلمون بظاهرها مما يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنج على التلف فبنوا سورا على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول اليهم ، وأقاموا أياما وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير مما كان في قلعة أنطاكية ، وولى فيها أحمد بن مروان ، وترادفت رسل الملك رضوان في أثناء ذلك الى كربوقا ، فتوهم دقاق من ذلك ، وخاف جناح الدولة من أصحاب يوسف بن أبق وأخيه .

وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيل بعض الأمراء من بعض ثم اجتمع رأيهم على التحول الى المنازلة في السهل بظاهر أنطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجعل المسلمون بينهم وبين البلد خندقا .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدواب ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الأمراء أن لايمكنوا من الخروج بأجمعهم ويقتلوا أولا فأولا ، فلم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم ايقنوا بالظفر بالفرنج ، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم .

وعاث التركمان في العسكر فانهزم ، وتوهم الفرنج أن ذلك مكيدة

فتوقفوا عن تبعهم ، فكان ذلك سببا لسلامة من أراد الله سلامته ، ولم يبق غير كربوقا ومعه اكثر عسكره ، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب .

وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير ، ولم يقتل مذكور ، ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن (٥٩) .

وعاد الفرنج الى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسله الفرنج وأمنوه ، ومن كان معه ، وسلمها اليهم يوم الأحد الثاني من شعبان من السنة ، وانزلوه في دار بأنطاكية ، وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم الى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، ولم يسلم منهم الا القليل .

ولما وصل كربوقا الى حلب خرج اليه الملك رضوان ، وحمل له خياما وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكر دمشق اليها وتقدمت العساكر .

وبعد أيام من هذه الوقعة خرج جماعة من الفرنج في شعبان ، وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقاتلوها ، فوصلت قطعة من عسكر حلب اليهم ، فالتقوا بين تل منس والمعرة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجالة منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم الى معرة النعمان .

وفي هذه السنة ـ وهي سنة احدى وتسعين ـ في جمادى الأولى عزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ، وولى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول ، وكان أبو الفضل حسن السيرة جوادا كثير المعروف والصدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء ، والجوع بحلب ، حتى أكلوا الميتات ، فأخرج غلة كثيرة ، وتصدق بها على الناس .

وقيل : انه كان يخرج في كل سنة صدقة وبرا ثلاثة آلاف مكوك غلة سوى مايطلقه لمن يسأله معونته من الوفود والضيوف ، وغير مايطلقه من العين والورق وغير ماكان يعتمد من افتكاك الاسرى من المسلمين .

وفيها قتل الملك رضوان رئيس حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن ، وكان هذا المجن أولا من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطريق الذعار فاستتابه قسيم الدولة أق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعة (٦٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة أحضر من يشهد له أنه صلى العشاء بالفوعة والصبح فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في أيام قسيم الدولة وأيام تاج الدولة وبعده في أيام رضوان ، وامتدت يده وحكم على القضاة والوزراء ومن دونهم ، وهو الذي قتل الوزير أبا نصر بن النحاس في أيام قسيم الدولة .

وبلغني أنه حنق عليه بسبب حصر أراد شراءها فاشتراها المجن ، فشق على أبي نصر ، فسيرها المجن اليه ، فردها عليه أبو نصر ، وتكلم في حقه بكلام قبيح فحنق بسببها على ابن النحاس ، فاعتقله بعد ذلك عنده وخنقه .

وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم ، فعصى على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع فانقلب الأحداث عنه لبغضهم إياه ، ومضوا الى

صاعد فاختفى المجن ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلط عليه الملك رضوان فسجنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله .

فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقبت كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال :« ويلك لاتعرف أحضر خشبة ، وضعها على الكعب » فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له :« كيف تجد طعم الحديد ؟ » فقال :« قولوا للحديد كيف يجد طعمي » ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله الا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الامر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو الشرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله ، وهو ينظر اليهما ولايتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة احدى وتسعين ، وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال :« يامعشر أهل حلب ، من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه ».

وكان ابن بديع من أولاد الديلم الذين كانوا في أيام سيف الدولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة احدى وتسعين وأربعمائة عصى عمر والي عزاز على الملك رضوان فخرج عسكر حلب وحصره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل بعسكر كبير ، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ماقدر عليه وعاد الى أنطاكية ، وأخذ ابن عمر رهينة ، فمات عنده، فوقع الملك رضوان على عمر الى ان أخذه من تل هراق (٦١) فسلم اليه عزاز وأقام عنده بحلب مدة ، ثم قتله .

وخرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البارة فقل الماء فأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفى أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا ، ثم خرج بقية الفرنج من أنطاكية والأرمن الذي في طاعتهم والنصارى ، وانضموا اليه ، ووصلوا الى معرة النعمان لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج برجا من خشب يحكم على السور وزحفوا الى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسور فكشفوه واسندوا السلالم الى السور وثبت الناس في الحرب من الفجر الى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحته خلق كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج جميعه الى البلد ، وانهزم بعض الناس الى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمنوهم ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور ، وهجموها وناموا فيها ، وجعلوا يهدئون الناس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقا ، وسبوا النساءوالصبيان .

وقتل فيها أكثر من عشرين الف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شيزر وغيرها من بني سليمان وبني ابي حصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعا كثيرا ، فاستخرجوا ذخائر الناس ، ومنعوا الناس من الماء ، وباعوه منهم فهلك اكثر الناس من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوما بعد الهجمة ، ولم يبقوا ذخيرة بها الا استخرجوها .

وهدموا سور البلد واحرقوا مساجده ودوره وكسروا المنابر (٦٢) وعاد بيمند الى انطاكية وقمص الرها اليها ، وفي هذه السنة فتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرة (٦٣) .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر والجسر وغير ذلك .

وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلط الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوجه الملك رضوان في سلخ رجب من هذه السنة الى الأثارب وأقام عليها أياما ، وتوجه الى « كلا » في الخامس والعشرين من شعبان لاخراج الفرنج منها ، ومن كان في الجزر وزردنا وسرمين من الفرنج والتقوا فانهزم رضوان ، واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير واسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء (٦٤) .

وعاد الفرنج الى الجزر وأخذوا برج كفرطاب (٦٥) وبرج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب الى الحاضر ، ومن حلب غربا سوى تل مذس فان اصحاب جناح الدولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه النكبة الى حمص مستنجدا بجناح الدولة فأجابه ، وعاد الى حلب ومعه جناح الدولة ، وقد عاد الفرنج

الى انطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياما ، فلم يلتفت رضوان فعاد عنه الى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد الى قرب حلب فنزلوا المشرفة ـ من الجانب القبلي على نهر قويق ـ لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجف ، ومشهد الدكة ، ومشهد قرنبيا حصونا ، وان يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها .

فأقاموا في تدبير ذلك يوما أو يومين فبلغه خروج انوشتكين الدانشمند ، وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدفع عنها ،

فخرج الدانشمند فلقي بيمند وجمعا من الفرنج بأرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يفلت منهم أحد ، فخيب الله ظن الفرنج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدولة الى أسفونا وبه جماعة من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار الى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعة وحملهم الى حمص .

وطلب الحكيم المنجم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد افسد مابينه وبين رضوان واستمال رضوان الى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ

جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ، فوصل هذا الحكيم حلب سالما في جملة من سلم في هذه الوقعة .

واستغل جناح الدولة سرمين ومعرة النعمان وكفر طاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصول نفسه من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار وفدى اصحاب الملك نفوسهم ايضا بمال حملوه اليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلا حصن بسرفوث (٦٦) - من عمل بني عليم -

وتسلم دقاق الرحبة في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وكان المقيم بها زوج آمنة بنت قيماز (٦٧) ، وكان قيماز من أصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرحبة له ، وكان جناح الدولة قد خرج اليها فوجد الأمر قد فات ، فعاد ونزل النقرة وخرج اليه رضوان الى النقرة واصطلحا ، وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه .

وسار جناح الدولة الى حمص فسير الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتالوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض اصحابه وقتلوا ، وقيل :« ان ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات ، وقام بعده بأمر الدعوة الباطنية بحلب رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي .

ووصل صنجيل الفرنجي ونزل حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم اليه

حمص ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه اسوء رأيه فيهم ، وسيروا الى ذواب دقاق الى دمشق ، وكان دقاق بالرحبة فسار ايتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القلعة .

ووصل رضوان الى القبة (٦٨) فبلغه الخبر وعاد ورحل صنجيل عنها بعد أن قرر عليهم مالا ، ووصل دقاق فتسلم حمص وأحسن الى أهلها ونقل أهل جناح الدولة وأولاده الى دمشق ، وسلم حمص الى طغتكين .

وسار والي عزاز وأغار على الجومة - وهي من عمل انطاكية - فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرها فنزلوا المسلمية (٦٩) وقتلوا بعض أهلها، وقطعوا على عدة مواضع قطائع أخذوها ، وأقاموا ببلد حلب أياما ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ماخلا من أسروه على المسلمية من الأمراء ، وذلك في سنة ست وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تل باشر ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بسرفوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا الى كفرلاثا (٧٠) فكبسهم بذو عليم فانهزموا الى بسرفوث .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القمص ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة (٧١) .

وكان الملك رضوان قد سار إلى الفرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر انفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على من عندهم من

الفرنج ، فوثب أهل الفوعة وسرمين ، ومعرة مصرين وغيرها ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الامان من رضوان فأمنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل و « هاب » (٧٢) ، وحصون المعرة ، وكفر طاب ، وصوران (٧٣) .

فوصل شمس الخواص وفتح صوران ، فهرب من كان بلطمين وكفر طاب وبلد المعرة والبارة الى انطاكية ، وسلموها الى رضوان وأصحابه ما خلا « هاب » .

واسترجع رضوان بالس والفايا ممن كان بهما من أصحاب جناح الدولة وجرى بحماة خاف ، وخافوا من شمس الخواص ، فكاتبوا رضوان ، وسلموها اليه وسلامية ، فأمنت أعمال حلب وتراجع أهلها اليها وقوي جأش رضوان .

واتصلت غارات عسكر حلب الى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنه لم يفلت من وقعة سكمان الا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فصار الى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم الى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يدبر أمر انطاكية والرها (٧٥) .

ومات الملك دقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولد له صغير اسمه تتش (٧٦) ، وجعل التدبير الى أتابك طغتكين ، فتوجه الملك رضوان نحو دمشق ، وحاصرها ، وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد الى حلب .

ثم إنه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقا كثيرا ، وعزم على قصد طرابلس معونة لفخر الملك بن عمار على الفرنج النازلين عليه .

وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه الى الملك رضوان لجور الافرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميع من في أعماله من الفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة فلم يسلم منهم الا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل الى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة الاف مابين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون ، وهرب أهل الجزر وليلون الى حلب ، فأدركهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الأولى على كلا .

ونزل طنكريد على تل أعذى – من عمل ليلون – وأخذه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب .

ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماة ومن الغربية الا الأثارب ، والشرقية والشمالية في يده ، وهي غير آمنة .

وسير أبو طاهر الصائغ الباطني جماعة من الباطنية من أهل سرمين الى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بابن القنج السرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعة من أهل

افامية ، ونقبوا سور الحصن ، ودخلوا منه ، وطلع بعضهم الى القلعة فأحس بهم ، فخرج فطعنه أحدهم بخشت (٧٧) فرمى بنفسه ، فطعن أخرى فمات ، ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل ابو طاهر الصائغ الى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد الى أفامية ، فقطع عليها مالا أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض اصحابه ، فأطمعوه في افامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلمها في الثالث عشر من محرم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السرميني بالعقوبة ، ولم يف لابي طاهر الصائغ بالأمان ، وحمله معه اسيرا فاشترى نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة احدى وخمسمائة ، عصى ختلغ بقلعة عزاز ، واستقر ان يسلمها الى طنكريد ، ويعوضه عنها موضعا غيرها ، فسار رضوان اليها فتسلم عزاز منه .

وبلغ رضوان ، في سنة احدى وخمسمائة ، ماذكر به من مشايعة الباطنية ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان محمد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطني الذي عمل في قتل ابن ملاعب مادبر الخروج من حلب فيمن معه ، فانسل وخرج بجماعة من اصحابه بعد ان قتل افراد منهم .

وفي سنة احدى – وقيل : اثنتين – وخمسمائة اجتمع جاولي سقاوة وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب انطاكية ، واستنجد طنكريد بالملك رضوان ، فأمده بعسكر حلب والتقوا ، فقتل من الفرنج جماعة .

ووصل الى جاولي من أخبره أن الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجالة طنكريد وأكثر خيله .

وعاد الى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلم بالس من أصحاب جاولي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه خلق عظيم ، ثم عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير الى جهاد الفرنج ، فجمعا وسارا ، ووصل اليهما نجم الدين ايلغازي بن أرتق في خلق كثير من التركمان ، فرحلوا الى الرها فنزلوا عليها وأحدقوا بها في شوال من هذه السنة .

فاتفق الفرنج كلهم ، وأزالوا ماكان بينهم من الشحناء ، وكان المسلمون في جمع عظيم ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد الذفار ، وقصدوا انجاد من بها من الفرنج ، وأحجموا عن العبور الى الجانب الجزري لكثرة من به من عساكر المسلمين .

فاندفع المسلمون عن الرها الى حران ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، ووصلهم عسكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وبلغهم خبر المسلمين عادوا ناكصين على الأعقاب الى شاطيء الفرات ، فنهض المسلمون في أثرهم ، وأدركتهم خيول الاسلام ، وقد عبر الأجلاد منهم ، فغنم المسلمون جل سوادهم وأكثر اثقالهم ، واستباحوهم قتلا واسرا وتغريقا في الماء ،وأقام المسلمون بازائهم على الفرات .

ولما عرف الملك رضوان هزيمة الفرنج عن الرها خرج ليتسلم أعمال حلب التي كانت في أيدي الفرنج ، وقاتل ماامتنع عليه منها ، وأغار على بلد انطاكية وغنم منها مايجل قدره ، وكان بينه وبينهم مهادنة نقضها .

وكاتب الفرنج رضوان يوهنون رأيه في نقض الهدنة ، فلما تحقق سلامة طنكريد وعوده رجع الى حلب .

وعاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقيها، فقتلوا من وجدوا ، وسبوا أهل النقرة ، وأخذوا ماقدروا عليه من المواشي .

وهــــرب الناس نحــــو بــــــالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الاثارب (٧٨) ،وطيب قلوب الفلاحين من المسلمين ، وأمنهم ونصب على الأثارب المناجيق وكبشا عظيما ينطــح بــه شرفــات الأســوار فيلقيها ، فخرب اسوارها وكان يسمع نطحه مـــن مســـيرة نصـــف فرسخ .

وبـــذل رضـــوان لطنكريد في الموضـــع عشرين ألف دينار على أن يرحل فامتنع ، وقــال :« قــد خسرت ثــلاثين ألف دينار ، فـــان دفعتموها الي وأطلقتـــم كل عبـد بحلب منذ ملكت انطـاكية فـأنا أرحل » فاستعظم ذلك واتكل على الحوادث .

وكان الذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، واخذها الخازن على وسطه ، وهرب الى الفرنج ، وهرب جماعة أخر من المسلمين اليهم فكتبوا الى الملك رضوان كتابا على جناح طائر يخبرونه بما تجدد من قوة الحصار وقلة النفقة وقتل الرجال ، وأرسلوا الطائر فســقط في عسكر الفرنج ، فرماه أحدهم بنشابة فقتله .

وحمل الكتاب الى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وبذل رضـــوان المال المطلوب له على ان يكون اقســاطا ويضــع عليه رهــــائن فلم يفعل ،ويئس من في الاثارب من نجدة تصــل اليهــم فســلموها الى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صـــالح رضـــوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس مـــن الخيل ، وقبضها وعاد الى انطاكية .

ثم عاد وخرج الى الاثارب ، وقــد ادركت الغلة ، وضـــعفت حلب بأخذ الاثارب ضعفا عظيما، وطلب من حلب المقاطعة التـــي قـــررها على حلب واسرى من الارمن كان رضوان أخذهم وقت اغارتـــه على

بلد انطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم اليه ، وطلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حرم الفلاحين المسلمين من الأثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهن اليه .

وضاق الأمر بأهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج .

وقلت المغلات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب الى يومنا هذا ، غير ماباعه في غير ذلك اليوم من الأملاك (٧٩) .

ولذلك يقال أن بيع الملك من أصح أملاك الحلبيين لأن المصلحة في بيعها كانت ظاهرة لاحتياج بيت المال الى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيون العساكر الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهز السلطان العساكر للذب عنهم ، فكان أول من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره الى شبختان ، ففتح تل قراد (٨٠) وعدة حصون .

ووصل احمديل الكردي في عسكر ضخم وسكمان القطبي ، وعبروا الى الشام فنزلوا تل باشر ، وحصروها حتى اشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد اخذ حصن بكسرائيل (٨١) ، وتوجه مغيرا على بلد شيزر ونازلها .

وشرع في عمارة تل ابن معشر (٨٢) وضرب اللبن وحفر الجباب ليودع بها الغلة ، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمد على تل

باشر رحل عنها وأما العساكر الاسلامية النازلة على تل باشر فان سكمان مات عليها - وقيل : بعد الرحيل عنها - وأشرف المسلمون على أخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمد يل الكردي وحمل اليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه الى ذلك .

وكتب الملك رضوان الى مودود وأحمديل وغيرهما :« انني قد تلفت وأريد الخروج من حلب ، فبادروا الى الرحيل » فحسن لهم أحمديل الرحيل عنها بعد ان اشرفوا على أخذها ، ورحلوا الى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجههم ، وأخذ الى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها .

ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة .

وأقام الناس ثلاث ليال ، مايجدون شيئا يقتاتون به ، فكثرت اللصوص من الضعفاء ، وخاف الأعيان على أنفسهم .

وساء تدبير الملك رضوان فأطلق العوام السنتهم بالسب له وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم .

وضبر (٨٣) انسان من السور فأمر به فضربت عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه الى آخر فأمر به فألقي من السور الى أسفل ، فعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسبيهم أهله .

وبث رضوان الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر فيأخذونه ، فرحلوا الى معرة النعمان في آخر صفر من سنة خمس

وخمسمائة ، وأقاموا عليها أياما ووجدوا حولها ماملأ صدورهم مما يحتاجون اليه من الغلات وماعجزوا عن حمله .

وكان أتابك طغتكين قد حصل معهم ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد مابينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في جملة مودود صاحب الموصل ، وثبت له مودود ووفى له .

وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا من متاع مصر ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة الى العاصي فنزلا على الجلالي .

فنزل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل وساروا لقصد المسلمين فخرج أبو العساكر بن منقذ من شيزر بعسكره وأهله واجتمعوا بمودود وأتابك وساروا اليهم .

ونزلوا قبلي شيزر والفرنج شمالي تل ابن معشر ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ، فأصبحوا هاربين سائرين ، يحمي بعضهم بعضا .

ووصل الى حلب في هذه السنة في شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيه تاجر كبير يقال له ابو حرب عيسى بن محمد الخجندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها اصناف التجارات ، وكان شديدا على الباطنية انفق اموالا جليلة على من يقاتلهم ، وكان قد صحبه من خراسان باطني يقال له أحمد بن نصر الرازي وكان أخوه قد قتله رجال الخجندي .

فدخل أحمد الى حلب ، (٨٤) ومضى الى ابي طاهر الصائغ العجمي رئيس الباطنية بحلب ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد

الى رضوان ، وأطمعه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه ، إذ هو معروف بعداوة الباطنية .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحا ، وبعث غلمانه يتوكلون به ، وسير أبو طاهر الباطني معه جماعة من أصحابه ، فبينا أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه اذ هجم عليه أحمد بن نصر الرازي في جماعة من أصحاب أبي طاهر الباطني ، فقال لغلمانه :« أليس هذا رفيقنا ؟» فقالوا :« هو هو » فوقعوا عليه فقتلوه .

وقتل الجماعة الذين معه من أصحاب ابي طاهر الباطني العجمي بأسرهم ، ثم قال أبو حرب :« الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا الى أن جئنا الى الأمنة ، فبعث علينا من يقتلنا »

فأخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السنة والشيعة الى هذا الرجل ، وأظهروا انكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك .

وكاتب الفقيه أبو حرب أتابك طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم الى رضوان يذكرون عليه ، فأنكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية .

وخرج الرجل عن حلب مع الرسل فعاد الى بلده، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

ثم ان رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك اليه ويستصلحه ، فاستدعاه الى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف

دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طذكريد من ذلك ، فـوصل طغتـكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال .

واستقر الأمر على أن أقام طغتـكين الدعوة والسـكة لرضـوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طذكريد في سنة ست وخمسمائة ، واستخلف ابـن اختـه روجار وأدى اليه رضوان ماكان يأخذه منه طذكريد وهـو عشرة آلاف دينار .

ووصل مودود الى الشـــام ، واتفـــق مـــع طغتـــكين على الجهاد ، وطلب نجدة مـــن الملك رضـوان فتـأخرت الى أن اتفـــق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبها نجـدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس وخالف فيمـا كان قـرره ووعد به ، فأنكر أتابك ذلك ، وتقدم بابطال الدعوة والسـكة بـاسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولاتسمح نفسه بـاخراجه حتـى كان أمراؤه وكتابه ينبزونه بأبي حبة ، وهـو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومرض رضوان بحلب مرضا حادا وتوفي في الثامن والعشرين من جمادي الآخرة سنة ســـبع وخمســـمائة ، ودفـــن بمشـــــهد الملك ، فاضطرب أمـــر حلب لوفـــاته وتـــأسف اصــــحابه لفقده ، وقيل : انه خلف في خزانته مـــن العين والآلات والعـروض والاواني مايبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

وملك حلب بعده ابنه الب ارسلان ، ويعرف بالأخرس ، وعمـره ست عشرة سنة، وأمه بنت يغي سيان صاحب انطـاكية ، وكان في كلامه حبسة وتمتمـة فلذلك عرف بـالاخرس ، وكان متهـورا قليل

العقل ، ووضع عن أهل حلب ماكان والده جدده عليهم من الرسوم والمكوس .

وقبض على أخوته ملك شاه ومبارك ، وكان مبارك من جارية وملك شاه من أمه ، فقتلهما ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ، فانظر الى هذه المقابلة العجيبة ، وقبض جماعة من خواص والده فقتل بعضهم وأخذ أموال الآخرين .

وكان المتولي لتدبير أموره خادم لأبيه يقال له لؤلؤ اليايا ، وهو الذي أنشأ خانكاه البلاط بحلب (٨٥) وكان قبل وصوله الى رضوان خادما لتاج الرؤساء بن الخلال ، فدبر اسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب في أيام أبيه ، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلبا لجاههم ، وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم .

وكان حسام الدين بن دملاج وقت وفاة رضوان بحلب ، فصاروا معه ، وصار ابراهيم العجمي الداعي من ذوابه في حفظ القليعة بظاهر بالس .

فكتب السلطان محمد بن ملك شاه الى الب أرسلان وقال له :« كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم ».

وشرع الرئيس ابن بديع متقدم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان في أمرهم ، وقرر الأمر معه على الايقاع بهم ، والنكاية فيهم ، فساعده على ذلك .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقتل اسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبض على زهاء مائتي نفس منهم .

وحبس بعضهم واستصفى أموالهم ، وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى القلعة ، ومنهم من قتل ، وأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد ، وهرب ابراهيم الداعي من القليعة الى شيزر ، وخرج حسام الدولة بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها اليهم من ماله ، ولم يكلف أحدا من أهل حلب شيئا منها .

ثم أن ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسن تدبير ، وأشار خدمه وأصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، وسأله الوصول اليه ليدبر حلب والعسكر ، وينظر في مصالح دولته ، فأجابه الى ذلك ، ورأى موافقته لكونه صبيا لايخافه الكفار ولارأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدعوة للسلطان وضربت السكة باسمه ، وذلك في شهر رمضان .

وأوجبت الصورة أن خرج ألب أرسلان بنفسه في خواصه ، وقصد أتابك الى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقيه أتابك على مرحلتين ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في اكرامه وخدمته والوقوف على رأسه ، وحمل اليه دست ذهب وطيرا مرصعا وعدة قطع ثمينة ، وعدة من الخيل، وأكرم من كان في صحبته (٨٦)

وأقام بدمشق اياما وسار في أول شوال عائدا الى حلب ، ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده أياما واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره ، وكان قد أشار عليه بعض اصحابه بقبضه ، وقبض جماعة من أعيان عسكره وقبض الوزير أبي الفضل بن

الموصول ، ففعل ذلك ، فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه .

وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع ، وكان وجيها عند أبيه رضوان ، فصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثم اطلقه بعد ان قرر عليه مالا ، وأخرجه وأهله من حلب ، فتوجه الى مالك بن سالم الى قلعة جعبر .

وسلم رئاسة حلب الى ابراهيم الفراتي ، فتمكن ولقب وذوه باسمه ، واليه تنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب ، ثم رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والاعراض عن مشورته ماأنكره ، فعاد من حلب الى دمشق ، وخرجت معه أم الملك رضوان هربا منه .

وساءت سيرة ألب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل ، وبلغنا (٨٧) أنه خرج يوما الى عين المباركة متنزها ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونصب خيمة ، ووطئهن كلهن .

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرفين وأعاد الوزارة الى أبي الفضل بن الموصول ، وجمع ألب أرسلان جماعة من الأمراء ، وأدخلهم الى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينظروه ، فلما دخلوا اليه قال لهم :« ايش تقولون في من يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟» فقالوا :« نحن مماليكك وبحكمك » وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، فلما نزل سار عن حلب، وتركها خوفا على نفسه .

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب، في شهر

ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعده على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخا له صغيرا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم الى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم الى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ، ولايمكنه ذب الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك ان المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ماهم فيه .

وقل الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه وقلت الأموال واحتيج اليها لصرفها الى الجند ، فباع لؤلؤ قرى كثيرة من بلد حلب ، وكان المتولي بيعها القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولى صرف أثمانها في مصالح القلعة والجند والبلد .

وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصل ماله ، وسار الى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي مدة، ثم صادره وضربه وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده الى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلة الاحد ثامن وعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحران وأنطاكية ومرعش والثغور الشامية ، وسقط برج باب انطاكية الشمالي وبعض دور العقبة وقتلت جماعة .

وخربت قلعة عزاز ، وهــرب واليهــا الى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشة ، فحين وصل الى حلب قتله وأنفذ اليها من تــداركها بالعمارة والترميم ، وخرب شيء يسير في قلعة حلب ، وخرب أكثــر قلعة الأثارب وزردنا .

وقيل : ان مؤذن مسجد عزاز كان حارسا بالقلعة فحــرس ونام على برج المسجد بالقلعة ، فلمــا جــاءت الزلزلة ألقتــه على كتــف الخندق وهو نائم لم يعلم بها ، فـــاجتاز بـــه جمـــاعة فـــظنوه ميتا ، فأخذوا عنه اللحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواص مقــدم عســكر حلب ، ومتــولي اقــطاع الجند ، وكانت ســيرته اذ ذاك صــالحة ، وكان لؤلؤ في أول أمــره مقيما بقلعة حلب لاينزل منها ويدبر الأمور ، فــكتب الى الســلطان على سبيل المغالطة يبذل له تســليم حلب والخــزائن التــي خلفهــا رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب انفاذ العساكر اليه .

فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش ومنكوبرس (٨٨) وغيرهم من أمراء السلطان في ســنة تســع وخمســمائة ، فتغيرت نية لؤلؤ الخادم عما كان كتب به الى السلطان ، وكتب الى أتــابك طغتــكين يستصرخه ويســتنجده ، ووعده تســليم حلب اليه ، وأن يعــوضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك (٨٩) .

ووصل حلب ، والعساكر السلطانية ببالس متــوجهين الى حلب فرحلوا منها الى المعرة ، ووصلهم الخبر ان ذلك اليوم وصل اتــابك الى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا الى حماة فتسلموها .

وتسلموا رفنيه (٩٠) مــن أولاد علي كرد ، وســلموها الى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عســاكر الســلطان أن يقصــد دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشــمس الخــواص وايلغــازي بــن أرتق ، واستنجد بصاحب انطاكية روجار وغيره مــن ملوك الفــرنج ونزلوا أجمعين أفامية .

ونزلت العساكر السلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه ، أو يذكسروا فتستولي العساكر السلطانية على مافي يده .

وخاف الفرنج وضاقت صدور أمراء عسكر السلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتفق اتابك والفرنج على عود كل قوم الى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوجه أتابك الى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص الى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السلطان حينئذ عن حصن الأكراد ، وساروا الى كفر طاب ، وحصروا حصنا كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوا وقتلوا من فيه ، ورحلوا الى معرة النعمان .

وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالشرب والنهب ووقع التحاسد فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا من جهة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول ان شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج . ورحل برسق وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث(٩١) يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضياع .

ووصل برسق بالعسكر الى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة فساعة ، فوصلهم الفرنج ، وقصدوا العسكر من ناحية جبل السماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث الى تل السلطان .(٩٢)

واستتر قوم في الضياع من العسكر فنهبهم الفلاحون واطلقوهم ، وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الاحصاء ، وأخذ الكفار من هذا ما يفوت الوصف ، وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور .

وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها واجتمع العسكر على تل السلطان ، ورحلوا الى الذقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا الذقرة ، وكان أوبنا (٩٣) قد طلع أصحابه الى حصن بزاعا ، وكان قد تقدم العسكر اليها ، فلما بلغهم ذلك نزلوا ووصلوا الى العسكر .

وتوجهت العساكر الى السلطان والى بلادهم ، ووصل طغتكين من دمشق فتسلم رفنية (٩٤) ممن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال ، وسلم اليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل الى طغتكين فرد عليه رفنيه ، وعاد الى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانه صار بعد ملازمة القلعة ينزل منها في الأحيان ويركب ، فاتفق أنه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب الى بالس ، وهو في صورة متصيد ، فلما وصل الى تحت قلعة نادر قتله الجند (٩٥).

واختلف في خروجه ، فقيل: انه كان حمل مالا الى قلعة دوسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعود الى حلب ، وكان السلطان قد اقطع حلب والرحبة أق سنقر البرسقي (٩٦) ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤا وصاروا من خواصه ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمل أنهم اذا قتلوه تصح له اقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضهم الى الرحبة فأعلمه ، فأسرع أق سنقر البرسقي

المسير الى حلب من الرحبة ، وانضاف بعض عسكره الى بقية القوم الذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا اليها فسبقهم ياروقتاش الخادم - أحد خدم الملك رضوان - ودخل حلب .

وقيل : إن لؤلؤا كان قد خاف فأخذ أمواله ، وخرج طالبا بلاد الشرق للنجاة بأمواله ، فلما وصل الى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشي :«تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي!» وصاح بالتركية: «أرنب أرنب » فضربوه بالسهام فقتلوه .

ولما خرج عن حلب اقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومين الى أن وصل ياروقتاش الخادممبادرا فدخل حلب ونزل بالقصر ، وأخرج بعض عسكر حلب ، وأوقع بالذين قتلوا لؤلؤا ، وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب وانهزم بعض من كان في النوبة فالتقوا أق سنقر في بالس في أول محرم سنة احدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهل للبرسقي ما أمل ، وراسل أهل حلب ومن بها في التسليم اليه فلم يجيبوه الى ذلك .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين ايلغازي بن أرتق ليصل من ماردين ويدفع أق سنقر ، وكاتب روجار صاحب انطاكية أيضا فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ماقدر عليه من أعمال الشرقية ، فحينئذ أيس البرسقي من حلب ، وانصرف من أرض بالس الى حمص فأكرمه خيرخان صاحبها ، وسار معه الى طغتيكين الى دمشق فأكرمه ، ووعده بانجاده على حلب .

وهادن ياروقتاش صاحب انطاكية روجار ، وحمل اليه مالا وسلم اليه حصن القبة ، ورتب مسير القوافل من حلب الى القبلة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إن ياروقتاش طلع الى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلة يوقعها بالمقدمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادما من خدم رضوان .

ورد أمر سلطان شاه وتقدمه العسكر وتدبير الأمور الى عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحى ، فدبر الأمور وساسها ، وضعفت حلب وقل ارتفاعها وخربت أعمالها .

ووصل ايلغازي بن أرتق الى حلب فأنزلوه في قلعة الشريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلموا اليه بالس والقليعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحى ، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه إيلغازي والتركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من اهل حلب وجندها فخرج عنها الى ماردين ، وبقيت بالس والقليعة في يده ، وأخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعيد الى تدبير الأمور .

وأفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج وحصروها ، فوصل ايلغازي في جمع من التركمان اليها ، فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالس وباعها لابن مالك ، وعاد الى ماردين ، وبقي تمرتاش ولده رهينة في حلب .

ووصل في هذه السنة اتابك طغتيكن وأق سنقر البرسقي الى حلب ، وراسل اهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا: «ما نريد احدا من الشرق» وأنفذوا واستدعوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سنقر الى الرحبة وأتابك الى دمشق .

واشتد الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزرع عرق ولحقه هواء عند ادراكه أتلفه ، وهرب الفلاحون للخوف ، واستدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص ، فرتب الامور بها ، وحصنها ، وسار الى حلب ، ونزل في القصر خوفا من ايلغازي لما كان بينهما (٩٨).

وخرج اتابك الى حمص ، ونهب اعمالها وشعثها ، وأقام عليها مدة ، وعاد الى دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلة من حلب الى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا ذخائرهم وأموالهم لما قد أشرف عليه أهل حلب ، فلما وصلوا الى القبة نزل الفرنج اليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ، ورفعوهم الى القبة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى إفامية ، ومعرة النعمان ، وحبسوهم ليقروا عليهم مالا .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل الى صاحب انطاكية مالا وهدية ، فرد عليهم الاحمال والاثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

وقوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجد وضعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلد حلب ، وأخذوا مالا لا يحصيه الا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالانجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطربا بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها ، وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوب أهل حلب اذ لم يكن بقي لحلب معونة إلا من عزاز وبلدها ، وبقية بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقي خراب مجدب ، والقوت في حلب قليل جدا ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكوك حلب الآن ، وماسوى ذلك مناسب له .

ويئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد من الملوك ، فاتفق

رايهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين الى ايلغازي بن ارتق ، وا ستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا انه يصل في عسكر يفرج به عنهم ، وضمنوا له مالا يقسطونه. على حلب يصرفه الى العساكر .

فوصل في جند يسير والمدبر لحلب جماعة من الخدم ، والقاضي أبو الفضل بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ، فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشاب وجماعة من المقدمين ، وتلطفوا به ولم يزالوا به حتى رجع .

ووصل الى حلب ، ودخلها ، وتسلم القلعة ، وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب .

وقبض على جماعة ممن كان يتعلق بالخدم ويخدمهم ، واخذ منهم ما كان صار اليهم من مال رضوان ومال الخدم الذين استولوا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مال يحمله عن عزاز ليرحلوا ، فلم يلتفتوا لقوة اطماعهم في أمر الاسلام ، وكان ايلغازي يعجز بحلب عن قوت الدواب ، وحلب على حد التلف .

فلما عرف من بعزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلموها الى الفرنج ، وراسلهم من بحلب في صلح يستأذنونه معهم ، فأجابوا الى ذلك لطفا من الله بهم ، على أن يسلموا الى الفرنج تل هراق ويؤدون القطيعة المستقرة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي الف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالا وغربا .

وزرعوا اعمال عزاز وقووا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل الى حلب ما يتبلغون به من القوت .

وسار إيلغازي الى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها الى حلب ، فسار اليه أتابك طغتيكن ، والتقاه بقلعة دوسر ، ووافقه على ذلك ، وسارت الرسل الى ملوك الشرق والتركمان يستنجدونهم .

وكان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دوسر ، فنزل الى ايلغازي ليطلب منه العود الى حلب ، فلما صار عند الزورق ليقطع الماء الى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنية فضرباه عدة سكاكين ، ووقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع واحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل الى القلعة فوثب آخر من الباطنية وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

وتوجه ايلغازي الى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والتركمان ، فجمعا عسكرا عظيما ، وتوجه ايلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفا في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفرات من عبر بدايا وسنجة (٩٩).

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كل ماقدروا عليه ، ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب وأيأس أهلها من انفسهم ، فسار الى مرج دابق ثم الى المسلمية ، ثم الى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الروج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطون في الروج ، وجمع سرجال صاحب انطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج الى جسر الحديد ، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، ممايلي درب سرمدا ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الاول .

وضجر الأمراء من طول المقام ، وايلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل اليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحثوا ايلغازي على مناجزة العدو فجدد ايل غازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العدو ، وأنهم لا يذكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة .

وسار المسلمون جرايد ، وخلفوا الخيام بقنسرين ، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول ، فباتوا قريبا من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون ان المسلمين ينازلوا الأثارب أو زردنا ، فما شعروا عند الصبح الا ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

واقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال ، وهو راكب على حجر وبيده رمح ، فرآه بعض العسكر فازدراه وقال :« إنما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمم ! » فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهف هممهم بين الصفين ، فأبكى الناس وعظم في أعينهم .

ودار طغان ارسلان بن دملاج من ورائهم ونزل في خيامهم ، وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قتل .

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والاتباع والغلمان بالسهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقتل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفرا منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفرا لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقتل في المعركة مايقارب خمس عشر الفا من الفرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقت الظهر ، فوصل البشير إلى حلب بالنصر ، والمصاف قائم ، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا اصيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأحرق اهل القرى القتلى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس واحد اربعون نصل نشاب ، ونزل ايلغازي في خيمة سرجال ، وحمل اليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم الا سلاحا يهديه لملوك الاسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي ايلغازي ، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهرا بالقوة ، واسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح ، فلما حضر بين يدي ايلغازي قال له التركمان : «أما تستحي يأسرك مثل هذ الضعيف وعليك مثل هذا الحديد؟» فقال: «والله ما اخذني هذا ، ولا هو مولاي وإنما أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى ، وسلمني الى هذا ، وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس اخضر».(١٠١).

وتفرقت عساكر المسلمين في بلد انطاكية والسويدية وغيرهما يقتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة ، فأخذ المسلمون من السبي والغنائم والدواب ما يفوت الاحصاء ، ولم يبق أحد من الترك الا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي .

ولقي بعض السرايا بغدوين الرويس وابن صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة ، وقد توجها لنصرة سرجال صاحب أنطاكية ، فأوقع بهم الترك ، وقتلوا جماعة وغنموا ماقدروا عليه ، وانهزم بغدوين وابن صنجيل ، وتعلقوا بالحبال .

ورحل ايغازي الى ارتاح ،وبادر بغدوين فدخل

انطاكية ، و سلمت اليه اخته زوجة سرجال خزائنه وامواله ، وقبض على اموال القتلى ودورهم ، وأخذها وزوج نساء القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل ، وجمع وحشد واستولى على انطاكية ، ولو سبقه ايلغازي الى انطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدين أرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الربض ونهبه ، وقتل من قدر عليه ، وخرج احداث من حلب ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمنهم بعد ان استأخذت ، وسيرهم الى مأمنهم .

ورحل منها الى زردنا وكانوا قد حصنوها واحكموا عمارتها ، وقاتلها فطلبوا الأمان فأمنهم ، وسيرهم الى انطاكية فلقيهم بعض التركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومضوا الى أهلهم .

وكان صاحب زردنا لما بلغه منازلتها ، حمل بغدوين والفرنج على الخروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرق التركمان بالغنائم وعودهم إلى أهليهم ، وأن إيلغازي في عدة قليلة ، فبلغه ذلك فجد في قتالها حتى أخذها – كما ذكرناه – ورتب اصحابه بها ، وتوجه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر اتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد الى دانيث بعد ان رد الأثقال والخيام إلى قنسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نزلوها يوم فتحه زردنا في مائتي خيمة وراجل كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سوى الرجالة ، وذلك في رابع جمادي الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زردنا وأكثر خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص وبعض التركمان ، فكشفوهم وانهزموا بين ايديهم ، وسار ليتدارك أمر زردنا ويكبس الأثقال والخيام فعرف أخذها وتسيير الأثقال الى قنسرين فعاد .

وحمل بقية المسلمين على بغدوين ومن كان معه ، فقتلوهم

ورودهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل ايلغازي وطغتكين وطغان ارسلان فيمن بقي من الخواص على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرجالة وبعض الخيالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا الى حصن هاب ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدين وطغتيكن وطغان أرسلان الى دانيث ، فوجدوا صاحب زردنا والفرنج قد عادوا بعد أن هزموا من كان بين ايديهم من المسلمين ومعرفة اخذ المسلمين زردنا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وانهزم الباقون الى هاب ، وعاد الترك بالظفر والغنيمة .

وحين بلغ من بقنسرين مع الأثقال هزيمة من كان مقابلة صاحب زردنا رحلوا الى حلب ، وانزعج اهل حلب غاية الانزعاج فوصلهم البشير بعد ساعتين بما بدل غمهم سرورا وهمهم حبورا .

وكان البشير من الفرنج قد مضى الى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زردنا للمسلمين ، فزيذوا بلادهم ، وأظهروا فيها الجذل والمسرة فوصل ابن صنجيل من الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورهم حزنا وراحتهم تعبا وعناء .

وكان صاحب زردنا ، وهو القومص الابرص واسمه رونارد (١٠٣) ، قد

سقط عن فرسه ، فأدركه قوم من أهل جبل السماق من أهل مريمين ، فقبضوه وحملوه الى ايلغازي بظاهر حلب ، فأنفذه الى أتابك طغتكين ، فقتله صبرا .

ثم نخل الى ايلغازي بظاهر حلب ، وأحضر الاسرى فأفرد أصحاب القلاع والمقدمين وابن بيمند صاحب انطاكية ورسول ملك الروم وذفرا يسيرا ممن كان معه مال فأخذه وأطلقهم ، وبقي من الأسرى نيف وثلاثون رجلا بذلوا من المال ما رغب عنه ، فقتلهم بأسرهم . وتوجه من حلب الى ماردين في جمادى الاولى من سنة

ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التركمان من يعـود بـه الى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفة عن مقامه فيها ، فخرج الفـرنج الى بلد المعرة ، فسبوا جماعة ، وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا .(١٠٤)

ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسـكره ونزل على زور ، غربـي الباره ـ وهو حصن كان لابن منقـذ وسـلمه اليهـم ـ ولما جـرت الوقعة الأولى على البلاط عاد وأخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخـذه في جمادى الأولى ، وأطلق من كان فيه .

ورحل الى كفر روما(١٠٥) فأخذ حصنها بـالسيف ، وقتـل جميع من كان فيه ، ووصلوا الى كفر طاب ، وقـد احـرق ابـن منقـذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفا منهم ، فرمموه ، ورتبوا رجـالهم فيه ، وساروا الى سرمين ومعره مصرين فتسلموها بالأمان ، ثـم نزلوا زردنا ، ورحلوا عنها الى انطاكية .

ومع هذا فغـارات عسـكر حلب متـواصلة على مـايقرب منهم ، وتعود بالظفر والغنيمة .

ووصل جوسلين الى بغدوين خاله وقت أخذه سرمين ، فـأقطعه الرها وتل باشر ، وسـيره اليهمـا ، فـأسرى الى وادي بـطنان دفعتين ، والى ما يلي الفرات من جهة الشام ، وقتـل وسـبى مـا يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنقره وأعمـال حلب الشرقية ، وأخذ كل مـا وجـده مـن دواب ، وأسر رجـالا ونساء ، وأسرى الى الراوندون يتبع طـائفة مـن التـركمان كانت قطعت الفرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة .

وفي صفر من سنة أربع عشره وخمسمائة ، وقعت مشـاحنة بين والي الأثارب بلاق بن اسحاق صـاحب نجـم الدين ايلغـازي وبين الفرنج ، فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب الى انطاكية ، فلقيهم عسكر انطاكية فكسرهم ، وعاد فتبعـه الفـرنج والتقـوا مـا بين ترمانين (١٠٧) وتل اعذى ، من فرضة ليلون .

ووصل في هذه السنة ايلغازي بجمع كثير من التركمان ، وقطع الفرات في الخامس والعشرين من صفر ، وتوجه الى تل باشر ، وأقام أياما ولم يقاتلها ، ورحل الى عزاز يريد اخذها ، ولم يمكن أحدا من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل الى أنطاكية وأقام عليها يوما واحدا ، وأقام في أعمال الروم أياما يسيره .

ثم خرج الى قنسرين فتشوشت قلوب التركمان لأنهم املوا من الغنائم مثل السنة الخالية ، ولم يقاتل بهم حصنا ، ولا غنموا شيئا ، وباع الأسرى الذين اسرهم في الوقعة الاولى ، فعادوا الى بلادهم ، وبالغوا في التشفي من المسلمين والقتل والسبي

وجرى من نجم الدين اساءة الى بعض التركمان على شيء أنكره عليهم ، فبالغ في هوانهم وحلق لحى بعضهم ، وقطع اعصابهم ، فتفرق عسكره وبقي نفر يسير متفرقين في اعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا الى دانيث ، فوصل طغتيكن وعسكر دمشق ، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يقاوم الفرنج ، فساروا الى الفرنج ، وهم في الف فارس وراجل كثير ، فدار الترك حولهم فلم يخرج منهم احد ، وكرهوا ان يعودوا على اعقابهم فتكون هزيمة ، فساروا نحو معرة مصرين لا ينفرد منهم فارس ولا راجل .

وأشرف الترك على أخذهم ، ومن خرج منهم قتل ، ومن وقفت دابته تركها وأخذت ، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك ، وإيلغازي وطغتكين يردان الناس بالعصا ، فنزلوا بقرب معرة مصرين ، وعاد الترك عنهم الى حلب ، وعادوا الى أنطاكية .(١٠٨)

وصالحهم ايلغازي الى آخر سنة أربع عشرة ، على أن لهم المعرة وكفر طاب والجبل والبارة ، وضياعا من جبل السماق برسم هاب ، وضياعا من ليلون برسم تل اعذى ، وضياعا من بلد عزاز برسم عزاز .

وسار نجم الدين ايلغازي الى ماردين ليجمع العساكر ، وهدم ايلغازي زردنا في شهر ربيع الأول ، وكان أهل حلب قد شكوا اليه تجديد رسوم جددت عليهم في ايام رضوان ، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريين ولا في ايام أق سنقر ، فأمر بكشف مقدارها ، فأخبر انها مبلغ اثني عشر الف دينار في كل سنة ، فرسم بحذفها ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحا بذلك ، وسمره على باب الجامع وذلك في هذه السنة .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاحين الذين تحت ايديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الاموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضياع التي في أيدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنوا بالصلح ، فغدر اللعين جوسلين ، وخرج فأغار على الذقرة والأحص ، واحتج بأنه أسر له والي منبج أسير ، وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في الذقرة والاحص ، ونزل الوادي وعاث فيه .

ثم سار الى تل باشر ، ثم عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الاول ، وأخذ في غارته الاولى المشايخ والعجائز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب الى بغدوين في ذلك ، وقال: «إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر الا ثقة بالصلح» فقال: «مالي على جوسلين يد». وتتابعت من جوسلين غارات متعددة .

ثم خرج الفرنج من انطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وأخذوا مالا يحصى ، وأسروا جمعا ، وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابن منقذ ذلك على أن يردوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه الى ذلك ، فجعل لهم مالا حمله ، وصالحهم الى آخر السنة .

وهرب ملك العرب دبيس بن صدقة الأسدي من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل الى قلعة جعبر ، فأكرمه نجم الدولة مالك ، وأضافه ، ثم سار الى ايلغازي الى ماردين ، وتزوج ابنته فاشتد به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنعمة الوافرة ، وحمل اليه ايلغازي ما يفوت الاحصاء .

فاشتغل ايلغازي بدبيس عن العبور الى الشام فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه ، واغار جوسلين الى صفين(١٠٩) ، وسبى العرب والتركمان ، ونزل بزاعا وقاتلها ، وأحرق بعض جدارها ، وصونع على شيء ودخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة الأثارب ، وقتلوا جماعة وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنهم في ربيع الآخر من السنة ، نزلوا ذواز (١١٠) وزحفوا الى الأثارب ثانية ، وأحرقوا الدور والغلة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ، وأخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجل قدره من الماشية ، وأسر نحو من خمسين اسيرا ، وصاح الصائح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج وخلصوا المواشي ، وعاد الفرنج الى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدولة سليمان بن نجم الدين ايلغازي ، وكان ايلغازي قد ولى رئاسة حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكي بن قرناص الحموي ، وجعله بين يديه ، فكتب الى ولده وذوابه يأمرهم بصلح الفرنج على مايريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النصف ، حتى أنهم ناصفوهم في رحى الغربية(١١١) وعلى أن يهدم تل هراق بحيث يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب ايلغازي الى ذلك ، فامتنع من كان فيها من التسليم فبقيت في ايدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دير خراب قديم ، بالقرب من سرمدا (١١٢) . وحصنه ثم أطلقه لصاحب الأثارب سيرالان دمسخين .

وأمر أيلغازي ولده باخراب قلعة الشريف المجددة بحلب واخراج من كان فيها من جند رضوان ، فأخرجهم شمس الدولة وابن قرناص بعذر الاغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولى الرئيس مكي بن قرناص خرابها في جمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بايلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار اليه في عالم عظيم ومعه دبيس بن صدقة ، فكسرهم المسلمون ، ودخلوا وراءهم في الدرب ، فكر الكرج عليهم في الدرب ، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلا وأسرا ، ونهب لدبيس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين ايلغازي الى ماردين سالما (١١٣)

وأنفذ ايلغازي الى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه اشياء فقبح ذلك عنده ، وقيل له اشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج المملوك سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا الى قلعة جعبر ، ومد يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل: إن دبيس بن صدقة لما سار مع ايلغازي الى الكرج سأل ايلغازي في الطريق ان يهب له حلب وأن يحمل اليه دبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه ايلغازي الى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ الى ولده سليمان ، وكان خفيفا ، وقال له:« أظهر أنك قد عصيت علي حتى يبطل ما بيني وبين دبيس». فحمله الجهل على أن عصى ونابذ

أباه ، ووافقه مكي بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنة حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجاب أبيه فصفعهم وحاق لحالهم ، ومد يده الى أموال الناس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقربهم سليمان ، فنزلوا زردنا وعمروها لابن صاحبها كليام بن ابرص .

ثم سار الفرنج الى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضر طيء وغيرها ، فخرج اليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخربها ، وحمل باب حصنها الى انطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون الذقرة والأحص ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صلدع ـ على نهر قويق ـ وخرج اليه اتزر بن ترك طالبا منه الصلح مع سليمان ، فقال: «على شرط أن يعطيني سليمان الاثارب حتى احفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه» ، فقال له: «ما يجوز أن نسلم ثغرا من ثغور حلب في بدو مملكته ، بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقك عليه » فقال له:«الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فاني قد عمرت عليه الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرسا لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هري (١١٤) شعير ، يعلفها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فذفد هري الشعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » ثم رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيام ، واتصل به ما أوجب رحيله الى أنطاكية .

ولما بلغ ايلغازي اصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل الى قلعة

جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان عن العصيان على أبيه ، فأنفذ اليه من استحلفه على الصفح عنه والاحسان اليه وإلى من حسن له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكد الأيمان على ذلك .

ودخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه ، ودخل الى القصر ، وأحسن الى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصرف الشحنة الذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشق لسانه وكحله وأخذ ما وجد له ، وسلم أخاه الى من يعذبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصر الحاجب ،فعني به من تولى أمره فسلمت احدى عينيه ، وعرقب طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوك أولاد رضوان من قلعة جعبر الى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوج بها ، ودخل بها بحلب ، وولى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، وولى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في ايديهم أيام مملكتهم الاثارب وزردنا .

وسار في محرم من سنة ست عشرة وخمسمائة الى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر وولي الوزارة ابو الرجاء بن السرطان .

وعبر ايلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات – وكان بلك غازي ابن اخيه بهرام بن ارتق ، واستدعاه من اعمال الروم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية – وصحبتهما عدة

من التركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل ابا الرجاء ابن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سعي به اليه عليه .

ونزل ايلغازي زردنا ، نزل عليها في العشرين من جمادى الأولى ، وحصرها أياما وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر ايلغازي الفرات انه ينزلها ، فجمع اصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدة خمسة عشر يوما و حلف هو لهم على ان ينجدهم ، ومض على أن يستجيش ، فان جازت هذه المدة ولم يصلهم فانه يبتاع دماءهم بكل ما يملكه ، وقال لهم: «والله لكم علي من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم الا اسلامي ان قبله اسلمت على يديه لخلاصكم ».

وخرج حتى وصل الى بغدوين صاحب انطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور ايلغازي وبما بلغه من قصده زردنا ، فقال: «مذ حلفنا له وحلف لنا ما نكثنا و حفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته الا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب ان تعود الى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد ». فعاد وكشف الأمر .

وسير الى بغدوين فأعلمه بنزوله على زردنا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول اليه ، ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زردنا ، وأخذوا الفصيل الأول ، فوصل الفرنج بعد أربعة عشر يوما من منازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدير .

وبلغ الخبر ايلغازي ، فترك ، زردنا وتوجه نحوهم ، فنزل دواز ، وطلب ان يخرج الفرنج من المضيق الى السعة فلم يخرجوا ، فرحل الى تل السلطان ، وأتابك طغتيكن في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على دواز وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البيدر والجدار .

ودخل صاحبها يوسف ميرخان قلعتهـا ، ونزلوا أبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، وأقاموا عليها فلم يصـلهم أحـد ، فعادوا الى بلادهم ، فعاد ايلغازي فنزل زردنا ، وهجم الحوش الثاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفـرنج ونزلوا تحـت الدير ، فـرحل ايلغـازي الى دواز ، وأقام ثلاثة ايام يزاحـف الفـرنج وهـم لا يخـرجون الى الصحراء ، فاتفق أن أكل ايلغازي لحم قـديد كثيرا وجـوزا أخضر وبطيخا وفواكه ، فانتفخ جوفه وضـاق نفسـه ، واشـتد بـه الأمر ، فرحل الى حلب ، وتزايد بـه المرض ، فسـار طغتيكن الى دمشق وبلك غازي الى بلاده .

ودخل ايلغازي ليتـداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص مـن علته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس الى نبـل (١١٥) مـن عمـل عزاز ، ومعهم أمراء منهم دولت بن قتلمش ، فنهبوا وعادوا ، فوقع عليهـم عند حـربل (١١٦) كليام في أربعين فـارسا ، فـانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ظفر بلك غازي بـالعين جـوسلين وابن خالته قلران (١١٧) بالقرب من سروج ، فأسرهـما وأسر ابن اخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة لياون ، واشترى نفسه بـألف دينار وأسر ستين فارسا .

وطلب من جوسلين وقلران أن يسلما ما بأيديهما من المعـاقل فلم يفعلا ، وقالا: «نحن والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بعير حول رحله الى آخر ، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا ».فأخذهما ومضى الي بلده .

ووصل الفرنج بعد ذلك من تل باشر في شـعبان ، وكبسـوا تـل قباسين (١١٨) ، فخرج النائب ببزاعا مع أهلهـا فـالتقوا ، وانهـزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأما ايلغازي فأقام أياما ، وصلح من مرضه ، وسار الى ماردين ، ثم خرج منها يريد ميافارقين ، فاشتد مرضه في الطريق ، وتوفي بالقرب من ميافارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر من رمضان من سنة ست عشرة وخمسمائة .

وملك ابنة سليمان ميافارقين ، وابنه تمرتاش ماردين ، وابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب ، ولما سمع صاحب انطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وافسد ما قدر عليه ، وحمل اليه أهل «الباب» من الوادي مالا وخدموه .

فرحل الى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرروا على بالس مع ابن مالك مالا يحمل اليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج اهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقتل من الفرنج جماعة من المقدمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين الى الوادي وقد وصل (سليمان بن) ايلغازي فحصر البيرة (١١٩) ، وتسلم حصنها على أن يؤمن أهلها على انفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب الى آخر سنة ست عشرة وخمسمائة .

وولى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان ، في صفر ، بعد ما قبض عليه ايلغازي ـ كما تقدم ذكره ـ وجدد بدر الدولة المدرسة التي بالزجاجين بحلب ، المعروفة ببني العجمي (١٢٠) ، باشارة ابي طالب بن العجمي .وذكر لي انه عزم على ان يقفها على الفرق الأربع ، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطحانين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، استقر الصلح بين بدر الدولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب انطاكية ، على ان يسلم بدر الدولة اليه قلعة الاثارب فتسلموها ، وصارت لصاحبها أولا سير الآن دمسخين ، وبقيت في يده الى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن بـرق ، فعـ ر ـه بدر الدولة عنها شحنكية حلب .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب انطاكية ليقاتل نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصرا قلعة كركر(١٢٦) ، فالتقيا على موضع اسمه «اورش» بالقرب من قنطرة سنجة ، فكسره نور الدولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدميه ونهب (خيمه) ، وفتح (كركر) بعد جمعة ، وكان في دون عدة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت (١٢٢) مع جوسلين وقلران .

ثم إن نور الدولة بلك عبر الفرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل من قبليها ، ثم انتقل الى بانقوسا (١٢٣) وأقام اياما ، ورحل الى ارض النيرب ، وجبرين (١٢٤) ، وأمر بحرق الغلة وأخذ الدواب .

ومضى قطعة من عسكره الى حدادين(١٢٥) ، فأخذ أحدهم عنزا ، فرماه بعض فلاحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد ان امتنع اهلها من التسليم ، فدخنوا على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون .

وخنق في مغارة تل عبود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضا، وأخذ لاهل حلب جشير خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بلك وكان سببا للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأولى من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، تسلم مدينة حلب سلمها اليه مقلد بن سقويق بـالامان ومفرج بن الفضل ، وذودي بشعار بلك من عدة جهات ، وكسر بـاب انطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلم القلعة وجلس بها بعـدما نزل بدر الدولة منها بيوم ، وقرر حالها ، وأخـرج سـلطان شـاه بـن رضوان ، وسيره الى حران ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخـر خوفا منه .

ثم انه سار الى البـارة وهجمهـا ، وأسر الأسـقف الذي بهـا وقيده ، ووكل به (١٢٨) ، ورحل الى كفرطاب فغفل الموكل به فهـرب الى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسـقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة .

فوصله من أخبره ان بغدوين الروبس وجـوسلين وقلران وابـن اخت طنكريد وابن اخت بغدوين وغيرهـم مـن الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوما مـن اهـل حصـن خـرتبرت فأطلقوهـم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كل مـا كان لذور الدولة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد اشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب ان نمضي ونحمـل مـا قـدرنا عليه »، فما سمحت نفس بغدوين بتـرك الحصـن والخروج منه . (١٢٩).

فاتفق رأيهم على خروج جوسلين ، وحلفوه على انه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ولا يشرب الا وقـت القـربان الى ان يجمـع جمـوع الفرنجة ويصل بهم الى خرتبرت ويخلصهم .

وأما بلك فإنه سار حتى نزل على خرتبرت ففتحه بالسيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من اصحابه الذين كفـروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يسـتبق سـوى بغـدوين الملك وقلران وابن اخت بغدوين ، وسيرهـم الى حران وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى الى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تل باشر ، فسمعوا خبر فتح خرتبرت بالسيف فسار الى الوادي وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم احرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان (١٣٠) ثم حلب من ناحية «مشهد الجف» من الشمال ،وخرب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد طرود» بالقرب من بستان الذقرة ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفرا .

ثم رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونبش الضريح الذي بـ«مشهد الدكة» (١٣١) فلم يجد فيه شيئا فألقى فيه النار ، والحلبيون في كل يوم يقاتلونه أشد قتال ، ويخسر معهم في كل حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان ، ونزل السعدي (١٣٢) ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كل الى بلده ، ووجد في المسافة في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصانا موتى ،ونبش الناس منهم موتى جماعة .

فأمر القاضي ابن الخشاب بموافقة من مقدمي حلب ان تهدم محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب الى جهة القبلة وتغير أبوابها ، وتتخذ مساجد : ففعل ذلك بـكنيستهم العظمى ، وسمي مسجد السراجين (١٣٣): وهو مدرسة الحلاويين الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين (١٣٤) الآن ، وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدم (١٣٥) .ولم يترك النصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي الآن باقية .

هذا كله وذور الدولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إن جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان الى الوادي والذقرة والأحص ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب

(١٣٦) ، حتى لم يبق بحلب من الخيالة خمسون فارسا لهم خيل ، وأخذ من الدواب البقر والغنم والجمال مالا يحصى ، وقتل وسبى وخرب ما امكنه وعاد الى تل باشر .

وخرج سير آلان في عسكر انطاكية من الاثارب حتى وصل الحاذوته(١٣٧) وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في العزيب في الجانب القبلي ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ، وأخذ قافلة كانت واصلة من شيزر بغلة .

ثم عبر جوسلين من الفرات الى شبختان واغار على تركمان وأكراد ، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسبى وقتل ، ومن سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحرامية ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الأسارى مرة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجبول ، وما حولها ، وأخذ دواب كثيرة وتوجه الى دير حافر ، فخنق اهلها بالدخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بلك الى الشام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وأمر باخراجهم من حلب فباعوا اموالهم ورحالهم وخرجوا منها. ثم إن الأمير نور الدولة بلك جمع العساكر ، ووصله اتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقي ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، وأخذوا عليها نقوبا الى أن سهل امرها ، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرقوا بعد قتل من قتل وأسر من أسر .

وعمر بلك حصن الناعورة بالنقرة وحصن المغارة - على شط

الفرات ـ وتزوج بالخاتون فرخندة خاتون بنت رضــوان ، وعرس بها في ثالث وعشرين ذي الحجة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرم من ســنة ثمــاني عشرة وخمســمائة ، تنكر بلك على رئيس حلب سلمان العجلاني وجعل عليها رجلا من اهل حران اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمــن مــن الذعار وقطاع الطريق عند قدوم بلك حلب ، وأقام الهيبة العظيمة ، وتقــدم بفتح ابواب حلب ليلا ونهارا ، وحسم مادة ارباب الفســاد .وقــال للحارس : «إن عدت سمعتك تصيح ضربت عنقك!».

ونقل بغدوين ومن كان معه من حبس حران ، فحبســه في قلعــة حلب .

وتوجه في شهر صفر فـرقة مــن اصــحابه الأتـــراك الى ناحية عزاز ، فوقع بينهم وبين الفرنج وقعة عند مشــحلا ، وظفــر بهــم الاتراك ، وقتلوا منهم اربعين رجلا من الخيالة والرجــالة وأخــذوا اسلابهم ، ووصل الباقون عزاز وما فيهم الا من جرح جراحا عدة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثــم تــدارك فــأخصب الزرع واستغل الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكر نور الدولة بلك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، وتقدم اليهم ان يمروا على منبج ، ويطلبوا من حسان ان يخرج معهــم للاغارة على تل باشر فــاذا خرج قبضــوه ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسير حسان فحبس في حصــن بــالو (١٣٩) بعــد ان عوقــب وعري ، وسحب على الشوك فلم يسلمها أخوه .

وكتب عيسى الى جوسلين:« إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت اليك منبج ».وقيل : انه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى الى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرةآلاف فارس وراجل ،ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار اليه بلك لما قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأول ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى آخر النهار .

وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة يفتك فيهم ويخرج سالما ، ويضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولايكلم ، وعاد الى الظفر بالفرنج .

واصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول قتل كل اسير اسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعا ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وبيده ترس .

وكان قد عزم على أن يستخلف ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجدا لأهل صور ، فان الفرنج كانوا في مضايقتها (١٤٠) . وفي تلك المضايقة اخذوها ،فبينا كان بلك قائما يأمر وينهى اذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل: انه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال: «هذا قتل المسلمين كلهم » ومات لوقته .

وقيل: بقي ساعات وقضى نحبه ـ رحمه الله ـ وحمل الى حلب ، ودفن بها قبلي مقام ابراهيم ـ عليه السلام ـ

ووصل حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأول ، ودخل القلعة ونصب علمه ، ونادى الناس بشعاره .

وسار سليمان بن ايلغازي من ميافارقين الى خرتبرت وحصون بلك ، وهي نيف وخمسون موضعا فتسلمها .

وسار داود بن سكمان ، فأخذ حصن بالو وأطلق حسان بن كمشتكين فعاد الى منبج .

فأما تمرتاش فانه لما ملك حلب ألهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف امر المسلمين بذلك ، واستوزر ابا محمد بن الموصول ، ثم عزله وصادره في رجب من سنة ثماني عشرة واستوزر ابا الرجاء بن السرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسير الى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك اسكنه بها ، فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلى منها بحبل وهرب الى دارا ، ثم رحل منها الى حصن كيفا (١٤٣) الى داود بن سكمان .

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار اليها نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه ايلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس ، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل اكثر من كان معه من الفرنج ، وعاد غانما ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه الى تمرتاش الى حلب .

وولاه تمرتاش شحنكية حلب وهو المدفون في القبة التي مقابل باب مشهد ابراهيم – عليه السلام – واسمه مكتوب على جهاتها الأربع .

وولى قلعة حلب رجلا يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الاولى من هذه السنة استقر الامر بين الملك بغدوين صاحب انطاكية – وكان في سجن بلك بحلب – وبين

تمرتاش بن ايلغازي على تسليم الاثارب وزردنا والجزر وكفر طاب وعلى تسليم عزاز وثمانين الف دينار وقدم منها عشرين الف دينار .

وحلف على ذلك وعلى ان يخرج دبيس بن صدقة (١٤٣) من الناس ، وكان قد وصل دبيس منهزما من المسترشد بعد ان كسره المسترشد ، وقتل خلقا من عسكره فترك بلاده ، وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ، ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران الى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب المسترشد والسلطان محمودا في أمره .

وكاتب دبيس قوما من اهل حلب ، وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها اليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن ايلغازي ، فأخذهم وعذبهم وشنق بعضهم ، وصادر بعضا ، وأحرق بعضا .

وكان المتوسط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسير أولاده وأولاد اخوته رهنا عن بغدوين الى حلب .

وفكت قيود بغدوين وأحضر الى مجلس تمرتاش ، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيا وقلنسوة ذهب وخفافا ورانا (١٤٤) . وأعيد عليه الحصان الذي كان اخذه منه بلك يوم اسره ، فركبه وسار الى شيزر يوم الأربعاء رابع جمادى ، فبقي عند ابي العساكر حتى أحضر جماعة رهنا على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من اولاد الفرنج ، وعدتهم اثنا عشر نفرا ، وحمل العشرين الف دينار التي عجلها .

وقبض صاحب شيزر الرهائن ، واطلق بغدوين من سجن شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج - لعنه الله - وغدر بتمرتاش وأنفذ اليه يقول : «البطريرك الذي لا يمكن

خلافه سألني عما بذلت ، وماالذي استقر ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني ابى ، وامرني بالدفع عنها وقال :إن خطيئتك تلزمني ، ولا أقدر على خلافه ».فترددت الرسل بينهما فلم يستقر على قاعدة .

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الامير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها ان تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ، وتقدم دبيس الى مرج دابق فخرج اليه حسام الدين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به الى ماردين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه سليمان بن ايلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بذومنقذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردد بين تمرتاش وبغدوين الى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، ويخرج بغدوين الى ارتاح قاصدا النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كل ما كان عليه ، ثم رحل فنزل على حلب ، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأول .

وخرج دبيس وجوسلين من تل باشر ، وقصدا ناحية الوادي ، وأفسدا القطن والدخن ، وسائر ما كان به وقوم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل اليهم الملك سلطان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة .ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق ، وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك.

ونزل يغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس مما يلي دبيس من الشرق ، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة: الفرنج مائتا خيمة ، والمسلمين مائة خيمة .

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان وعمدوا الى من كان من الموتى لم تتقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : «هذا نبيكم محمدا» وآخر يقول: هذا عليكم وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : «يا مسلم ابصر كتابكم» وثقبه الفرنجي بيده ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (١٤٥) لبرذونه ، فظل البرذون يروث عليه ، وكلما ابصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجبا وزهوا .

وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ،والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك .

وربما شنق المسلمون بعضهم ويخرج الغزاة من باب العراق ، ويسرقونهم من المخيم ، ويقطعون عليهم الطرق ، ويقتلون ويأسرون .ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار : «دبيس ، يا نحيس»! والرسل تتردد بينهم في الصلح ، ولا يستتب الى ان ضاق الأمر بالمسلمين جدا .

وكان بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار والحاجب عمر

الخاص ، ومعهما مقدار خمسمائة فارس ، والذي يتولى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وتولى حفظ المكان وبذل المال والغلال .

فاتفقوا على ان سيروا جد أبي قاضي القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الأشراف وأبا عبد الله بن الجلي فخرجوا ليلا ، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين اليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات اخوه سليمان بن ايلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان ، وسار تمرتاش الى بلاده ليملكها ، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب .

وكانت الرسل مترددة بينه وبين اق سنقر البرسقي صاحب الموصل في اتفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ، فاشتغل بهذا الامر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك الليلة وصاحوا الى اهل حلب : «أين قاضيكم؟ وأين شريفكم؟» فأسقط في ايديهم الى ان وصل منهم كتاب بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيون عند تمرتاش يحثونه على التوجه الى حلب ، وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له: «نريد منك ان تصل بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم ».

فضاق الأمر بالحلبيين الى حد أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلت الاقوات ونفد ما عندهم، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنون لشدة المرض ، فاذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال ، وزحفوا الى الفرنج وردوهم الى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدي أبو الفضل هبة الله بن القاضي ابي غانم كتابا الى والده يخبره بما آل امر حلب اليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرض فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال: «انظروا ألى هؤلاء يتجلدون علي ، ويقولون اذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغررون بي حتى في أصل قلة ، وقد بلغ بهم الضعف الى هذه الحالة ».

ثم أمر بالتوكيل والتضييق عليهم فشرعوا في اعمال الحيلة والهرب الى أق سنقر البرسقي ، يستصرخوا به فاحتالوا على الموكلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا (١٤٦) وساروا حتى اتوا الموصل ، فوجدوا البرسقي مريضا مدنفا ، ووالناس قد منعوا من الدخول عليه الا الأطباء ، والفروج يدقق له لشدة الضعف ، ووصل الى دبيس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أملتم نصره ، فكادت انفس الحلبيين تزهق .

واستؤذن للحلبيين على البرسقي فأذن لهم ، فدخلوا اليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر ، فأكرمهم - رحمه الله - وقال لهم: « ترون ما انا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلت لله علي نذرا ان عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في امركم ، والذب عن بلدكم ، وقتال اعدائكم ».

قال القاضي ابو غانم قاضي حلب : فما مضى ثلاثة ايام بعد ذلك حتى فارقته الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد الى حلب .

وبقي اياما وعمل العسكر اشغاله وخرج - رحمه الله - في عسكر قوي ، فوصل الى الرحبة ، وكاتب اتابك طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل الى باالس ، وسار منهــا الى حلب فــوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشرا اعلامه البيض الى الفــرنج عند قربه من حلب ، وتحولوا الى جبــل جــوشن كلهــم ، وخـــرج الحلبيون الى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحــو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن وهو يسير وراءهــم على مهل حتى ابعدوا عن البلد .

فأرسل الشــالشية (١٤٣) ، وأمــرهم ان يردوا العســكر فجعــل القاضي ابن الخشاب يقول له: «يامولانا لو ســاق العســكر خلفهــم أخذناهم ، فأنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي تعلم ان في بلدكم ما يقوم بــكم وبعســكري لو قــدر علينا – والعياذ بالله – كسرة؟» فقال: «لا». فقــال: «مــا يؤمننا ان يرجعــوا علينا ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرهم وندخل الى البلد ونقويه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم انشــاء الله ، ونخــرج اليهم بعد ذلك ». (١٤٨)

ورجع ودخل البلد وتســلم قلعتهــا ، ونظـــر في مصـــالح البلد وقواه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلا شاملا وأحسن اليهم احسانا كاملا .

وكتب لأهل حلب تــوقيعا بــاطلاق المظــالم والمكوس ، نســخته موجودة ، بعدما كان الحلبيون منوا به من الظلم والمصادرة من عبــد الكريم والي القلعة ، وعمر الخاص والي البلد ، وتســليطهما الجند والاتراك على مصادرة الناس بحيث انهم استصفوا أموال جمــاعة من الاكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

واما الفرنج فإنهم توجهوا الى الاثارب ودخلوا انطاكية .

وشرع الناس في الزرع ببلد حلب في الثامن عشر من شباط وجعلوا يبلون الغلة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلة من أجود الغلال وأزكاها

وأطلق البرسقي بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل الى تل السلطان في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، في أواخر المحرم ، وأقام به ثلاثة ايام ، ورحل الى ان وصل الى شيزر في سابع صفر ، وتسلم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين الف دينار حملت إليه .

وأقام بأرض حماة أياما حتى وصل اليه اتابك طغتيكن ، فرحل في عساكره التي لا تحد كثرة ، ونزل كفرطاب فسلمت اليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلمها الى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد وصل اليه من حمص والتقاه بتل السلطان .

وسار الى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسرة عظيمة ، واستشهد جماعة من المسلمين من السوقة والعامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدمين أحد .

ووصل أق سنقر البرسقي سالما الى حلب ، وأقام على قنسرين اياما ، وتفرقت العساكر الى بلادهم ، ووصل امير حاجب صارم الدين بابك بن طلماس ، فولاه البرسقي حلب وبلدها ، وعزل عنها سوتكين واليا كان ولاه .

ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقي الى الموصل فلم يزل الفرنج يعالون الشحن والمقطعين بالمحال في مغل ما وقعت الهدنة عليه الى العشرين من شعبان من السنة .

وسار بغدوين الى بيت المقدس والرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون احدا من رفع شيء من الصيافي ، وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الاماكن والهدنة على حالها ، فتجمع الفرنج ونزلوا رفنية .

وخرج شمس الخواص صاحبها طالبا آق سنقر البرسقي مستصرخا به ، وسلمها اليه ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة ، وقصدوا بلد حمص فشعثوه .

فجمع البرسقي العساكر وحشد ، وسار نحو الشام لحربهم حتى وصل الرقة في أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار الى أن نزل بالنقرة على الناعورة في الشهر المذكور وأقام به اياما والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقر هذا الأمر .

وكان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجها مع جماعة من التركمان الى المعرة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلذك ، صاحب بسرفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سير البرسقي ولده عز الدين مسعودا منجدا لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عز الدين الى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولاها كافور الخادم الى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة الى الاثارب في الثامن من جمادي الآخرة من سنة عشرين ، وسير بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقابين الى حصن الدير المجدد فوق سرمدا ففتحه سلما .

وقتل من الخيالة بعد ذلك خمسون فارسا ، ونهب العساكر الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات اليه ، ورفعوا الغلة جميعها الى حلب ، وزحفوا الى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل اليه جوسلين ، ونزلوا عم(١٤٩) وأرتاح ، وسيروا الى البرسقي : «ترحل عن هذا الموضع ، ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنيه عليك » ،فتجنب الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تم على عزاز فصالحهم الى أن فرج الخناق عن الاثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا: «ما نصالح الا على ان تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين ». فامتنع من ذلك وأقام على حلب اياما والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد أق سنقر ، ونزل قنسرين ، ورحل الى سرمين ، وامتدت العساكر الى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين ، فأقاموا كذلك الى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج ، فعادوا الى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته اتابك طغتيكن ، وكان وصل اليه وهو على قنسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض اتابك فعملت له المحفات ، وأوصى الى البرسقي ، وتوجه الى دمشق ، وسلم البرسقي حلب وتدبيرها الى ولده عز الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير .

وسار أبوه الى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من

الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو محتفظ منهم ، فسبقوا أصحابه اليه ، فضربوه حتى أثخنوه وحمل جريحا فمات من يومه .

وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد كان من كفر ناصح – ضيعة من عمل عزاز – فإنه سلم ، وكان له ام عجوز فلما سمعت بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت ان ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالما فأحزنها ذلك ، وجزت شعرها وسودت وجهها .

وقيل: إن البرسقي قتل بيده منهم ثلاثة ، وكان البرسقي – رحمه الله – قد رأى تلك الليلة في منامه عدة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون اذى شديدا ، فقص رؤياه على اصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال: «لا اترك الجمعة لشيء أبدا » ، وكان من عادته ان يحضر الجمعة مع العامة – رحمه الله – وكان وزير البرسقي المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عز الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولى فيها من قبله الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة احدى وعشرين وخمسمائة الى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله ان ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له مذشورا بذلك ، فوصل الى الموصل وملكها ، ثم نزل الى الرحبة قاصدا الى الشام ، وكان يظن ان قاتل ابيه قوم من أهل حماة ، فأضمر للشام وأهله شرا عظيما .

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والاقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طغتيكن عنه انه يقصده ، فتأهب له فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها اياما فسلمها الوالي اليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل: سقي سما فمات .

وندم الوالي على تسليم الرحبة ، وكان قد وصلت قطعة من العسكر لتقوية حلب ، فمنعهم تومان من الدخول اليها ، فوقع الشر بينه وبين رئيس حلب فضائل بن بديع ، وداخلهم الى حلب .

فوصل الى حلب ختلغ أبه (١٥١) السلطاني غلام السلطان محمود ، ومعه توقيع مسعود بن البرسقي بحلب ، كتبه قبل وصوله الى الرحبة فلم يقبله تومان والي حلب فعاد ختلغ ابه الى الرحبة ، - وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود .

فعاد ختلغ ابه على فوره الى حلب فتسلمها من يد تومان ، آخر جمادى الآخرة ، وصعد الى قلعتها بطالع اختاره له المنجمون ، فأخذه الطمع في أموال الناس وصادر جماعة من أهل حلب ، واتهمهم بودائع المجن الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيام رضوان .

وقبض على شرف الدين أبي طالب بن العجمي وعمه ابي عبد الله ، واعتقلهما بحلب ، وثقب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد فعله القبيح عليه بالبوار ، وضل رأي منجمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدموا عليه بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار ، ونادى أهل حلب بشعار بدر الدولة ، وساعده على ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ ابه ، وذلك في الثاني من شوال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتى رحل (١٥٢) ، وضايقوا القلعة واحرقوا القصر ، ودخل اليهم الى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ، ووصل اليهم حسان صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ، ودام الحصار الى النصف من ذي الحجة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، قد ملك

الموصل بتواقيع السلطان محمود ، فسير اليه شهاب الدين مالك صاحب قلعة جعبر ، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ، فسير أتابك اليها عسكرا مع الامير سنقر دراز والامير الحاجب صلاح الدين حسن (١٥٣)

ودخل الامير صلاح الدين فأصلح الحال ، ووفق بينهما على أن استدعيا اتابك زنكي من الموصل ، فتوجه بالجيوش الى حلب ، وقيل:إن بدر الدولة وختلغ سارا اليه .

وقيل:إن ختلغ أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل اتابك فنزل اليه ، وصعد اتابك الى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعا ينقل اباه قسيم الدولة اليه ويدفنه به ، وكان مدفونا بالقبة التي على جبل قرنبيا ، فعرض عليه بدر الدولة نقل ابيه الي المدرسة التي انشأها بالزجاجين .

وقيل:إن ابا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فنقله ورفعه في الليل من سور حلب ، ودفنه في البيت الشمالي من المدرسة(١٥٤)، واتخذه تربة لمن يموت من اولاده ، ووقف على المقرئين على تربة والده القرية المعروفة بشامر (١٥٥) .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فانه هرب منه الى نصيبين ، وكانت في اقطاعه الى ان مات .

وأما ختلغ ابه فانه سلمه الى فضائل بن بديع فكحله (١٥٦) بداره ، ثم قتله اتابك بعد ذلك .

وقيل: إن بدر الدولة هرب منه عند ذلك ، وهرب فضائل بن بديع الى قلعة ابن مالك خوفا من اتابك .

وولى اتابك رئاسة حلب الرئيس صفي الدين أبا الحسن علي بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، فسلك اجمل طريقة مع الناس .

وخرج اتابك من حلب ، وسار حتى نزل ارض حماة ، فوصله صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وتأكدت بينهما مودة لم تحمد عاقبتها ، فيما نذكره بعد ـ وكذلك وصله سونج ابن تاج الملوك .

ثم سار اتابك (١٥٧)بعد ذلك ، فوطىء بساط السلطان ، في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وعاد بالتواقيع السلطانية بملك الغرب كله ، ودخل الموصل ثم فتح قلعة السن ، وتوجه الى حلب ، ورعى عسكره زرع الرها .

وعبر أتابك الفرات الى حلب بتوقيع السلطان محمود ، وقد كان السلطان آثر ان تكون البلاد لدبيس ، فقبح المسترشد ذلك ، وكاتب السلطان وقال له فيما قال:ان هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ، فبطل هذا التدبير.

واستقر ملك اتابك بالموصل ، والجزيرة ، والرحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها .

وتزوج أتابك خاتون بنت الملك رضوان ، وبنى بها في دير الزبيب (١٥٩) ، وكانت معه الى ان فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ، فرأى الكبر (١٦٠) الذي كان على ابيه آق سنقر ، حين قتله تتش جدها ، وهو ملوث بالدم ، فهجرها من ذلك اليوم .
وقيل :إنه هدم المشهد الذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام اتابك مهاجرا لها الى ان دخلت على القاضي أبي غانم قاضي حلب ، وشكت حالها ، فصعد اليه وكان جباراً الا انه ينقاد الى الحق ، وإذا خوف بالله خاف ،فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر له القاضي ما ذكرته خاتون ، فساق دابته اتابك ، ولم يرد عليه جوابا ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقفت ، وقال له :

«يا مولانا ، هذا الشرع لا ينبغي العدول عنه » ، فقال له أتابك : «اشهد علي انها طالق» ، فأرسل الجام وقال : «أما الساعة فنعم»!.

واستوحش الأمير سوار بن ايتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق ، وكان في خدمته ، فورد الى حلب الى خدمة أتابك ، في سنة اربع وعشرين ، فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه ، وأجرى له الاقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب واعمالها ، واعتمد عليه في قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ، وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة ابان فيها عن شجاعة واقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفار الأغتام .

وعزم اتابك في السنة على الجهاد ، وكتب الى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه الى ذلك وتحالفا على الصفاء .

وكتب تاج الملوك الى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره بالخروج بعسكره ، وجهز اليه من دمشق خمسمائة فارس ، وجماعة من الأمراء مقدمهم شمس الخواص ، فخرجوا حتى وصلوا الى مخيم اتابك على حلب ، فأكرمهم وتلقاهم ، وأقاموا عنده ثلاثا ، ثم أظهروا الغارة ، على عزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ، ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج والباقين ، وحملهم الى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه الى حماة فأخذها يوم السبت ثامن شوال ، وأقام بها اياما ، وطلبها خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وبذل عليها مالا ، فسلمها اليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال ، وضربت بوقاته عليها ، وخطب له الخطيب على المنبر ، فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوما لم يظفر فيهـا بـطائل غير الربض ، وكان يربط خير خـان على غراير التبـن ، ويعـاقبه ويعذبه انواع العذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا ، وهـو كان يحرض اتابك على الغدر بسونج ، فكافأه الله .

وهـجم الشتاء فعاد اتابك الى حلب في ذي الحجة .

وملكت أنطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين ، وحالفت جماعة مـن الفرنج على قتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شر .(١٦٢) وهـجم المسلمون ربض الأثارب ، وربض معرة مصرين ، فوصل بغـدوين مـن البيت المقدس ، وأغار على انطاكية وأخذ قوما من أصحاب ابنته ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وفتح قوم من السرجندية (١٦٣) باب انطاكية ، فـدخلها في سـنة خمس وعشرين ، فـطرحت ابنتـه نفسـها عليه ، فصـفح عن ذنبهـا ، وأخـذ انطـاكية ، ووهبهـا جبلة واللاذقية ، وعاد الى القدس .

وتـوجه أتـابك الى الموصـل في سـنة خمس وعشرين وخمسمائة ، واستصحب معـه سـونج بـن تـاج الملوك ، وبعض المقدمين من عسكر دمشـق ، وتـرك البـاقين بحلب ، وتـرددت المراسلات في اطلاقهم ، فلم يفعل ، والتمس عنهـم خمسـين الف دينار اجاب تاج الملوك الى تحصيلها وحملها .

ووقع في هذه السنة وقعة بين جـوسلين وسـوار ، بناحية حلب الشمالية ، فكانت الغلبة لجـوسلين ، وقتـل مـن المسـلمين جماعة ، وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب ونهبه .

ووصل دبيس في هذه السنة منهزما مـن المسـترشد ، وكان قـد كسره عسكر المسترشد في هذه السنة ، فانهزم وخفي خبـره عن كل أحد ، فظهر بعد مدة انه وصل الى قلعة جعبر ، وأودع ابن السلطان

عند مالك صاحبها ، وسار الى جوسلين ، واستند الى الفرنج فلم ير ما يعجبه .

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غدره ، وأن يفادي به خيرخان ، فسار الى بلد دمشق ، فنزل ضالا على مكتوم بن حسان .

وقيل: كان سائرا الى صاحبة صرخد ليتزوجها ، فضل في الطريق ، ولم يكن معه دليل عارف بالمناهل .
وقيل: كان قاصدا حلة مرى ، فهلك اكثر اصحابه .

وحصل في حلة حسان كالمنقطع الوحيد في نفر يسير من اصحابه ، فأنهض تاج الدولة بوري العسكر اليه حينما سمع به ، فأسره ، ووصلوا به الى دمشق ، لست خلون من شعبان سنة خمس وعشرين ، (١٦٤) وأنزله في دار بقلعة دمشق ، وأكرمه وأضافه ، وحمل اليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله اعتقال كرامة .وكاتب المسترشد في أمره ، فرد عليه الجواب بالاحتياط عليه الى ان يصل من يحمله الى بغداد .

فلما عرف اتابك زنكي ذلك ، انفذ رسوله الى تاج الملوك يطلب تسليم دبيس اليه ، وأن يطلق له الخمسين ألف دينار المقررة عن ولده سونج وبقية العسكر ، فأجاب الى ذلك ، وتقرر الشرط عليه .

ووصل اتابك زنكي الى قريب قارا بسونج والمعتقلين ، وتوجه أصحاب تاج الملوك بدبيس فتسلمه زنكي ، وحمله في محفة مقيدا ، وسلم سونج بن تاج الملوك وجماعته الى اصحابه .

وكان يظن دبيس ان اتابك زنكي يهلكه ، فلما وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه ، وأنزله بحلب في دار لاجين ، وأعطاه مائة الف دينار ، وخلع عليه خلعا فاخرة .

وكان عرض لدبيس في طريقه وهو مكبل بالحديد شاعر امتدحه بأبيات ، ولم يكن معه ما يجيزه ، فكتب له في رقعة هذين البيتين ، ودفعهما اليه :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
وكيف يصنع من بالقرض يحتال
فهاك خطي الى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب آمال

فجاءه الشاعر بحلب ، وقد خرج مسيرا في ميدان الحصا ، فقال له : «ياأمير لي عليك دين » فقال: «والله ما اعرف لاحد علي دينا » فقال: «بلى ، وشاهده مذك » ، وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه قال: «أي والله دين وأي دين!» وأمره ان يأتي اليه اذا نزل ، فأتاه فأعطاه الف دينار والخلعة التي خلعها اتابك زنكي عليه ، وكانت جبة اطلس وعمامة شرب .

وحصل دبيس بعد ذلك عند السلطان مسعود ، في سنة تسع وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد وأسره على باب مراغة .

وسير السلطان إلى أتابك زنكي يستدعيه ، وعزم على الفتك به ، وأطلع دبيس على ذلك ، فكتب الى اتابك يعلمه ويحذره من المجيء ، فامتنع ، وكان السلطان قد سير دبيسا الى الحلة ، واطلع بعد ذلك على فعل دبيس ، فرده ، وحذره الناس فلم يفعل فوصل ، فلما وصل الى الخينة قام السلطان عن السرير . وقال: «هذا جزاء من يخون مولاه » وضرب رأسه فأطاره ، فبلغ ذلك زنكي فقال: «فديناه بالمال وفدانا بالروح».

ووصل سديد الدولة بن الأنباري كاتب الانشاء للمسترشد الى تاج الملوك ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دبيس الى من يحمله الى بغداد ، فوجد الأمر قد فات ، فعاد فصادفته خيل اتابك زنكي

بناحية الرحبة فأوقعوا به ، وقبضوه ، ونهبوا ما كان معه حتى نهبوا القافلة التي كانت معه ، وقتل بعض غلمانه ، ولقي شدة عظيمة من الاعتقال الى ان اطلق ، وعاد الى بغداد .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فتح الملك كليام رام حمدان ، وسار اتابك ودبيس الى بغداد ، مباينين المسترشد ، وعزما على ان يهجما بغداد ، فبذل لهما الحلة ، وأن يدخل نائبهما بغداد ، فأبيا فخرج اليهما المسترشد بنفسه ، والتقوا في شعبان على عقر قوب فكسرهما ، وعاد أتابك زنكي إلى الموصل ، وسار دبيس الى السلطان سنجر

ووقع بين الفرنج في هذه السنة فتن ، وقتل بعضهم بعضا ، وقتل صاحب زردنا ، ونزل التركمان على بلد المعرة وكفرطاب ، وقسموا المغلات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن قبة ابن ملاعب ، وأسروا منه بنت سالم بن مالك وحريم ابن ملاعب .

وأوقع الأمير سيف الدين سوار بفرنج تل باشر ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووثب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس ، فأخذوه وسلموه الى سيف الملك بن عمرون ، فاشتراه ابوالفتح الداعي الباطني منه .

ووصل صاحب القدس الى انطاكية ، وجمع وخرج الى ذواز ، وسار الى قنسرين في جموع الفرنج ، والتقوا بعسكر حلب وسوار ، في سنة ثمان وعشرين في ربيع الاول ، فكسروا المسلمين ، وقتلوا أبا القاسم التركماني ، وكان شجاعا ، وقتلوا القاضي ابا يعلى بن الخشاب ، وغيرهما .

وتحول الفرنج الى الذقرة فصابحهم سوار والعسكر ، فأوقعوا بسرية منهم ، فقتلوهم وعادوا برؤوسهم وأسرى منهم ، فسر الناس بذلك بعد مساءتهم بالامس .

وأغارت خيل الرها من الفرنج ببلد الشمال ، وهي عابرة الى عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحسان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى الى حلب (١٦٩) .

وفتح شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب صلاح الدين ، وكان قد عزم على ذلك فتحصن واليها ، فانتهى ذلك الى شمس الملوك ، فخرج في العشر الاواخر من شهر رمضان ، وعزم على قصدها والناس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها وزحف في الحال فتحصنوا منه ، فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا اصحابه في اهلها ، ثم زحف عليها زحفا قويا ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلد فطلبوا الامان فأمنهم ، وحلفه والي القلعة على أشياء اقترحها ، واجابه اليها وسلمها اليه ، فسلمها الى شمس الخواص

وحصر المسترشد الموصل ، وثارت الحروب بين السلاطين ، فبلغ المسترشد ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدين تمرتاش الى خدمة اتابك زنكي ، فسار معه الى لقاء داود بن سكمان بن ارتق ، فكسره أتابك بباب آمد ، وانهزم داود وأسر ولده ، وقتل جماعة من أصحابه ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحصرها ، وقطع شجرها ، فصانعه صاحبها بمال ، فرحل عنها الى قلعة الصور ففتحها ، وفتح البارعية ، وجبل جور ، وذا القرنين ووهب ذلك كله لحسام الدين تمرتاش ، وفتح طنزة فاستبقاها لنفسه (١٧١).
وتزوج اتابك صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي .

واستولى اتابك على العقر (١٧٢) وشوش (١٧٣) وغير ذلك من قلاع الاكراد ، وأغار في هذه السنة سوار على الجزر وحصن زردنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشحن على بلد المعرتين ، وعاد بالغنائم الى حلب .

واستوزر زنكي في هذه السنة ضياء الدين ابا سعد الكفرتوثي ، وكان مشهورا بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد . وقدم معه الى حلب . وعزم على قصد دمشق ومضايقها .

وذكر العظيمي في تاريخه : «انه حصرها في هذه السنة مدة ، (١٧٤) ثم رحل الى حلب ، ثم شرق الى الموصل».
والصحيح: أنه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وذلك ان صاحبها شمس الملوك ابا الفتح اسماعيل بن بوري ، انهمك في المعاصي والقبائح ، وبالغ في الظلم ، وأعرض عن مصالح الدين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أولا بذلك .

واستخدم بين يديه رجلا كرديا - يعرف ببدران الكافر - جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدين متنوعا في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لأحد رحمة ، فسلطه على ظلم المسلمين ومصادرة المتصرفين بأنواع قبيحة من الظلم ، وظهر منه بخل عظيم وسمت نفسه الى تناول الدنايا وغير ذلك من الافعال الذميمة .

وعزم على مصادرة كتابه وحجابه وامرائه ، فخاف منه اصحابه ، واستشعروا منه ، ووقعت الوحشة بينهم .

وعرف عزم اتابك زنكي على قصد دمشق ، وأنه متى وصلها سلمت اليه ، فكاتب اتابك زنكي وحثه على سرعة الوصول اليها ليسلمها اليه طوعا ، وشرط عليه ان يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان ، وكرر المكاتبة اليه في ذلك ، وقال: «إن اهملت هذا الامر استدعيت الفرنج وسلمت دمشق اليهم ، وكان اثم المسلمين في عنقك ».

وشرع في نقل أمواله وأحواله الى صرخد ، فظهر هذا الامر لأصحابه ، فأشفقوا من الهلاك واعلموا والدته زمرد خاتون

بذلك ، فقلقت له ، وحسنوا لهـا قتله ، وتمليك اخيه شـهاب الدين محمود ، فرجح ذلك في نظرها ، وعزمـت عليه ، فـانتظرت وقـت خلوته من غلمانه وسلاحيته ، وادخلت عليه من أصحابها من قتله .

وأخرجته فألقي في ناحية من الدار ليشاهده غلمـانه وأصـحابه فسروا بذلك ، وذلك في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل: إنه اتهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته ، فهرب منه الى تدمر ، فأراد قتل امه ، فبلغهـا الخبـر فقتلتـه خـوفا منه ، وأجلست والدته مكانه أخاه شهاب الدين محمود بـن بـوري (١٧٥) ، وحلف الناس له. وتوجه اتابك زنكي من الموصل مجـدا ليتسلم دمشق من شمس الملوك ، فوصل الى الرقة وقال: «ا شـتهي ان ادخل الحمام». فأحضر صلاح الدين مسيب بـن مـالك صـاحب الرقة ، وقال له: «اتابك يشتهي دخول الحمام ، وهـذه خمسـمائة دينار تسـلمها واعمـل له بهـا دعوة» فلم يشـك في ذلك ، ودخلوها ، فلما حصلوا بها أخـذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر . وبلغه ما جرى بـدمشق ، فلم يقـطع طمعـه فيها ، وسار فنزل العبيدية (١٧٦) ، وراسل أهل دمشـق ، فلم يجيبوه الى مطلوبه ، وردوا عليه جوابا خشنا ، يتضمن ان الكلمـة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار الى حماة فخرج اليه شمس الخواص بعـد ان تـوثق منه بالايمان ، ورحل الى دمشق ، وسار اليهـا ، فنزل على دمشـق في عسكر عظيم ، وزحف عليهـا مـرارا متعـددة ، فلم يظفـر فيها بطائل ، واشتد الغلاء في العسكر ، وعدموا القوت ، وقفز جمـاعة من العسكر الى دمشق ، ووقعت المراسلة في حديث الصـلح ، وكان قد وصل مع أتابك بعض أولاد السلطان فطلب ان يخرج شهاب الدين محمود لوطء بساط ولد السلطان ، فلم يفعل .

واتفق الامر على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولا من المسترشد الى زنكي بخلع هيئت له ، وتقدم اليه بالرحيل عن دمشق والوصول الى العراق ، ليوليه امره وتدبيره ، وان يخطب للسلطان ألب أرسلان داود بن محمود المقيم بالموصل - وكان قد وصل هاربا بين يدي عمه السلطان مسعود - فأكرمه أتابك .

فدخل الرسول وبهاء الدين بن الشهرزوري إلى دمشق ، وقررا هذه القاعدة واخمدا الفتنة ، وأكدا الايمان ، وخطب يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأولى بجامع دمشق بحضورهما على القاعدة التي وصل فيه الرسول (١٧٧) .

وعاد أتابك من دمشق ، فلما وصل حماة قبض على شمس الخواص صاحبها ، وأنكر عليه أمرا ظهر منه ، وشكا أهلها من نوابه فتسلمها منه ، وأطلقه فهرب ، وورد حماة إلى صلاح الدين ورحل من حماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أول رجب ثم فتح زردنا ، ثم تل أعذى ، ثم فتح معرة النعمان ، ومن على أهلها بأملاكهم ، ثم فتح كفر طاب ، ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث ابن منقذ نائبا عن أبيه ، ثم نزل بارين (١٧٨) وأظهر أنه يحاصرها ، ثم سار ، وأهل حمص غارون ، فشن عليهم الغارة ، واستاق كل ما كان في بلدها ونهبهم .

ووصل ابن الفنش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قنسرين ، فسار إليهم أتابك فأحسن التدبير ، ومازال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاتلها في العشر الأواخر من شوال ، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السنة .

وسار منها في المحرم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ، ومعه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل ، فأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربي ، والخليفة إذ ذاك الراشد بعد قتل المسترشد .

فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة .

وبلغ الخبر السلطان مسعود فعاد ، فهرب الراشد ، ولحق أتابك بالموصل . ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السلطان ، وبقيت الخطبة بالشام والموصل على حالها إلى أن اتفق أتابك زنكي والسلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الراشد إذ ذاك زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى وثلاثين(١٧٩) .

وسار سيف الدين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللاذقية ، وأغار على الفرنج على غرة وقلة احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ، ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير والذي نهبوه - على ما ذكر - مائة قرية وامتلأت حلب من الأسارى والدواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم .

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب ، في رابع وعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ، وسير صلاح الدين في مقدمته ، فنزل حمص ، وسار أتابك إلى حماة ، وعيد عيد الفطر في الطريق ، وأخذ من حلب معه خمسمائة راجل لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أنر(١٨٠) من قبل صاحب دمشق ، فحصرها مدة .

وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي ، فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بارين ، فكسرتهم طلائع زنكي مع سوار ، فأفنوا عامتهم قتلا وأسرا ، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج ، ونجا القليل منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كندياجور(١٨١) صاحب القدس ، وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلا ونهارا ، ثم تقرر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلمها زنكي ، وعاد إلى حلب .

واستقر الصلح بين أتابك وصاحب دمشق ، وتزوج أتابك خاتون بنت جناح الدولة حسين ، على يد الامام برهان الدين البلخي ، ودخل عليها بحلب في هذه السنة .

ووصل في هذه السنة ملك الروم كالياني(١٨٢) من القسطنطينية في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج ــ لطفا من الله تعالى ــ وأقام إلى أن وصلته مراكبه البحرية بالأثقال والميرة والمال ، فاعتمد لاون بن روبال(١٨٣) صاحب الثغور في حقه فتحا عظيما .

وتخوف أهل حلب منه فشرعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون متطارحا ، فقال : « أنت بين الفرنج والأتراك لايصلح لك المقام » ، فسيره إلى القسطنطينية ، وأقام في عين زربة وأذنة والثغور ، مدة الشتاء .

وكان في عوده عن أنطاكية إلى ناحية بغراس(١٨٤) في الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسوله إلى

زنكي ، وظفر سوار بسرية وافرة العدد من عسـكره ، فقتـل وأسر ودخل بهم إلى حلب .

ووصل الرسول إلى زنكي ، وهو متوجه إلى القبلة فـرده ومعـه هدية إلى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور ، على يد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبك وأخذ منها مالا ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل(١٨٥) مـن أيدي الدمشقيين ، ودخل في طـاعته ابـراهيم بـن طـــرغت والي بانياس .

وشتى أتابك زنكي بأرض دمشـق ، وورد عليه رسـول الخليفـة المقتفي والسلطان مسعود بالتشريف ، ثم رحل أتابك عن دمشـق في شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثـم رحـل عنهـا إلى حمص ، فخيم عليها ، وجرد من حلب رجالا لحصارها ، وجمع عليها جموعا كثيرة ، وهجم المدينة ، وكسر أهلها ونال منهم منالا عظيما .

ونقض الفرنج الهدنة التـي كانت بينهـم وبين زنكي على حلب ، وأظهروا العناد ، وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار مـن أهـل حلب ، في جمادى الأولى من السنة ، بعد إحسانه إليهم واصـطناعه لمقدميهم ، حين أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الروم كالياني .

وظهر ملك الروم بغتة من طـريق مـدينة البـلاط ، يوم الخميس الكبير من صومهم ونزل يوم الأحد يوم عيد النصارى ، وهو الحادي والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

وانتشرت الخيل بغتة فلطف الله بالمسلمين ، فرأوا رجلا من كافر ترك(١٨٦) ومعه جماعة منهم ، قـد تـاهوا عن عسـكر الروم ، وأظهروا أنهم مستأمنة وأنذروا من بحلب بالروم .

فتحرز الناس وتحفظوا ، وكاتبوا أتـابك زنكي بـذلك ، فـوصله الخبر وهو على حمص ، فسير في الحال الأمير سيف الدين سـوار والرجالة الحلبيين وخمسمائة فـارس ، في أربعـة مـن الأمـراء الاصفهسلارية(١٨٧) منهم زين الدين علي كوجك ، فقـويت قلوب أهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأما الروم فإنهم حصروا حصن بزاعا ، وقـاتلوه سـبعة أيام ، فضعفت قلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امـرأة فسـلموه إلى الروم بالأمان ، بعد أن توثقوا منهم بـالعهود والأيمـان ، فغـدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسـلم أو يزيدون ؛ وأقـام الملك بالوادي يدخن على مغاير الباب عشرة أيام ، فهلكوا بالدخان .

ثم رحل فنزل يوم الأربعاء الخـامس مـن شـعبان ، بـأرض الناعورة ، ثم رحـل يوم الخميس سـادس شـعبان ، ومعـه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونصب خيمته مـن قبليها على نهر قويق ، وأرض السعدي ، وقـاتل حلب يوم الثـلاثاء من ناحية برج الغنم(١٨٨) ، وخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعـوا إلى خيمهـم خائبين .

ورحل يوم الاربعاء ثامن شـعبان مقتبـلا إلى صـلدي(١٨٩) فخاف من بقلعة الأثارب من الجند المسـلمين ، فهـربوا منهـا يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النار في خزائنهم .

وعرف الروم ذلك فخفت منهم سرية وجماعة من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، وألجأوا السبي إلى خنادقها وأحواشها ، فهرب جماعة منهم إلى حلب ، وأعلمـوا الأمير سـيف الدين سوار بن أيتكين بذلك ، وأن الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لمة من العسكر ، فصابحهم وقـد انتشروا

بعد طلوع الشمس ، فوقع عليهم واستخلص السبي جميعه إلا اليسير منهم ، وأركب الضعفاء منهم خلف الخيالة حتى أنه أخذ بنفسه جماعة من الصبيان ، وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السبي إلا القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، فسر أهل حماة ثم رحل إلى سلمية ، ورحل ملك الروم إلى بلد معرة النعمان ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شيزر ، ونزلوا كفر طاب ورموها بالمجانيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وهرب أهل الجسر(١٩٠) ، وتركوه خاليا فوصله الروم ، وجلسوا فيه ورحلوا عنه إلى شيزر ، يوم الخميس سادس عشر شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ، ومعهم من الكراع والسلاح مالا يحصيه إلا الله ، فنزلوا الرابية المشرفة على بلدة شيزر ، وأقاموا يومهم ويوم الجمعة إلى آخر النهار .

وركبوا وهجموا البلد ، فقاتلهم الناس وجرح أبو المرهف نصر ابن منقذ ، ومات في رمضان من جرحه ذلك .

ثم انهزم الروم ، وخرجوا ، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمون ، وجوسلين في المصلى ، وركب الملك يوم السبت ، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقا وأربع لعب تمنع الناس من الماء .

ودام القتال عشرة أيام ، ولقي أهل شيزر بلاء عظيما ، ثم اقتصروا في القتال على المجانيق ، وأقاموا إلى يوم السبت تاسع شهر رمضان .

وبلغهم أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفا من التركمان وغيرهم ، فأحرقوا آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر ، وتركوا مجانيق عظاما

رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم ، وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة ، ويخرجهم المسلمون منها . (١٩١) .

فوصل صلاح الدين من حماةيوم السبت تاسع الشهر ، وبلغه أن الفرنج هربوا من كفر طاب فسار إليها ، وملكها ، ووصل أتابك يوم الاحد عاشر الشهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين ، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف الليل ونزل أهله من « أبي قبيس »(١٩٢) ، فمنعوهم ودخل الروم مضيق أفامية إلى أنطاكية ، وطلبها من الفرنج فلم يعطوه إياها ، فرحل عنها إلى بلاده ، وسير أتابك خلفهم سرية من العسكر تتخطفهم . هذا كله وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود ، ولم يجتمع به ، بل بعث إليه يأمره بالعود إلى أبيه ، وأنه مستغن عنه وانحاز عنهم فنزل أرض حمص ، وكتب إلى شهاب الدين محمود بن بوري يطلبها .

وترددت الرسل بينهم على أن يسلم إلى أتابك حمص ، ويعوض أنر واليها ببارين ، واللكمة(١٩٣) والحصن الشرقي ، وأن يتزوج أتابك أمه زمرد خاتون بنت جاولي ، ويتزوج محمود ابنة أتابك ، ويسلم أتابك حمص ، ويسلم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرد خاتون من دارها إلى عسكر زنكي ، مع أصحابه المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وقد اجتمع عنده رسول الخليفة المقتفي ، والبسة التشريف الواصل إليه ، ورسول السلطان ، ورسول مصر ، والروم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثم خرج منها إلى بزاعا وفتحها بالسيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وقتل كل من كان بها على قبر شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان ضرب عليها بسهم في عينه فمات .

وعاد منها إلى حلب ، وسار إلى الأثارب ، ففتحها ، في ثالث صفر .

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ، حدثت زلزلة شديدة ثم اتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل ، فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد وخرجت الاحجار من الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دويا عظيما ، وانقلبت الأشارب فهلك فيها ستمائة من المسلمين ، وسلم الوالي ومعه نفر يسير ، وهلك أكثر البلاد من شيح ، وتل عمار(١٩٤) ، وتل خالد ، وزردنا (١٩٥) ، وشوهدت الأرض تموج ، والاحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال .

وانهدم في حلب دور كثيرة ، وتشعث السور ، واضطربت جدران القلعة ، وسار أتابك مشرقا فنزل القلعة فأخذها ، وسار منها إلى القلعة(١٩٦) ، ثم إلى الموصل .

وتواترت الزلازل إلى شوال ، وقيل : إن عدتها كانت ثمانين زلزلة .

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتابك على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثم قرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافيا ، واطلق القطيعة .

وفي هذه السنة ، نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غنم ، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج ، واخذوا منهم ألفا ومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابن عمرون ، وكان قد سلمها إلى الباطنية(١٩٧) .

وفي شهر رمضان منها ، استحكم الفساد بين أتابك وتمرتاش ، فنزل أتابك زنكي دارا (١٩٨) ، وحصرها وافتتحها في شوال ، وأخذ رأس عين(١٩٩) وجبل جور(٢٠٠) وذا القرنين(٢٠١) ، ومات سوتكين الكرجي بحران ، فأنفذ أتابك زنكي وأخذها .

وقتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك على فراشه ، ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من شوال من السنة ، قتله البغش ويوسف الخادم ، وفراش ، وكان قد قربهم واصطفاهم(٢٠٢) .

وسير أنر إلى محمد أخيه صاحب بعلبك ، فأجلسه في منصب أخيه وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرق إلى أتابك زنكي .

وعلمت والدته زمرد خاتون ، فارسلت إلى زوجها زنكي ، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها ، وتحثه على الوصول ، فأقبل وفي مقدمته الامير الحاجب صلاح الدين ، فسار إلى حماة .

ووصل زنكي حتى عبر الفرات ، ونزل بالناعورة ، ودخل حلب ، ورحل الى حماة في سابع ذي الحجة ، ورحل إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، فحصرها أول محرم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وضربها بالمجانيق الى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر .

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر ، وكان قد حلف لأهل القلعة بالأيمان المغلظة والمصحف والطلاق ، فلما نزلوا غدر بهم ، وسلخ واليها ، وشنق الباقين ، وكانوا سبعة وثلاثين رجلا ، وغدر بالنساء ، وأخذهم .

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها ، فنزل على داريا ، وزحف إلى البلد ، وراسل محمد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبك وحمص ، وما يقترح معهما عوضا عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوفوه الغدر به ، فمات محمد بن بوري ، في ثامن شعبان ، ونصب ولده عضب الدولة أبق مكانه .

وكاتب أنر الفرنج في نجدته ، وتسليم بانياس من ابراهيم بن طرغت إليهم ، فتجمعوا لذلك ، فرحل أتابك عن دمشق ، في خامس

شهر رمضان ، للقاء الفرنج إن قربوا منه إلى ناحية بصرى وصرخد من حوران ، وأقام مدة ، ثم عاد إلى الغوطة فنزل عذراء ، وأحـرق عدة ضياع من الغوطة .

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان ، فرحل أتـابك إلى ناحية حمص . وأسر ريمند صاحب أنطاكية ابراهيم بن طرغت صاحب بـانياس ، وقتله ، ونزل معين الدين أنر عليها فحصرها وتسلمها ، وسلمها إلى الفرنج ، وعادت خاتون إلى حلب في العشرين من ربيع الاول .

وعاد أتابك إلى حلب في الرابع والعشرين مـن جمـادى الأولى ، واستقر الحال بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق .

ومات قاضي حلب أبو غانم محمد بن أبـي جـرادة في شـهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فولى أتـابك قضـاء حلب ولده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة ، ولما اسـتحضره وولاه القضاء قال له : « هذا الامر قد نزعته مـن عنقـي ، وقلدتـك إياه ، فينبغي أن تتقي الله وأن تساوي بين الخصمين ، هـكذا » ، وجمع بين أصابعه .

وكثر عيث التركمان وفسـادهم ، وامتـدت أيديهـم إلى بـلاد الفرنج ، فارسلوا رسولا إلى أتـابك يشـكونهم ، فعـاد الرسـول متنصلا ، فلقيه قوم من التركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرب والتركمان مالا يحصى .

وعاد اتابك في سنة ست وثلاثين على الحلبيين بالقطيعة التي كان قررها على الاملاك ، وأرسل اليهم علي الفوتي العجمي ، فعسـف الناس في استخراج القطيعة ، واخرق بهـم ، ومـات ابـن شـقارة بحلب ، وصارت املاكه إلى بيت المال فرد على الناس ما كان وظف على أملاكه من القطيعة واخذه منهم .

وأغار الفرنج في سنة ست وثلاثين وخمسـمائة على بلد سرمين ،

واخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا إلى جبل السماق ، وكذلك فعلوا بـكفر طاب ، وتفرقوا فأغار علم الدين بن سيف الدين سوار مع التركمان إلى باب انطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

واغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خـدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدة المقتلوين سبعمائة رجل .

واتفق في هذه السنة خلاف شديد بين أتابك زنكي وقـرا أرسـلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمرد(٢٠٣) ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمرد ، وعاد الى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتى بها .

وفي هذه السنة تقرر الصلح بين اتابك والارتقية ووصل أولادهـم إلى الخدمة ثم عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزير أتابك ضياء الدين بـن الكفـرتوثي ووزر موضعه أبا الرضا بن صدقة ، ثم عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهض سوار في شهر رمضـان الى بلد أنطـاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفـرنج ، فخـاض التركمان إليهـم العـاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كل مـن كان بـالخيم ، ونهبـوا وسـبوا ، وعادوا الى حلب بـالوسيق العـظيم ، والأسرى والرؤوس .

وفتح أتابك قلعة آشب المشهورة بـالحصانة(٢٠٤) ، في ثـالث وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج ملك انطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فردهم إلى بلد الشمال واجتمع سوار وجـوسلين بين العسـكرين فـاتفق الصـلح بينهما .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة انيرون(٢٠٥) ، وبعدها قلعة حيزان(٢٠٦) ، ومما كان أيضا بيد الفرنج جملين ، والموزر(٢٠٧) ، وتل موزن(٢٠٨) ، وغيرهما .

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الفرنج ، ومعها مال كثير ودواب ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميع الخيالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السنة .

وفي يوم الاربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعت خيل تركمان نهضت من بلد حلب ، فأوقعت بخيل خارجة من باسوطا(٢٠٩) فقتلوهم ، واسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلموه إلى سوار فقيده .

وعزل أتابك وزيره جلال الدين أبا الرضا بالموصل ، واستوزر أبا الغنائم حبشي بن محمد الحلي .

وكان أتابك زنكي لايزال يفكر في فتح الرها ، ونفسه في كل حين تطالبه بذلك ، الى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لامر اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النزول عليها في عسكر عظيم ؛ وكاتب التركمان بالوصول إليه ، فوصل خلق عظيم .

وأحاط المسلمون بها من كل الجهات ، وحالوا بينها وبين من يدخل إليها بميرة أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيون فنقبوا عدة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأذنوا أتابك في إطلاق النار فيه ، فدخل إلى النقب نفسه وشاهده ثم أذن لهم ، فألقوا النار فيه ، فوقع السور في الحال(٢١٠) .

وهجم المسلمون البلد ، وملكوه بالسيف يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ، وشرعوا في النهب والقتل والأسر والسبي ، حتى امتلأت أيديهم من الغنائم ، ثم أمر أتابك برفع السيف عن أهلها ، ومنع السبي ، ورده من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران هو الذي يحث أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهل عليه أمرها ، فوجد على عضادة محرابها مكتوب :

أصبحت صفرا من « بني الأصفر »
اختال بالأعلام والمذبر
دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني
لولا « جمال الدين » لم أطهر

فبلغ ذلك رئيس حران ، فقال : « أمحوا جمال الدين ، واكتبوا عماد الدين » ، فبلغ ذلك زنكي ، فقال : « صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها » ، وأمر عماله بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج ، وأن يأخذوه على قدر مغلاتها(٢١١) .

ثم رحل إلى سروج ففتحها ، وهرب الفرنج منها ، ثم رحل فنزل على البيرة ، في هذه السنة فحاصرها في هذه السنة .

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها ، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها ، (٢١٢) وسار حتى دخل الموصل ، وأخذ فرخانشاه بن السلطان الذي قتل جقر ، وعزم على تملك الموصل ، فقتله بدم جقر ، وولى الموصل مكانه الأمير زين الدين علي كوجك .

ثم شرع زنكي في الجمع والاحتشاد ، والاستكثار من عمل المجانيق ، وآلة الحرب ، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة ؛ ويظهر الناس أن ذلك لقصد الجهاد ، وبعض الناس يقول : إنه لقصد دمشق ومنازلتها ، وكان ببعلبك مجانيق فحملت إلى حمص ، في شعبان من هذه السنة .

وقيل : إن عزمه انثنى عن الجهاد في هذه السنة ، وأن جماعة من الأرمن بالرها عاملوا عليها ، وأرادوا الايقاع بمن كان فيها من المسلمين واطلع على حالهم ؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها ، وقوبل من عزم على الفساد بالقتل والصلب .

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة ، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم ؛ كان تهدده في النهار ، فخاف منه فقتله في الليل في فراشه .

وقيل : إنه شرب ونام ، فانتبه فوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابه ، فتوعدهم ، ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء يرنقش إلى تحت القلعة ، فنادى أهل القلعة : « شيلوني فقد قتلت أتابك » .

فقالوا له : « اذهب إلى لعنة الله ، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله(٢١٣) » .

وقد كان أتابك ضايق القلعة ، فقل الماء فيها جدا ، والرسل من صاحبها علي بن مالك تتردد بينه وبين أتابك ، فبذل علي بن مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها ، فأجابه إلى ذلك .

ونزل الرسول ، وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان أخواته ، وأحضر الرسول ، وقال لبعض خواصه : « امض بفرسه

وقـربه إلى قـدر اليخني فإن شرب منه فـأعلمني » . ففعـل ذلك ، فشرب الفرس مرقة اليخني ، فعلم أن الماء قد قل عندهـم ، فغـالط الرسول ودافعه ، ولم يجبه إلى ملتمسـه ، فـأسقط في يد علي بـن مالك .

وكان في القلعة عنده بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش ، فصعدت في درجة المئذنة حتى علت عليها ، ورفعـت رأسـها إلى السـماء ، وصاحت صيحة عظيمة ، فأرسل الله سحابة ظالت القلعة ، وأمطروا حتى رووا ، فتقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى تحت القلعـة ، ونادى علي بن مالك ، وقال له : « ياأمير علي ، ايش بقى يخلصـك من أتابك » فقال له : « ياعاقل ، يخلصني الذي خلصك مـن حبس بلك » .

يعني حين قتـل بلك على منبـج وخلص حسـان ، فصـدق فأله ـ وكان ماذكره ـ .

وأخبرني والدي ـ رحمه الله ـ أن حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين .

ياراقد الليل مسرورا بأوله ،
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا !
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجج النارا !

وكان أتابك جبـارا عظيمـا ذا هيبـة وسـطوة ، وقيل : إن الشاووش(٢١٤) كان يصيح خارج باب العراق ، وهـو نازل مـن القلعة ، وكان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخـافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولايجسر من هيبتـه أن يدوس عرقا منه ، ولايمشي فرسه فيه ، ولايجسر أحدا من أجناده أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القـرية ؛ وإن تعدى أحد صلبه .

وكان يقول : « ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحـد » ـ يعني نفسه ـ فعمرت البلاد في أيامه بعد خـرابها وأمنت بعـد خـوفها ، وكان لايبقي على مفسد ، وأوصى ولاته وعماله بأهل حران ، ونهـى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، وهذا ما حكاه أهل حران عنه .

وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون عنه ضد ذلك(٢١٥) .

وكانت الأسعار في السنة التي توفي فيها رخية جدا ، الحنطة ست مكايك بدينار ؛ والشعير اثنا عشر مكوكا بدينار ؛ والعـدس أربـع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار ؛ والقطن ستون رطلا بدينار ؛ والدينار هو الذي جعله أتابك دينار الغلة ؛ وقدره خمسـون قرطيسا برسا(٢١٦)وذلك لقلة العالم .

ولما قتل افترقت عساكره فأخذ عسـكر حلب ولده نور الدين أبـا القاسم محمود بن زنكي ، وطلبوا حلب فملكوه إياهـا ، وأخـذ نور الدين خاتمه من إصبعه قبل مسيره إلى حلب ، وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وحده ، فخرج أهل الرافقة فغسلوه بقحـف جـرة ، ودفنوه على باب مشهد علي ـ عليه السلام ـ في جوار الشهداء من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبنى بنوه عليه قبة ، فهي بـاقية إلى الآن(٢١٧) .

وملك الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بـن آق سـنقر حلب ، عند ذلك في شـهر ربيع الآخـر يوم الثـلاثاء عاشر الشهر ، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ووصل إليه صلاح الدين الياغيسياني يدبر أموره ويقوم بحفـظ دولته ، فحينئذ راسل جوسلين الفرنجي أهل الرها وعامتهـم مـن الارمن ، وحملهم على العصيان وتسليم البلد ، فـأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى ذور الدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره ، فخرج جوسلين هاربا إلى بلده .

ودخلها ذور الدين فنهبها وسبى أهلها ، وخلت منهم ، فلم يبق بها منهم إلا القليل(٢١٨) .

وأرسل ذور الدين من سبيها جارية في جملة ما أهداه إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أبيه بالموصل ، فلما رآها دخل إليها ، وخرج من عندها وقد اغتسل ، وقال لمن عنده : « تعلمون ما جرى لي يومنا هذا ؟» قالوا : «لا » ، قال : « لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع بيدي من النهب جارية رائقة أعجبني حسنها ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب ، وكان مهيبا مخوفا ، فرددتها وقلبي متعلق بها ، فلما كان الآن جاءتني هدية ذور الدين وفيها عدة جوار منهن تلك الجارية ، فوطئتها خوفا أن يقع مثل تلك الدفعة » .

وشرع ذور الدين – رحمه الله – في صرف همته إلى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلد الفرنج ؛ ففتح أرتاح بالسيف ، ونهبها وفتح حصن مابولة ، وبسرفوث ، وكفرلاثا وهاب(٢١٩) .

وكان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ماأخذه ، فلما رأوا من ذور الدين الجد في أول أمره ، علموا بعد ما أملوه .

وخرج ملك الألمان ونزل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وسار لنجدتها سيف الدين غازي من الموصل ، وذور الدين محمود ، فوصلا إلى حمص .

وتوجه ذور الدين إلى بعلبك ، واجتمع بمعين الدين أنر بها ،

ورحل ملك الالمان عن دمشق ، وكان صحبته ولد الفنش ؛ وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين ، فأخذ ولد الفنش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على أخذ طرابلس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبك يقول له في قصد حصن العريمة وأخذه من ولد الفنش .

فسار نور الدين ومعين الدين أنر معه ، وسيرا إلى سيف الدين غازي إلى حمص ، يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير مع الدبيسي صاحب الجزيرة ، فنازلوا الحصن ، وحصروه وبه ولد الفنش .

فزحف المسلمون إليه مرارا ، ونقب النقابون السور فطلب من به من الفرنج الأمان ، فملكه المسلمون ، وأخذوا كل من به من فارس وراجل ، وصبي ، وامرأة ، وفيهم ابن الفنش ، وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى حمص(٢٢٠) .

ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل .

وتجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ، فخرج إليهم نور الدين بعسكره والتقاهم بيغرى(٢٢١) ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الفرنج ، وأسر منهم جماعة وقتل خلق ، ولم ينج إلا القليل .

وفي هذه الوقعة يقول الشيخ أبو عبد القيسراني من قصيدة :

وكيف لاتثني على عيشنا ال
ـمحمود والسلطان « محمود ! »
وصارم الاسلام لا ينثني
إلا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة
إلا و « نور الدين » موجود(٢٢٢)

وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب ، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها ، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ؛ واستدعى برهان الدين أبا الحسن

علي بن الحسن البلخي الحنفي وولاه تدريسها ، فغير الأذان بحلب ، ومنع المؤذنين من قولهم : « حي على خير العمل » وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال لهم : « من لم يؤذن الأذان المشروع فالقوه من المنارة على رأسه » . فأذنوا الاذان المشروع ، واستمر الأمر من ذلك اليوم .

وجدد المدرسة العصرونية على منهب الشافعي ، وولاها شرف الدين بن أبي عصرون (٢٢٣) ، ومدرسة الذفري ، وولاها القطب النيسابوري(٢٢٤) ، ومسجد الغضائري وقف عليه وقفا ، وولاه الشيخ شعيب(٢٢٥) ، وصار يعرف به .

وبقي برهان الدين البلخي بحلب مدرسا بالحلاوية إلى أن أخرجه مجد الدين بن الداية ، لوحشة وقعت بينهما ، ووليها علاء الدين عبد الرحمن بن محمود الغزنوي ، ومات ووليها ابنه محمود ، ثم وليها الرضي صاحب المحيط ، ثم وليها علاء الدين الكاساني(٢٢٦) .

وتوفي سيف الدين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين وترك ولدا صغيرا ، فرباه عمه نور الدين ، وعطف عليه .

واتفق الوزير جمال الدين وزين الدين علي على أن ملكوا قطب الدين مودود بن زنكي الموصل ، وكان نور الدين أكبر منه ، وكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه .

وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد ، وكان بسنجار ، فكتب إليه يستدعيه ليتسلم سنجار .

فسار جريدة في سبعين فارسا من أمراء دولته فوصل سنجار مجدا ، ونزل بظاهر البلد ، وأرسل الى المقدم يعلمه بوصوله ، فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة ، فسير من لحق أباه في الطريق ، وأعلمه بوصول نور

الدين ، فعاد إلى سنجار ، وسلمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان صاحب الحصن(٢٢٧) يستدعيه لمودة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطب الدين والوزير جمال الدين ، وزين الدين بالموصل ، جمعوا العساكر ، وعزموا على قصد سنجار وساروا إلى تل أعفر(٢٢٨) ، فأشار الوزير جمال الدين بمداراته ، وقال : « إننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان ، وجعلنا محلنا دونه ، وهو فيعظمنا عند الفرنج ، ويظهر أنه تبع لنا ، ويقول : إن كنتم كما نحب وإلا سلمت البلاد إلى صاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ، فإن هزمناه طمع فينا السلطان ويقول : إن الذي كانوا يعظمونه ، ويخوفوننا به أضعف منهم ، وقد هزموه ، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ، ويقولون : إن الذي كان يحتمي بهم أضعف منه ، وبالجملة فهو ابن أتابك الكبير » ؛ وأشار بالصلح .

وسار إلى نور الدين بنفسه ، فوفق بينهما على أن يسلم سنجار إلى قطب الدين ، ويتسلم الرحبة ، ويستقل نور الدين بالشام جميعه ، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرها ، فإنها لنور الدين(٢٢٩) .

وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان قد ادخره أبوه أتابك من الخزائن ، وكانت كثيرة جدا .

فغزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكية ، وقصد حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره ، وخرب ربضه ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى حصن إنب(٢٣٠) فحصره أيضا .

فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم ، وتلك الأعمال ، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب ، فلقيهم يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، واقتتلوا قتالا عظيما ، وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمع كثير ، وأسر مثله .

وكان ممن قتل ذلك اليوم البرنس صاحب انطاكية ، وكان من عظماء الفرنج وأقويائهم . ويحكى عنه أنه كان يأخذ الركاب الحديد بيده ، فيطبقه بيده الواحدة ؛ وأنه مر يوما وهو راكب حصانا قويا تحت قنطرة فيها حلقة أو شيء مما يتعلق به ، فتعلق بيديه وضم فخذيه على الحصان فمنعه الحركة .

فلما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند ، وتزوجت أمه بابرنس آخر ، ليدبر البلد إلى أن يكبر ابنها(٢٣١) ، وأقام معها بأنطاكية ، فغزاهم نور الدين غزوة ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فهزمهم ، وقتل منهم خلقا وأسر كذلك ، وأسر البرنس الثاني زوج أم بيمند ، واستقل بيمند بانطاكية .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني من قصيدة أولها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
صافحت يا« بن عماد الدين » ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
أغرت سيوفك بالأفرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب(٢٣٢)

وقال ابن منير في ذلك :

صدم الصليب على صلابة عوده ،
فتفرقت أيدي سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح ، مما قد جنت غدراته

تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النير قناة(٢٣٣)

وسار نور الدين محمود إلى أفامية ، في سنة خمس وأربعين ، فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله ، واجتمع الفرنج وساروا إليه ليرحلوه عنه ، فوجدوه قد ملكه وملأه من الرجال والذخائر ، فسار في طلبهم ، فعدلوا عن طريقه ، ودخلوا بلادهم .

وجمع نور الدين العساكر وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي ليملكها وكان جوسلين من أشجع الفرنج وأسدهم رأيا ، فجمع الفرنج وأكثر ، وسار إلى نور الدين والتقيا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر .

وكان سلاحدار نور الدين ممن أسر ، فأخذ جوسلين سلاحه ، فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية ، وقال : « هذا سلاح زوج ابنتك » . فعظم ذلك على نور الدين ، وهجر الراحة إلى أن يأخذ بثاره ، وجعل يفكر في حيلة يحتال بها على جوسلين ، وعلم أنه إن قصده احتمى في حصونه .

فأحضر أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن ظفروا بجوسلين ، فجعلوا عليه العيون ، فخرج إلى الصيد فظفر به طائفة من التركمان ، فصانعهم على مال يؤديه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال ، وأرسل في إحضاره .

فمضى بعض التركمان إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ، وكان ابن داية نور الدين ، واستنابه في حلب ، وسلم أمورها إليه ، فأحسن الولاية فيها والتدبير ، فأعلم ذلك التركماني ابن الداية بصورة الحال ، فسير مجد الدين معه عسكرا ، فكبسوا أولئك التركمان ، وأخذوا جوسلين أسيرا ، واحضروه إلى ابن الداية ، في محرم هذه السنة(٢٣٤) .

فسار نور الدين عند ذلك إلى قلاع جـوسلين ، ففتـح عزاز بعـد الحصـار ، في ثـامن عشر ربيع الاول ، سـنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وفتح تل باشر ، وتل خالد ؛ وفتـح عين تـاب(٢٣٥) سنة خمسـين ، وفتـح قـورس(٢٣٦) والراوندان(٢٣٧) ، وبـرج الرصاص ، وحصن البيرة وكفرسود(٢٣٩) ، ومرعش(٢٤٠) ونهر الجوز.

وتجمع الفرنج وساروا إليه وهو ببـلاد جـوسلين ليمنعـوه عن فتحها ، في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فلما قـربوا منه رجـع إليهم ، ولقيهم عند دلوك ، فاقتتلوا فانهزم الفـرنج ، وقتـل منهـم وأسر كثير ، وعاد إلى دلوك ففتحها(٢٤١) .

وأما تل باشر فإنه تسلمها منهم بعد فتحـه دمشـق ، لأنهـم لما علموا أنه فتح دمشق ، وأنه يقصدهم ولا طاقة لهـم بـه راسـلوه ، وبذلوا له تسليمها إليه ، فسير إليهم الأمير حسان صـاحب منبـج لقربها من منبج فتسلمها منهم ، وحصنها .

وكان فتحه دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسـمائة ، لأن الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهـم عنهـا لاعتـراض دمشـق بينه وبين عسقلان (٢٤٢) .

وطمع الفرنج في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونها منهـم في كل سنة ، فخاف نور الدين أن يملكها الفرنج ، فـاحتال في أخـذها لعلمه أن أخذها بالقهر يصعب لأنه متـى نازلهـا راسـل صـاحبها الفرنج مستنجدا بهـم ، وأعانوه خـوفا مـن نور الدين أن يملكهـا فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحبها ، واسـتماله وهاداه ، وأظهر له المودة حتى وثق بـه ، فـكان يقـول له في بعض

الأوقات : « إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق » - يعني بعض أمراء مجير الدين - فكان يبعد ذلك عنه ، ويأخذ أقطاعه ، فلما لم يبق عنده أحد من الأمراء قدم أميرا يقال له عطاء بن حفاظ الخادم ، وكان شجاعا وفوض إليه أمور دولته ، فكان نور الدين لايتمكن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله .

فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب أهلها واستمالهم ، وكان الناس يميلون إليه ، لما هو عليه من العدل والديانة والاحسان ، فوعدوه بالتسليم إليه .

فلما حصر دمشق أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم لذلك .

فتسلم نور الدين دمشق ، وخرج الفرنج وقد قضي الأمر فعادوا خائبين ، وسلمها إليه أهلها من باب شرقي ، والتجأ مجير الدين إلى القلعة ، فراسله وبذل له عوضا عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلمها إليه وسار إلى حمص ، ثم إنه راسل أهل دمشق ، فعلم نور الدين ، فخاف منه ، فأخذ منه حمص ، وعوضه ببالس ، فلم يرض بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نور الدين إلى حارم ، وهي لبيمند صاحب انطاكية ، وحصرها في سنة إحدى وخمسين ، وضيق على أهلها ، فتجمع الفرنج وعزموا على قصده فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لاتلتقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة والرأي مطاولته » ، فارسلوا إلى نور الدين ، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم ورجع نور الدين إلى حلب .

ووقعت الزلازل في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفر طاب ، وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميميس (٢٤٢) ،

عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وتهدمت أسوار هذه البلاد فجمع نور الدين العساكر ، وخاف على البلاد من الفرنج ، وشرع في عمارتها حتى أمن عليها .

وأما شيزر ، فانقلبت القلعة على صاحبها وأهله ، فهلكوا كلهم ، وكان قد ختن ولدا له وعمل وليمة ، وأحضر أهله في داره ، وكان له فرس يحبه ولايكاد يفارقه ، وإذا كان في مجلس أقيم ذلك الفرس على بابه ، فكان ذلك اليوم على الباب ، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله ، فامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم فهلكوا .

وبادر نور الدين ، ووصل إلى شيزر ، وقد هلك تاج الدولة بن منقذ وأولاده ، ولم يسلم منهم إلا الخاتون أخت شمس الملوك زوجة تاج الدولة ، ونبشت من تحت الردم سالمة ، فتسلم القلعة وعمر أسوارها ودورها ، وكان نور الدين قد سأل أخت شمس الملوك عن المال وهددها ، فذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم ، ونبشت هي دونهم ، ولاتعلم بشيء ، وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم .

وكان شرف الدولة اسماعيل غائبا ، فلما حضر وعاين قلعة شيزر ، ورأى زوجة أخيه في ذلك الذل بعد العز ، عمل قصيدة أولها :

ليس الصباح من المساء بأمثل
فأقول لليل الطويل ألا انجلي

قال فيها :

يا « تاج دولة هاشم » بل ياأبا التـ
ـيجان بل ياقصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك « قلعة شيزر »
والستر دون نسائها لم يسبل

لرأيت حصنا هائل المرأى غدا
متهلهلا مثل النقا المتهيل
لايهتدي فيه السعاة لمسلك
فكأنما تسري بقاع مهول

ذكر فيها زوجة أخيه ، فقال :

نزلت على رغم الزمان ولو حوت
يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع
وتعوضت عن عزها بتذلل(٢٤٤)

وأقامت الزلازل تتردد في البلاد سبع سنين ، وهلك فيها خلق كثير .

وفي هذه السنة أبطل الملك العادل نور الدين ، وهو بشيزر ، مظالم ومكوسا ببلاده كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثم إن نور الدين تلطف الحال مع ضحاك البقاعي ، وراسله ، وهو ببعلبك ، وكان قد عصى فيها بعد فتح دمشق ، ولم ير أن يحصره بها لقربه من الفرنج ، فسلمها إلى نور الدين في هذه السنة (٢٤٥) .

وجرت وقعة بين نور الدين وبين الفرنج بين طبرية وبانياس ، فكسرهم نور الدين كسرة عظيمة في جمادى الأولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة(٢٤٦) .

ثم عاد نور الدين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين ؛ مرضا شديدا ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدين أمير أميران محمد بن زنكي وأرجف بموت نور الدين ؛ فجمع أمير أميران الناس ، واستمال الحلبيين ، وملك

المدينة دون القلعة ، وأذن للشيعة أن يزيدوا في الأذان : « حي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر » ، على عادتهم من قبل ، فمالوا إليه لذلك .

وثارت فتنة بين السنة والشيعة ، ونهب الشيعة مدرسة ابن عصرون وغيرها من آدر السنة ، وكان أسد الدين شيركوه بحمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه ذلك ، وقال : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فان كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت ، وإن كان مات فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد » .

فعاد مجدا إلى حلب ، فوجد نور الدين وقد ترجح إلى الصلاح ، فأجلسه في طيارة مشرفة إلى المدينة ، بحيث يراه الناس كلهم ، وهو مصفر الوجه من المرض ، ونادوا إلى الناس : « هذا سلطانكم » . فقال بعضهم : « ما هذا نور الدين ، بل هو فلان » — يعنون رجلا كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك — .

ولما تحقق أمير أميران عافية أخيه خرج من الدار التي كان بها تحت القلعة ، وبيده ترس يحميه من النشاب ، وكان الناس قد تفرقوا عنه ، فسار إلى حران ، فملكها .

وسير نور الدين إلى قاضي حلب ، جدي أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة ، وكان يلي بها القضاء والخطابة والامامة ، وقال له : « تمضي إلى الجامع ، وتصلي بالناس ، ويعاد الاذان إلى ما كان عليه » .

فنزل جدي ، وجلس بشمالية الجامع تحت المنارة ، واستدعى المؤذنين ، وأمرهم بالأذان المشروع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا ، فقال لهم : « ها أنا أسفل منكم ولي أسوة بكم » .

فصعد المؤذنون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تحت المنارة من

عوام الشيعة وغوغائهم خلق كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : « يا أصحابنا ، وفقكم الله ، من كان على طهارة فليدخل وليصل ، ومن كان محدثا فليجدد وضوءه ويصلي ، فان المولى نور الدين – بحمد الله – في عافية ، وقد تقدم بما يفعل ، فانصرفوا راشدين .»

فانصرفوا وقالوا : « ايش نقول لقاضينا » ! ونزل المؤذنون وصلى بالناس ، وسكنت الفتن .

فلما عوفي نور الدين قصد حران ، فهرب نصرة الدين أمير أميران ، وترك أولاده بالقلعة بحران فتسلمها ، وأخرجهم منها ، وسلمها إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أخيه ، قطب الدين .

ثم سار إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار ، وقد مات أبوهم ، فشفع إليه بعض الأمراء في إبقائها عليهم ، فغضب ، وقال : « هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي » ، وأخذها منهم .

وخرج مجد الدين بن الداية من حلب إلى الغزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين ، فلقي جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذه أسيرا ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثم إن الفرنج أغاروا على بلد عين تاب ، فأخذوا التركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يريدون انطاكية ، فخرج إليهم مجد الدين ، ولقيهم بالجومة(٢٤٧) ، وكسرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وأسر البرنس الثاني وخلقا معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهل ذي الحجة من سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع ، ولى نور الدين كمال الدين أبا الفضل محمد بن الشهر زوري قضاء ممالكه كلها ؛ وأمر القضاة ببلاده أن يكتبوا في الكتب بالنيابة عنه ، وكان قد حلف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان

ذلك بدمشق في السنة المذكورة ، فامتنع زكي الدين قاضي دمشق ، فعزل ؛ وكتب إلى جدي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضا .

ووصل نور الدين ومعه مجد الدين بن الداية ، واستدعاه نور الدين إلى القلعة ، وقال :« كنا قد عاهدنا كمال الدين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنت إلا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير » فامتنع وقال : « لا أنوب عن مكانين » . فولى قضاء حلب محيي الدين أبا حامد بن كمال الدين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لقمان الكردي ؛ وذلك بإشارة مجد الدين لوحشة كانت بينه وبين جدي .

ثم إن نور الدين جمع العساكر بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنج جموعهم ، وساروا إليه . فطلب منهم المصاف فلم يجيبوه ، وتلطفوا معه حتى عاد إلى حلب .

ثم جمع العساكر في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ودخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصرا له ، وعازما على أن يقصد طرابلس .

فاجتمع الفرنج ، وخرج معهم الدوقس الرومي ، وكان قد خرج في جمع كثير من الروم ، واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا ، فإنهم يكونون آمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا ، وساروا مجدين إلى أن قربوا من يزك(٢٤٨) المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدين والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا جميعا إلى عسكر نور الدين ، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح ، حتى خالطهم الفرنج ، فقتلوا ، واسروا ، قتلا عظيما وأسرا كبيرا .

وكان الدوقس أشدهم على المسلمين ، فلم يبق أصحابه على أحد ، وقصدوا خيمة نور الدين ، وقد ركب فيها فرسة ، فنجا بنفسه ؛ ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله ، فنزل انسان

كردي ، وفداه بنفسه ، فقطع الشبحة ونجا نور الدين ، وقتل الكردي ، فأحسن إلى مخلفيه ، ووقف عليهم الوقوف(٢٤٩) .

ووصل نور الدين إلى بحيرة قدس(٢٥٠) ، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به من سلم من العسكر ، فقال له بعضهم : « المصلحة أن نسير ، ، فان الفرنج ربما طمعوا وجاؤوا إلينا ، ونحن على هذه الحال » ؛ فوبخه وأسكته ، وقال :« إذا كان معي ألف فارس التقيتهم ، ووالله لاأستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الاسلام » .

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوضا عما أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكره كأن لم يهزم ولم ينكب ، وكل من قتل أعطى أولاده أقطاعه .

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعض صحابة السوء : « إن لك في بلادك إدرارات وصلات ووقوفا كثيرة على الفقهاء والفقراء ، والقراء ، والصوفية وغيرهم ؛ فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح » ، فغضب من ذلك وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لاتخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ! »وقيل : إن برهان الدين البلخي قال لنور الدين : « أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ، كلا والله .»

فلما سمع نور الدين كلامه عاهد الله على التوبة ، ونزع عنه ثيابه تلك التي كان يلبسها ، والتزم بلبس الخشن ؛ وبطل جميع ما كان بقي في بلاده من الاعشار والمكوس والضرائب ؛ ومنع من ارتكاب الفواحش ، وكتب إلى البلاد إلى زهادها وعبادها يذكر لهم ما نال

المسلمين من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، وان يحثوا المسلمين على الغزاة ؛ وكاتب الملوك الاسلامية يطلب منهم النجد والاستعداد ، وامتنع من النوم على الوطيء وعن جميع الشهوات .

وراسله الفرنج في طلب الصلح فامتنع ، فبينا هو في الاستعداد للجهاد إذ ورد عليه في شهر ربيع الأول ، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور وزير العاضد بمصر إلى دمشق ، ملتجئا إليه ، ومستجيرا به على ضرغام ، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها .

وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون نائبه مقيما بعساكره في مصر ، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره ، فبقي مترددا بين أن يفعل ذلك وبين أن يجعل جل قصده إلى الفرنج ، ثم قوي عزمه وسير أسد الدين شيركوه بن شادي ، في عسكر معه ، في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وتقدم إلى أسد الدين أن يعيد شاور إلى منصبه .

وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج ممايلي دمشق ، بما بقي من العساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين وشاور في طريقهما ، فاشتغل الفرنج بحفظ بلادهم من نور الدين عن التعرض لهما ، ووصل أسد الدين وشاور إلى بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ، ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جمادى الآخرة ، فخرج ضرغام فقتل ، وقتل أخوه ، وخلع على شاور وأعيد إلى الوزارة .

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، فغدر شاور ، وعاد عما كان قرره مع نور الدين ، وأمر أسد الدين بالعود إلى الشام فامتنع ،

وطلب ما كان استقر فلم يجبه إليه ، فأرسل أسد الدين نوابه فتسلموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجد بهم ، وخوفهم من نور الدين إن ملك مصر ، فسارعوا إلى تلبيته ، وطمعوا في ملك الديار المصرية ، وساروا إلى بلبيس ، وسار نور الدين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم من يحفظها .

وسار ملك القدس في الباقين إلى بلبيس ، واستعان بجمع كثير كانوا خرجوا إلى زيارة القدس ؛ وأقام أسد الدين ببلبيس ، وحصره الفرنج ، والعسكر المصري ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم ، فلم يظفروا منه بطائل ، مع أن سور بلبيس قصير ، وهو من طين(٢٥١) .

فعند ذلك خرج نور الدين لقصد بلاد الفرنج ، الى حلب وجمع العساكر ، وارسل الى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ، وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وإلى نجم الدين ألبي صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف واستنجد بهم .

فسار قطب الدين ومقدم عسكره زين الدين علي كوجك ، وسير صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحب الحصن فقال له خواصه وندماؤه : « على أي شيء عزمت ؟» فقال : « على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك » .

فلما جاء الغد أمر العسكر أن يتجهز للغزاة فسألوه عما صدفه عن رأيه ، فقال : « إن نور الدين إن لم أنجده خرجت بلادي عن يدي ، فانه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل واحد منهم ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ،

ويبكون ،فأخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء علي » . ثم تجهز وسار بنفسه .

ولما اجتمعت العساكر خرج نور الدين الى حارم ، وحصرها ، ونصب المجانيق عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس بيمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدم كبير من الروم .

وابن لاون ملك الأرمن ، وجمعوا جميع من بقي من الفرنج بالساحل ، وقصدوا نور الدين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكن منهم إن طلبوه « ويبتعدوا » عن البلاد إن لقوه ؛ وسير أثقاله إلى تيزين(٢٥٢) ، فساروا فنزلوا على الصفيف(٢٥٣) ، ثم عادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون حتى وصلوا إلى جدارهم ؛ ونور الدين واقف بازائهم على تل هناك يتضرع إلى الله ، وهو مكشوف الرأس .

وبقي راجل الفرنج فوق عم ، مما يلي حارم بالصفيف ، فعطف عليهم زين الدين علي كوجك ، في عسكر الموصل ؛ وكان نور الدين قد جعله كمينا في طرف العمق ، وآجام القصب ؛ فقتلهم عن آخرهم .

ورجعت الخيالة من الفرنج خوفا على الراجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمر على ما قدروه ، فرأوا الرجالة منهم قتلى وأسرى ، واتبعهم نور الدين مع من إنهزم من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتد الحرب ، وكثر القتل في الفرنج ، فوقعت عليهم الغلبة .

وعدل المسلمون إلى الأسر ، فأسروا صاحب أنطاكية ، وصاحب

طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، ولم يسلم إلا مليح ابـن لاون ؛ قيل إن الياروقية أفـرجوا له حتـى هـرب ، لأنه كان خالهم ، وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السنة ، وبث سراياه في أعمال أنطاكية ، فنهبوها وأسروا أهلها ، وباع البـرنس بمـال عظيم وأسرى من المسلمين(٢٥٤) .

ثم سار في هذه السنة إلى دمشق ، بعد أن أذن لعسـكر الموصـل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، ثم خـرج إلى بـانياس ، فحصرهـا وقاتلها ، وكان معه أخوه نصرة الدين أمير أميران - وكان قد رضي عنه وسامحه - وهو على حارم ، بعد أن دخل إلى الفرنج ، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فقال له : « لو كشف لك عن الأجـر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى » ، وجد في حصارها وفتحها ، وملأ القلعة بالذخائر والرجال ، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على ما سوى ذلك مالا في كل سنة .

ووصل خبر فتـح حـارم وبـانياس إلى الفـرنج النازلين على بلبيس ، فأرادوا العود إلى بلادهم ، فراسلوا أسد الدين في الصـلح رجاء أن يلحقوا بانياس ، فاتفق الحـال معهـم على أن يعـود إلى الشام ، ويسلم ما بيده من أعمال مصر إلى أهلهـا ، ولم يكن عنده علم بما جرى لنور الدين بـالشام ، وكانت الذخـائر قـد قلت عنده ببلبيس .

وخرج من الديار المصرية إلى الشـام ، وجـاء الفـرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمر قـد فـات ، وكشـف أسـد الدين الديار المصرية ، واستصغر أمر من بها .

ودخلت سنة إحدى وستين وخمسـمائة ، فسـار نور الدين إلى المنيطرة(٢٥٥) ، جـريدة في قلة مـن العسـكر ، على غفلة مـن الفرنج ، وحصر حصنها ، وأخذه عنوة ، وقتل من به ، وسبى وغنم

غنيمة كثيرة ، وأيس الفرنج من استرجاعه بعد أن تجمعوا له وتفرقوا .

وتحدث أسد الدين مع نور الدين ، في عوده إلى الديار المصرية ، فلما رأى جده سيره إليها في ألفي فارس من خيار العسكر ، في سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

فسار على البر ، وترك بلاد الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصرية ، وعبر النيل إلى الجانب الغربي عند أطفيح(٢٥٦) ، وحكم على البلاد الغربية ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، فأقام نيفا وخمسين يوما .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسد الدين إلى الصعيد ، وبلغ إلى موضع يعرف بالبابين(٢٥٧) ؛ وسارت العساكر المصرية والفرنجية خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثر بها ؛ وجعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب ، وأوصاهم متى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلا ، فإذا عادوا فارجعوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنج على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسد الدين بمن معه على من بقي منهم ، فهزمهم ووضع السيف فيهم ، وأكثر القتل والأسر ، وعاد الذين حملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مضوا قتلا وأسرا فانهزموا .

وسار أسد الدين إلى الاسكندرية ، ففتحها باتفاق من أهلها واستناب بها صلاح الدين ، وعاد إلى الصعيد ، وجبى أمواله .

وتجمع الفرنج والمصريون ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسد الدين ، فوقع الصلح على أن بذلوا لأسد الدين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن

الفرنج لايقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشام ؛ وتسلم المصريون الاسكندرية(٢٥٨) .

وأما نور الدين فإنه جمع العساكر في هذه السنة ، ودخل من حمص إلى بلاد الفرنج ، فنازل عرقة ، ونهب بلدها ، وخرب بلادهم ، وفتح صافيتا والعريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى بانياس ، وخرج إلى هونين(٢٥٩) ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فخرب سوره وعاد .

وكان حسان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نور الدين منبج ولده غازي بن حسان ، فعصى عليه في هذه السنة ، فسير إليه عسكرا ، وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وهو الذي ابتنى المدرسة الحنفية بمنبج .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، نزل شهاب الدين مالك بن علي بن مالك صاحب قلعة جعبر ليتصيد ، فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في الاقطاع فلم يجبه ، فعدل إلى الشدة والعنف .

ثم سير إليها عسكرا فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللين مع صاحبها ، إلى أن اتفق الحال على أن عوضه عنها بسروج وبزاعا والملوحة(٢٦٠) ، وسلم إليه القلعة في سنة أربع وستين ، وقيل لمالك : « أيما أحب إليك سروج أو القلعة ؟» فقال : « هذه أكثر مالا ، وأما العز ففارقناه بالقلعة » .

وفي هذه السنة أطلق نور الدين في بلاده بعض ما كان قد بقي من المظالم والمؤن .

ثم إن الفرنج طمعوا في الديار المصرية فصعدوا إليها في سنة أربع وستين وخمسمائة ، وأخذوا بلبيس وساروا إلى القاهرة فقاتلوها ؛ وسير العاضد يستغيث إلى نور الدين ، وسير شعور نسائه في

الكتب ، فوصله الرسول وهو بحلب ، وبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم .

وكتبوا إلى أسد الدين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص ، وقد عزم على الايفاد إليه ، فأمره بالتجهيز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح والدواب ، وحكمه في العسكر والخزائن فاختار ألفي فارس ، وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء (٢٦١) .

وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الامراء منهم : عز الدين جورديك ، وغرس الدين قلج ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة بن ياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان ، وصلاح الدين ابن أخيه .

وسار أسد الدين ، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، ودخل إليها واجتمع بالعاضد ، وخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وفي نفس شاور منه ما فيها ، ولايتجاسر على إظهاره .

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به ، فخرج في بعض الأيام على عادته فلم يجده في الخيام ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي - رضي الله عنه - فلقيه صلاح الدين ، وجورديك ، في جمع من العسكر وخدموه ، وأعلموه أن أسد الدين قد مضى للزيارة فقال : « نمضي إليه » فساروا جميعا ، فساوره صلاح الدين وجورديك ، وألقياه إلى الأرض ، فهرب عنه أصحابه وأخذ أسيرا .

وأرسلوا إلى أسد الدين فحضر في الحال ، وجاءه التوقيع في الحال بالوزارة على يد خادم خاص ، ويقول : « لابد من رأسه » ، جريا على عادتهم في وزرائهم أن الذي يقوى على الآخر يقتله ، فقتل وأنفذ رأسه إلى العاضد (٢٦٢) .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعه الوزارة ، فسار ودخل القصر ، وترتب وزيرا في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام آمرا ناهيا إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة(۲٦۳) .

وفوض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الأمراء ، الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عين الدولة بن ياروق ، وسيف الدولة المشطوب ، وشهاب الدين محمود الحارمي - خال السلطان صلاح الدين - وقطب الدين ينال بن حسان .

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، وأحضره عنده ، وولاه الوزارة بعد عمه ، وخلع عليه ، ولقبه بالملك الناصر ، فاستتبت أحواله ، وبذل المال ، وتاب عن شرب الخمر ، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فميل الامراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سوى عين الدولة بن ياروق ، فإنه امتنع ، وعاد إلى نور الدين إلى الشام .

فاستمر الملك الناصر بالديار المصرية وزيرا ، وهو نائب عن نور الدين ، وكان إذا كتب إليه كتابا يكتب : « الأمير الاسفهسلار ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ويذكر اسمه .

وسير الملك الناصر ، وطلب أباه نجم الدين وأهله ، فسيرهم نور الدين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التجار خلق عظيم ، وذلك في سنة خمس وستين .

وخاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمع الفرنج ، وساروا إليه وتقدمهم ابن الهنفري ، وابن الدقيق(٢٦٤) ، فرحل نور الدين

نحوهما قبل أن تلحقهما بقية عساكر الفرنج فرجعا خوفا منه واجتمعا ببقية الفرنج .

وسلك نور الدين وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عشترا(٢٦٥) على عزم الغزاة ، فأتاه خبر الزلازل الحادثة بالشام ، فإنها خربت حلب خرابا شنيعا ، وخرج أهلها إلى ظاهرها .

وتواترت الزلازل بها أياما متعددة ، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وهلك من الناس ما يزيد على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قد احترق جامع حلب وما يجاوره من الأسواق، قبل ذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة ، فاهتم نور الدين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليه إلى ما كانت عليه ، وقيل : إن الاسماعيلية أحرقوه .

وبلغه أيضا وفاة مجد الدين ابن دايته ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ، فتوجه نور الدين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها قد تهدمت .

ونزل على ظاهر حلب حتى أحكم عمارة جميع أسوارها ، وبنى الفصيل الدائر على البلد ، وهو سور ثان .

ورمم نوابه ما خرب من الحصون والقلاع مثل بعلبك ، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وخرج نور الدين إلى تل باشر ، فوصله الخبر بوفاة أخيه قطب الدين بالموصل في ذي الحجة ، وكان أوصى بالملك لابنه الاكبر عماد الدين زنكي ، وكان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ، ولأنه زوج ابنته .

ثم إن فخر الدين عبد المسيح وخاتون ابنة تمرتاش بن إيلغازي

زوجة قطب الدين ، وهي والدة سيف الدين غازي بن قطب الدين اتفقا على صرف قطب الدين عن وصيته لابنه عماد الدين إلى سيف الدين غازي .

فرحل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على أخذ الملك له ؛ فسار نور الدين في سنة ست وستين وخمسمائة ، وعبر الفرات عند قلعة جعبر في مستهل المحرم ، وقصد الرقة فحصرها وأخذها ؛ ثم سار في الخابور ، فملكه جميعه ، وملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر ، وكانت أكثر عساكره في الشام في مقابلة الفرنج .

فلما إجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وفتحها فسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطاعة ، ويحثونه على الوصول إليهم ، فسار إلى الموصل .

وكان سيف الدين غازي وعبد المسيح قد سيرا عز الدين مسعود ابن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب أذربيجان وأصبهان ، يستنجدانه على نور الدين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولا ينهاه عن التعرض للموصل فقال نور الدين : « قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك ، فلا تدخل بيننا ؛ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون لي معك الحديث على باب همذان ، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ؛ وقد بليت أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت ملوكهم » .

وأقام على الموصل فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم بذلك فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد على أن يقره بيد سيف الدين ؛ وطلب

الامان لنفسه وعلى أن يمضي صحبته إلى الشام ، ويقطعه ما يرضيه فتسلم البلد ، وأبقى فيه سيف الدين غازي .
وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السنة .

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية العباسية ، فامتنع واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، وكان يؤثر أن لايقطع الخطبة للمصريين في ذلك الوقت ، خوفا من نور الدين أن يدخل إلى الديار المصرية فيأخذها منه ، وإذا كان العاضد معه امتنع وأهل مصر معه ، فلم يقبل عذره نور الدين ، وألح عليه .

وكان العاضد مريضا فخطب للمستضيء في الديار المصرية ، وتوفي العاضد ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، وقيل : إنه علم قبل موته ؛ وكان ذلك في سنة سبع وستين وخمسمائة.

وفي هذه السنة تتبع نور الدين رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد التي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المذكرات والفواحش ، بعدما كان أطلق من ذلك في تواريخ متقدمة ، وكان مبلغ ما أطلقه أولا وثانيا خمسمائة ألف وستة وثمانين ألفا وأربعمائة وستين دينارا .

وكان رأى وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني في المنام كأنه يغسل ثياب نور الدين ، ففسر ذلك عليه ، ففكر في ذلك ولم يرد عليه جوابا ، فخجل وزيره وبقي أياما واستدعاه ، وقال : « تعال ياخالد ، اغسل ثيابي » ؛ وأمره فكتب توقيعا بازالة ما ذكرناه .

وسار الملك الناصر من مصر غازيا ، فنازل حصن الشوبك وحصره ، فطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام ، فلما سمع نور الدين بذلك سار عن دمشق ، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى ، فقيل للملك الناصر : « إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب ملك بلاد الفرنج ، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام ، وأن

جاء وانت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك بما شاء ؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر » .

فرحل عن الشوبك إلى مصر ، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الوثوب بها ، فلم يقبل نور الدين عذره ، وتغير عليه وعزم على الدخول إلى الديار المصرية .

فسمع الملك الناصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهاب الدين ، وتقي الدين عمر ، وغيرهم من الامراء ، وأعلمهم ما بلغه من حركة نور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحد ، فقام تقي الدين ، وقال : « إذا جاءنا قاتلناه » ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين أيوب والد الملك الناصر ، وأقعد تقي الدين ، وقال للملك الناصر : « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى ؛ ووالله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ، وكل من نراه عندك ، فهو كذلك ، وهذه البلاد لنور الدين ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فان أراد عزلك سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب وتقول له : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد ، ولاحاجة إلى ذلك بل يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلا ، ويأخذني إليك » . وتفرقوا .

فلما خلا نجم الدين أيوب بالملك الناصر قال له : « كيف فعلت مثل هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه ، وحينئذ لانقوى به ، وأما إذا بلغه طاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا ؛ والاقدار بيد الله ؛ ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته عليها حتى أمنعه أو أقتل » ، ففعل ما أشار به عليه والده ، فترك نور الدين قصده ، واشتغل بغيره .

وخرج نور الدين بالعساكر ، ففتح حصـن عرقـة ، وصـافيتا ، وعريمة(٢٦٧) ، ونهب وخرب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

ثم إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستين الغارة ، فسار نور الدين إليهم ، فنزل عشترا ، وسير عسـكره إلى أعمـال طبرية ، فغنموا غنائم عظيمة ، وعادوا .

وكان نور الدين قد استخدم مليح بن لاون ، ملك الارمن ، واقطعه أقطاعا من بلاد الاسلام ، وحضر معه حروبا متعددة فأنجده في هذه السنة بطائفة مـن عسـكره ، فـدخل مليح إلى أذنة وطــرسوس والمصيصة ، وفتحها من يد ملك الروم ، وأرسل إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم وثلاثين أسيرا من أعيانهم(٢٦٨) .

وقصد قلج أرسـلان ذا النون بـن الدانشـمند صـاحب ملطية وسيواس(٢٦٩) ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريدا ، فـاستجار بنور الدين ، ووصل إليه فأكرمه ، وسير إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه ، فلم يفعل ؛ فسار نور الدين إليه في هذه السـنة فـابتدأ بـكيسوم(٢٧٠) ، وبهسـنى (٢٧١) ، ومـرعش ، ومرزبان (٢٧٢) ، ومـايليها ، وكان ملكه مـرعش ، في أوائل ذي القعدة ، والباقي بعدها .

وسير طائفة من عسكره إلى سيواس ، فملكهـا ؛ وراسـله قلج أرسلان في الصلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجـه فصـالحه ، وأعطى سيواس ذا النون ، وجعل معه قطعة مـن عسـكره ؛ وشرط على قلج أرسلان إنجاده بعساكره إلى الغزاة .

واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل واحد منهما مـن جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتفقا على قتـال الفـرنج ، وأيهما سبق أقام للآخر منتظرا ، إلى أن يقدم عليه ، فسبق صـلاح الدين ووصل إلى الكرك وحصره .

وسار نور الدين فوصل إلى الرقيم(٢٧٣) - وبينه وبين الكرك مرحلتان - فخاف صلاح الدين ، واتفق رأيه ورأي أهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرا على أخذ مصر منه .

فعاد إلى مصر ، وأرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر ، وأنه بلغه أنه مريض ، ويخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم ، ولم يكن مريضا ، وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين ، فعظم ذلك عليه ولم يظهر التأثر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهم عندنا » .

واتفق أن صلاح الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سقط عن الفرس ، وبقي أياما ومات ، وهو غائب عنه ، في السابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وخاف صلاح الدين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكة أخرى لتكون عدة له بحيث أن نور الدين إن غلبه إلى الديار المصرية سار هو وأهله إليها وأقاموا بها .

فسير أخاه الأكبر تورانشاه بإذن نور الدين له في ذلك ، وسيره قاصدا عبد النبي بن مهدي ، وكان دعا إلى نفسه ، وقطع خطبة بني العباس ، فمضى إليها ، وفتح زبيد وعدن ومعظم بلاد اليمن(٢٧٤) .

وصلاح الدين على ما كان عليه من الطاعة في الظاهر لنور الدين إلى أن اتفق أن مرض نور الدين بعلة الخوانيق بدمشق ، وتوفي بها يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وكان قد شرع في التأهب للدخول إلى الديار المصرية وختن ولده الملك

الصالح اسماعيل بدمشق ، في خامس شوال ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للأيتام الذين ختنهم معه .

واتسع ملكه بحيث خطب له بالحرمين الشريفين وبلاد اليمن التي افتتحها شمس الملوك ، وانعمر بلد حلب في زمـانه لعـدله وحسـن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيهـا سـكان ولهـا مغل .

وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثـر مـن المدينة ، مثل الحاضر السليماني ، وخـارج بـاب الاربعين ، وغير ذلك مـن الأبواب جميعها .

وارتفعت الأسعار مع كثرة المغلات لكثـرة العـالم ، حتـى كانت الأسعار في السنة التي مات فيها بعد ذلك الرخص في السـنة التـي مات فيها والده : الحنطة مكوك ونصف بدينار ، والشعير مـكوكان ونصف بدينار ، والعدس مكوك ومصع بـدينار ، والجلبـان كذلك ، والقطن ستة أرطال جوز بدينار .
والله تعالى يرحمه

وقام الملك الصالح بالملك بعـده(٢٧٥) ، وكان عمـره إحـدى عشرة سنة ، وحلف له الامـراء بـدمشق . وخـطب له الملك الناصر صلاح الدين بمصر ، وأرسل إليه رسولا يعزيه ، ومعه دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعلمه أنه في طاعته ، وأن الخطبة أقيمت له بمصر .

وأما حلب فـكان الوالي بقلعتهـا جمـال الدين شـاذبخت (٢٧٦)ـ الخـادم الهندي ، عتيق نور الدين ـ وهـو الذي بني المدرسة لأصحاب أبي حنيفة بحلب ، وقبر بهـا ـ، فـوصله كتـاب الطير بوفاة نور الدين ؛ فأمر في الحال بضرب الدبـادب(٢٧٧) ، والكوسـات ، والبـوقات ؛ وأحضر المقـدمين والأعيان بحلب ، والفقهاء والأمراء ، وقال :

« قد وصل كتاب الطائر ، يخبر أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ؛ وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه » .

فأظهروا السرور بذلك ، وحمدوا الله تعالى ، فقال لهم : « تحلفون لولده الملك الصالح ، كما أمر الملك العادل بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم ، كما كانت لأبيه » . فحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يترك أحدا منهم يزول من مكانه .

ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبس ثياب الحداد ، وخرج إليهم وقال : « يحسن الله عزاءكم في الملك العادل ، فان الله قد نقله إلى جنات النعيم » .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين الى حلب ، لاثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم الملك الصالح .

وكان وزير الملك العادل نور الدين : موفق الدين خالد بن محمد ابن نصر بن القيسراني ، رسولا عنه بمصر .

فاتفق رأي الجماعة على أن ولوا وزارة الملك الصالح : شهاب الدين أبا صالح عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي ، وكان عدلا على خزائن نور الدين .

وكان شمس الدين علي(٢٧٨) ، ابن داية نور الدين ، أخو مجد الدين لأمه ، من أكبر الأمراء النورية ، وأمر حلب راجع إليه وإلى إخوته في أيام نور الدين ، وكان بحلب عند موت نور الدين ، وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن أخواه ؛ فتولى شمس الدين علي تدبير حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشحنكية بالمدينة .

وكان نور الدين قد سير إلى الموصل وغيرها من البلاد يستدعي العساكر ، بحجة الغزاة ؛ ومقصوده الطلوع إلى مصر ، فسار سيف

الدين غازي بعسكر الموصل ، وعلى مقدمته سعد الدين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نور الدين واليا من قبله بالموصل ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الأخبار بموت نور الدين هرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب جريدة .

وأما سيف الدين فإنه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعة جعبر ؛ فأرسل شمس الدين علي بن الداية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدين ابن عمه من البلاد الجزرية ، فلم يمكنه الأمراء الذين معه بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفا أن يغلبهم عليه شمس الدين علي .

وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم قد صار متولي تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهر زوري وجماعة من الأمراء معه ، وكان قد أشار كمال الدين على الأمراء بمشاورة الملك الناصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجة عليهم ، فخافوا منه ولم يفعلوا .

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالا ، وخوفهم بالاستنجاد بصلاح الدين وسيف الدين ، فعادوا . وبلغ ذلك كله الملك الناصر صلاح الدين ؛ فأرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدد من سيف الدين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفه ، وأنكر صلح الفرنج ، وبذل المال لهم ، وبذل من نفسه قصد الفرنج ، وكفهم عن التطاول إلى شيء من بلاد الملك الصالح .

وكتب إلى كمال الدين وابن المقدم ، والأمراء ، وقال : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي ، أو يثق به مثلي لسلم إليه مصر ، ولو لم يعجل عليه الموت لعهد إلي بتربية ولده ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأكافي إنعام أبيه ، وأجازي كلا منكم على فعله . » .

وكثر خوف شمس الدين علي بن الداية من سيف الدين غازي ، وأن يعبر الفرات إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصالح ، فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين بن المقدم عسكرا ، فنهبوه ؛ وعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين علي بن الداية ، عوضا عما أخذ منه .

ثم إن الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصالح إلى ابن الداية بحلب ، لأنها أم البلاد ، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعد الدين كمشتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدين علي أتابكا للملك الصالح ، وحلف شمس الدين وجمال الدين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدين عثمان إلى دمشق .

وسار الملك الصالح وأمه مع سعد الدين كمشتكين والأمراء الذين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وصل من جمال الدين شاذبخت من خوف الأمراء من بني الداية ، فقبضوا « سابق الدين عثمان » ، بقنسرين ؛ وكتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدر الدين حسن ، فقبضوه ، ودخلوا من « باب الميدان » وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا إليه ؛ وبادروا بالملك الصالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان « بشمس الدين علي » نقرس ، فحمل في محفه ، وحضر بين يدي الملك الصالح ، فزندوا يديه ، وقيدوا أخويه ، وجعلوا الجميع في المطمورة (٢٧٩) ، بالمركز .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدم جماعة من الأجناد ، فصار في مقدار خمسمائة راجل ، و « شمس الدين » في مقدار مائة ، وأمر اسباسلار (٢٨٠)باب القلعة أبا بكر بن مقبل : أن يمنع من يصعد إلى القلعة من أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدين وبدر الدين ، فكانا يصعدان ، ومع كل واحد

منهما غلام واحد ؛ ووكل بباب شمس الدين ثلاثين رجلا كل ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : « أنا أبعث الرجال إليك ، ليقوموا في الخدمة » ، وكان يوكل بالاجناد الذين خالفوه حفظة يمنعون من يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصالح .

وأما حال المدينة فان السنة من أهل البلد مالوا إلى « المجدية » ، لتعصبهم للسنة على الشيعة ، وجمعهم بدر الدين حسن شحنة حلب ، واستحلفهم في الليل ، وكان فيهم بنو العجمي ، والشيخ أبو يعلى بن أمين الدولة ، وبنو قاضي بالس - على ما ذكر - وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشاب وبني الطرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشيعة ، يتوالون أبا الفضل بن الخشاب ، ويقدمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للملك الصالح ، وعلى مخالفة بني الداية ، فسير بدر الدين حسن إلى ابن الخشاب ، وقال له : « إن جماعة عندي قذفوك ، وتحدثوا بأنك تطعن في الدولة ، وأنك تريد أن تملك حلب » .

وكان بدر الدين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السنة والشيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاء من الشيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي بالقرب من الزجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدولة ، بالجرن الاصفر (٢٨١) . وكان فيها أموال الأيتام ، وانتقل ابن العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من « مسجد السيدة » (٢٨٢) .

وقتل في ذلك اليوم في « مدرسة الزجاجين » الشيخ أبو العباس المغربي ، وكان مقرئا محدثا .

وثارت الفتنة بين الطائفتين ؛ وطلب الفقراء دور الاغنياء فنهبت دار أبي جعفر بن المنذر بالعقبة (٢٨٣) ، فجمع بدر الدين حسن

جماعة من الاجناد ومن أهل البلد السنة ومن العسكر ، والبسهم السلاح ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : « إن أبا الفضل بن الخشاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعض السنة ، فتعينني بذقابين وزراقين حتى أقبض عليه ، وأعتقله ، إلى أن يحضر الملك الصالح » .

فأمر الاجناد بلبس السلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى « تل فيروز »(٢٨٤) - وهو موضع سوق الصاغة الآن - وكان إذ ذاك تلا .

وأخذوا الفلايج والأبواب ، وسدوا الدروب ، وزحفوا من الطرق والأسطحة ، إلى دار ابن الخشاب ، ووقع قتال شديد ، وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدار ، فأحرقها ونهبها ، ونهب آدر جماعة من المجاورين له .

وانهزم القاضي أبو الفضل ، واختفى في دار فخرا وابن كياعميد بالقرب من حمام شراحيل (٢٨٥) ، فأقام بها إلى أن وصل الملك الصالح في المحرم ، من سنة سبعين وخمسمائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الداية - كما ذكرنا - وصار الأمر والتدبير إلى سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو الذي بني الخانكاه (٢٨٦) المنسوبة إليه بحلب ، في جوارنا ، وهي كانت دار « أبي الطيب المتنبي » ، بحلب .

وكان شمس الدين علي قد عزم على أن الملك الصالح إذا قدم أخذه بمفرده ، وصعد به إلى القلعة ، ولايمكن أحدا من الأمراء من الصعود ، ويطردهم ، ويستقل بالأمور .

فسير « شاذبخت » من أسر ذلك إلى الأمراء الذين كانوا في صحبة « الملك الصالح » ، فاتفق رأيهم في قنسرين على قبض أولاد الداية ، وتحالفوا على أن قدموا كمشتكين ، فلما رحلوا من قنسرين ، بدأوا بسابق الدين ، وكان قد وجه إلى دمشق في تقرير

الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطريق لئلا يصل إلى حلب من يخبر أخويه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة - كما ذكرنا - .

وأما أبو الفضل بن الخشاب ، فان « الملك الصالح » أمنه ، وسير له خاتما ، وركب إلى القلعة ، ومعه خلق كثير من أهل حلب ، وعوامها ، يمشون في خدمته ، وأكد أمره ، وقرر على أن يقتل ، فلما دخل إلى القلعة ، ووصل قدام الفرن بالقلعة ، ضربه علي أخو عز الدين جورديك فرماه . وجاء بعض أجناد القلعة فاحتز رأسه ، وجعلوه على باب القلعة .

ثم رفع على رمح إلى برج بالقلعة ، يقال له « برج الزيت » ؛ وتفرق أصحابه من تحت القلعة ، عند ذلك .

واستولى على دولة «الملك الصالح» أمير لالا المجاهد ياقوت وهو الحاكم عليه ، وهو الذي رباه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدم العساكر ومتولي اقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ، فخاف ، وولوا رئاسة حلب الريس صفي الدين طارق بن الطريرة ، وعزلوا ابا محمد الحكم ، وكان يتولى الرئاسة في ايام نور الدين .

فخاف ابن المقدم والأمراء ، الذين بدمشق ، أن يستقر أمر كمشتكين بحلب ، فيأخذ الملك الصالح ، ويسير الى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد الداية ، فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ، ليصل اليهم ، ويسلموا اليه دمشق ، فخاف ان تكون مكيدة منهم ، فامتنع من ذلك ، وراسل سعد الدين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وابقائها في يده .

فخاف الأمراء ، بدمشق من اتفاق « سيف الدولة » «الملك الصالح» عليهم ، فكاتبوا «الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب» ، واستدعوه من مصر ليملكوه عليهم ، فسار من مصر في

سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهـم ، فخـرج اليه صاحب بصرى - وكان ممن كاتبه .

ولما وصل الى دمشق خرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه ودخـل البلد ، ونزل في دار ابيه المعـروفة بدار «العقيقـي» (٢٨٧) ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» ، فأعلمه أنه انما جاء في خدمة «الملك الصالح» ، فسلم اليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» اليها ، وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستعان به ، وتـزوج «خاتون بنت معين الدين» ، وكانت زوجة «نور الدين» ، واسـتخلف اخاه طغتكين سيف الاسلام .

وسار الى حمص وحماه ، وهما في اقطاع «فخر الدين مسـعود بـن الزعفراني» . وكان ظالما ، فسار منها بعـد مـوت «نور الدين» فملك «الملك الناصر» في حـادي عشر جمـادى الأولى ، مـن سـنة سبعين ، مدينة حمص. وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القـلاع مـن جهة نور الدين ، فترك في البلد من يحفظه ، ويمنع من في القلعة مـن النزول .

وسار الى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخـرة ، وكان بالقلعة عز الدين جورديك ، فأرسل اليه ، وقـال له: «اني في طـاعة الملك الصـالح ، والخـطبة له في البـلاد التـي في يدي على حالها ، والمقصود اتفاق الكلمـة على طـاعة الملك الصـالح ، وأن نستعيد البلاد الجزرية ونحفظ بـلاده » فـاستحلفه جـورديك على ذلك ، وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة ، وفي اطلاق شـمس الدين علي وأخويه من السجن ، وكان اقطاعهم قد قبض من ذوابهـم ولم يبق في ايديهم غير شيزر ، «وقلعة جعبر» .

واستخلف جورديك بقلعة «حماة» أخاه ليحفظها ، فلمـا وصـل جورديك قبض عليه كمشتكين ، وسجنه ، فعلم اخوه بذلك ، فسـلم قلعة حماة الى الملك الناصر .

وسار الملك الناصر الى حلب ، فوصلها في ثالث جمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها فركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب ، وقال لهم: «أنا يتيمكم ، وقد عرفتم احسان أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظالم ينتزع ملكي» ، وقال أقوالا كثيرة ، وبكى فأبكى الناس وبذلوا انفسهم وأموالهم له ، واتفقوا على القتال دونه ، والذب عنه .

فجعل الحلبيون يخرجون ويقاتلون الملك الناصر عند «جبل جوشن» فلا يقدر ان يتقرب الى البلد ، وأرسل سعد الدين كمشتكين الى «سنان» مقدم الاسماعيلية ، وبذل له اموالا كثيرة ليقتل الملك الناصر ، فقفزوا عليه ، فحماه الله منهم وقتلوا(٢٨٨).

وبقي محاصرا حلب الى سلخ جمادى الآخرة ، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده ، وكان « ريمند » صاحب طرابلس الذي أسره نور الدين ، قد اطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين الفا صورية ، في هذه السنة ، وصار موضع «مري» ملك الفرنج (٢٨٩) ، فأرسل من بحلب اليه يطلبون منه ان يقصد بعض البلاد التي بيد الملك الناصر ، ليرحل عنهم ، فسار الى حمص نازلها ، فرحل الملك الناصر عن حلب ، مستهل شهر رجب . فلما نزل «الرستن» رحل الفرنج عن حمص ، ووصل الملك الناصر اليها ، وحصر قلعتها الى ان تسلمها .

وسار الى بعلبك ، فتسلمها وقلعتها ، في رابع شهر رمضان ، من سنة سبعين وخمسمائة .

وأما سيف الدين غازي فانه جمع عساكره ، وكاتب اخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، لينزل اليه بعساكره ليجتمعا على نصرة الملك الصالح ، فامتنع ، وكان الملك الناصر قد كاتبه ، وأطمعه في ملك الموصل ، لأنه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيف الدين الى «سنجار» محاصرا لها ، وسير عسكرا كثيرا الى حلب مع أخيه عز الدين مسعود ، مع أكبر أمرائه « زلفندار » ،

فوصل عز الدين الى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا الى حماة ، فقاتلوها .

فأرسل الملك الناصر ، وبذل لهم تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبا عن الملك الصالح ، فلم يجيبوه الى ذلك ، وقالوا : «لابد من تسليم جميع ما اخذه من الشام ، وعوده الى مصر ».

فسار الملك الناصر الى عز الدين ، وزلفندار ، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان ، على قرون حماة (٢٩٠) ، فانهزم عسكر الموصل ، وثبت عز الدين بعد الهزيمة ، فقال الملك الناصر: «اما ان يكون هذا أشجع الناس ، أو أنه لا يعرف الحرب». وأمر اصحابه فحملوا فحملوا عليه حتى ازالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة وتبعهم الملك الناصر ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة فأطلقهم .

ونزل الملك الناصر على حلب ، محاصرا لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح ، على ان يكون له مابيده من بلاد الشام ، ولهم مابأيديهم ، وأخذ المعرة ، وكفرطاب ، وانتظم الحال بينهم على ذلك .

ورحل عن حلب ، في العشر الاول من شوال ، الى حماة ، فوصلته خلع الخليفة بها مع رسوله ، ووصل خبر الكسرة الى سيف الدين ، وهو محاصر سنجار ، فصالح «عماد الدين» على مابيده ورحل الى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملك الناصر من حماة الى «بارين» ، وفيها نائب عز الدين ابن الزعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها الى أن سلمها واليها اليه بالأمان ، فعاد الى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه اسد الدين ، وعاد الى دمشق .

وخرج سيف الدين غازي صاحب الموصل ، في سنة احدى وسبعين وخمسمائة . وسار الى «نصيبين» ، واستنجد صاحب «حصن كيفا» وصاحب «ماردين» ، فاجتمع معه عسكر كثير بلغت عدتهم ستة آلاف فارس ، وأقام بنصيبين حتى خرج الشتاء ، فضجرت العساكر وفنيت نفقاتهم .(٢٩١)

ثم سار الى حلب ، فعبر بـ «البيرة» وخيم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كمشتكين والملك الصالح ، لتستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين اليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، فسار ووصل الى حلب .

وخرج الملك الصالح للقائه بنفسه ، فالتقاه قريب «القلعة» واعتنقه ، وضمه اليه ، وبكى ، ثم امره بالعود الى القلعة فعاد ، وسار هو فنزل «بعين المباركة»(٢٩٢)، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب تخرج الى خدمته في كل يوم ، وصعد الى قلعة حلب جريدة ، وأكل فيها شيئا ، ونزل ، وسار منها الى «تل السلطان» ،(٢٩٣) ومعه عسكر حلب ، مضافا الى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجل ادعى أنه المنتظر ، وادعى النبوة « بجبل ليلون » ، واستغوى اهل تلك الناحية ، وأظهر لهم زخارف ، ومحالا ، وقال لهم: «اذا جاء العسكر اليكم ، فسوف ارميهم بكف من تراب فأهلكهم». وأغاروا على «تركمان» «بجبل سمعان» وكان مقيما باتباعه «بكفرند» ، فخرج «طمان» من العسكر ، وسعد الدين كمشتكين بجماعة من العسكر ، ووصلوا اليهم ، فجعل اتباعه يصيحون : «وعدك يا مولانا»! والسيف يعمل فيهم ، فألقى التراب ، فزحف اليه العسكر ، وقتل الرجال وسبى النساء ، والتجأ جماعة الى المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكر الى «تل السلطان» ، بعد ان قتل وصلب .(٢٩٥)

وكان الملك الناصر بدمشق في قل من العسكر ، لأنه كان قد سيرها الى مصر ، وأنفذ اليها يستدعيها ، فلو عاجله سيف الدين لبلغ منه غرضا ، لكنه تأخر ، فوصل عسكر مصر الى الملك الناصر .

فسار من دمشق الى ناحية حلب ، ليلقى سيف الدين ، فالتقاه «بتل السلطان» ، وكان «سيف الدين» قد سبقه الى تل السلطان ، فوصل الملك الناصر العصر ، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا ، فألقوا نفوسهم الى الأرض ليس فيهم حركة .

فأشير على سيف الدين بلقائهم في تلك الحالة ، فقال زلفندار: «ما بنا حاجة الى القتال في هذه الساعة ، وغدا بكرة نأخذهم كلهم» ، فترك القتال الى الغد ، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال ، فجعل «زلفندار» الأعلام في وهدة من الأرض ، لايراها الا من هو قريب منه فلما التقى الفريقان ، ظن أكثر الناس ان سيف الدين قد انهزم ، لأنهم لم يروا الأعلام ، فانهزموا بعد ان كان مظفر الدين بن زين الدين — وهو في الميمنة — قد كسر ميسرة الملك الناصر ، وولوا الأدبار ، وأسر منهم جماعة فأطلقهم الملك الناصر ، منهم : فخر الدين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبع العسكر ، فلم يقتل غير رجل واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوال ، سنة احدى وسبعين وخمسمائة .

ونزل الملك الناصر وعسكره ، في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها ، وفرق الاصطبلات والخزائن ، ووهب خيمة سيف الدين عز الدين فروخشاه ، ووصل سيف الدين الى حلب ، وترك أخاه عز الدين في جماعة من العسكر ، وعبر الفرات ، وسار الى الموصل .

ووصل الملك الناصر الى حلب ، يوم الأحد ثالث عشر شوال ، فأقام عليها أربعة أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن

عشر شوال فنزل بزاعا (٢٩٦) فحصرهــا ، وتســلمها يوم الاثنين العشرين من شوال ، ورحل فنزل منبج ، فحصرهــا ، في التــاسع والعشرين من شوال ، وبها قـطب الدين ينال بـن حســان ، وكان شــديد العــداوة للملك الناصر ، وكان قــد حذق عليه لذلك ، فملك المدينة ، ونقبت القلعة ، فحصره بها ، ونقبها النقــابون ، وملكهــا عنوة ، وأخذ كل ما كان فيها ، وأخــذ صــاحبها أســيرا ، ثــم اطلقه ، فسار الى الموصل ، فأقطعه سيف الدين «الرقة».

ورحل الملك الناصر الى «عزان» فنازلها ثالث ذي القعدة وحصرها ونصب عليها المنجنيقات .

وجلس يوما في خيمة بعض امرائه ، ويقال له «جــاولي» مقــدم الأسدية ، فوثب عليه باطني ، فجرحه بسكين في رأسه ، فرد المغفر عنه ، وأمسك الملك الناصر يدي الباطني بيديه ، الا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية ، بل يضرب ضربا ضعيفا ، فبقي البــاطني يضربه بالسكين في رقبتــه ، وكان عليه كزاغند (٢٩٧) ، فــكانت الضربات تقع في زيقه ، والزرد يمنعها من الوصول . وجــاء «ســيف الدين يازكج» فأمسك السكين ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها مــن يده الى ان قتل. وجاء باطنيان آخران فقتلا .

وركب المللك الناصر الى خيمتــه ، ولازم حصــار عزاز ، حتــى تسلمها بعد قتال شديد ، في بكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجة . ورحل عنها إلى « مرج دابق » .

ثــم ســار فنزل حلب ، يوم الجمعــــة ، منتصـــــف ذي الحجة ، وحصرها ، وبها جماعة من العســكر ، ومنع اهــل البلد الملك الناصر مــن التقــرب الى البلد ، وكانوا يخـــرجون الى خيم العسكر فيقاتلوه ، واذا مسك واحد منهم شرحــت قــدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفون عن القتال ، وقام في نصرته السنة والشــيعة مــن الحلبيين ، وأعطــى الشـــيعة «الشرقية» في المســـجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصلاة .

واتفق ان الحلبيين اجتمعوا تحت القلعة ، شاكين في السلاح ، يستأذنون الملك الصالح في الخروج الى قتال العسكر ، فدخل رسول من الملك الناصر ، يقال له « سعد الدين ابو حامد العجمي الكاتب» ، فصاح عوام الحلبيين: «ما نصالح يا رسول ، رح ، ودع عنك الفضول» . ورجموه بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه الى قريب من الخيام .

ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح بين الملك الصالح ، وسيف الدين صاحب الموصل ، وصاحب الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملك الناصر ، وتحالفوا ، واستقرت على ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر ، واستقر الصلح ، ورحل الملك الناصر ، في السادس عشر من محرم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرر الصلح ، أخرج الملك الصالح الى الملك الناصر اخته بنت نور الدين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحمل لها شيئا كثيرا ، وقال لها: «ماتريدين؟» قالت: «اريد قلعة عزاز» ــ وكانوا قد علموها ذلك ــ فسلمها إليهم .

ورحل الى بلد «الاسماعيلية» (٢٩٨) ، وحصرهم ، ثم صالحهم بوساطة خاله محمود بن تكش ، وسار بعساكره الى مصر ، وكان في شروط الصلح ان يطلق عز الدين جورديك ، وشمس الدين علي بن الداية ، وأخواه ، سابق الدين ، وبدر الدين ، فسار أولاد الداية الى الملك الناصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم ، وأما جورديك ، فأقام في خدمة الملك الصالح ، وعلم الجماعة براءته مما ظنوا به .

وعصى غرس الدين قلج في «تل خالد »(٢٩٩) لأنه نسب اليه امر أوجب وحشته ، فحصل فيها بماله ، وحصنها ، فخرج اليه سعد الدين كمشتكين بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدة ، فسير واستشفع بالملك الناصر ، فشفع فيه الى الملك

الناصر ، فقبـــل الشـــفاعة وامنه ، فخـــرج بمـــاله وأهله ، وحـــاشيته ، ومضى الى منبـــج ، فنزل بهـــا عند «الدويل» ، وكان الملك الناصر قد اقطعه اياها ، وكان ذلك في سـنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السنة ، أظهر اهـل «جبـل السـماق» الفسـق والفجور ، وتسموا بالصفاة ، واختلط النساء والرجال في مجالس الشرب ، ولا يمتنع احدهم من اخته ولا بنته ، ولبس النسـاء ثياب الرجال ، واعلن بعضهم بأن «سنانا» ربـه ، فسـير الملك الصـالح اليهم عسكر حلب ، فهـربوا مـن«الجبـل» وتحصـنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل «سنان» ، وسأل فيهم ، وأنكر حـالتهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وانهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سـعد الدين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكر عنهم (٣٠٠).

وشرع «سنان» في تتبع المقـدمين منهـم ، فـأهلكهم ، وكان في «الباب» منهم جماعة فثار بهـم «البنوية» (٣٠١) مـن اهـل ذلك البلد ، وقاتلوهـم مـن التـركمان ، فـانهزموا واختبـئوا في المغاير ، فنهبـوا دورهـم ، وعروا نسـاءهـم ، ودخلوا عليهـم في المغاير ، وقتلوا من امكنهم قتله .

ثم ان الاسماعيلية قفزوا على الوزير شهاب الدين أبي صالح بـن العجمي ، يوم الجمعة رابع شـهر ربيع الأول ، مـن سـنة ثـلاث وسبعين وخمسـمائة ، وكان السـبب في ذلك أن أبـا صـالح كان يواطىء المجاهد «اللالا» وجمال الدين شاذبخت ، على سـعد الدين كمشتكين ، ويحاولون حطه عن مرتبته، فعلم كمشتكين ذلك ، فكتب كتابا الى «سنان» مقدم الاسماعيلية «بالحصون» ، على لسان الملك الصالح ، يلتمس منه قتل أبي صالح ، واللالا ، وشاذبخت ، وكان قد احضر الكتاب إلى الملك الصالح ، وهو خارج الى الصيد ، وطلب خطه ، وهو أبيض ، لم يكتـب فيه شيء أصـلا ، وقـال له: «المولى خارج ويحتاج ان يكتـب كتـابا في امـر كذا وكذا ، فيكتـب المولى علامته». فكتب ثقة بأن الأمر كما ذكر .

فكتب كمشتكين الى «سنان» بالأمر الذي أراده ، وسيره إليه ، فلم يشك «سنان» في أن الأمر وقع من الملك الصالح ، ليستقل بأموره وملكه ، فندب جماعة لقتل المذكورين ، فوثبوا على شهاب الدين أبي صالح عندما خرج من باب الجامع الشرقي (٣٠٢) ، بالقرب من«خانكاه القصر» (٣٠٣) ، وتعلق بذيل «بغلتاقه» (٣٠٤) ، ليضربه بالسكين ، فرفس اللالا الفرس ، وخرج من «البغلتاق» ، فنجا ، وأحاط الناس بالجماعة الذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يترددان الى «ركابدار» (٣٠٥) اللالا ، فقتل احدهما وصلب ، وصلب الركابدار ايضا ، وكتب على صدره : «هذا جزاء من يؤوي الملحدة».

وأما الآخر ، فصعدوا به الى القلعة ، فضرب ضربا عنيفا ، وثقب كعبه ، ليقرر على السبب الذي أوجب وثوبهم ، فقال للملك الصالح : «انت تبعث كتبك الى مولانا سنان بقتل من أمرنا بقتله ، ثم تتذكر فعل ذلك؟» فقال: «ما أمرت بشيء» . وكتب إلى «سنان» يعتب عليه فيما فعل بأبي صالح واللالا ، فقال: «أنا ما فعلت شيئا الا بأمرك وخطك» . وسير اليه كتابا فيه علامته بقتل الثلاثة المذكورين ، فعلم أن ذلك كان مكيدة من كمشتكين .

وكان الاسماعيلية قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدروا على الوثوب عليه ، لشدة احترازه في القلعة ، فعند ذلك وجد اعداء كمشتكين طريقا الطعن عليه ، وقالوا: «انما اراد قتل هؤلاء ليستقل بملكك ، ويفعل فيه ما لايقدر ان يفعله معهم ، وانه قد استصغرك ، واحتقر امرك».

وكانت حارم لسعد الدين كمشتكين ، أقطعه إياها الملك الصالح ، حين أخذها من بدر الدين حسن ، فأنهي الى الملك الصالح أن سعد الدين يريد أن يسلمها إلى الفرنج ، لأن أصله فرنجي ، وانه قد قرر معهم ان يبيعها عليهم بمال وافر ، والدليل على صدق ذلك أنه اطلق البرنس «ارناط» فقطع الطريق

بالكرك ، وسير أمواله من حلب وغيبها ، وكتب اليه رجل من الفرنج يقال له : الفارس «بدران» بشيء من ذلك ، وبعث بعدة كتب من سعد الدين الى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعله وضع ذلك كله عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقبض الملك الصالح على سعد الدين ، في التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستورا إلى حارم ، وطلب تسليمها منه ، فامتنع فحمل اليها تحت «الحوطة» ، وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذب ، فاستدعى بعض من يثق اليه من المستحفظين بالقلعة ، وأسر إليهما (٣٠٦) أنهم لا يسلمونها ، ولو قطع ، ثم قال لهما جهرا ، «بعلامة كذا وكذا ، سلموا » فصعد الى القلعة ، وأظهر من فيها العصيان والمقاتلة ، فعذب عذابا شديدا ، وعلق برجليه ، وسقط بالخل ، والكلس ، والدخان ، وعصر ، وأصحابه يشاهدونه ، ولايجيبون إلى التسليم .

وخرج الفرنج من «أنطاكية» ، يطلبون «حارم» ، فتقدم الملك الصالح بخنق كمشتكين ، فخنق بوتر ، وأصحابه يشاهدونه ولا يسلمون ، وكسروا يديه وعنقه ، ورموه الى خندق «حارم» ، فحين علم الفرنج ذلك ساروا الى شيزر .

ودخل الملك الصالح الى حلب ، وخلف العسكر بأرض «عم» (٣٠٧) «وجاشر» ، حول حارم ، يمنعونها من الفرنج ، ويباكرونها كل يوم لطلب التسليم ، ومقدم العسكر «طمان بن غازي» — وكان من أكبر الأمراء .

وعاد الفرنج الى حماة فحصروها ، ولم يظفروا بطائل ، وطمعوا في حارم ، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظنوا ان الملك الصالح صبي ، وعسكره قليل ، والملك الناصر بمصر ، فلا ينجدهم الا بعد ان يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير من

الفرنج ، كان قد خرج من البحر الى الساحل ، يقال له كند كبير «فلنط لماني» (٣٠٨) ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ، حيث لم يسلموها الى الملك الصالح .

وحصرها الفرنج ، وضايقوها بالمجانيق والسلالم ، فصاح من فيها : «صلاح الدين يا منصور»! فأحضروا خيمة ، كانوا اخذوها من خيم الملك الناصر في كسرة «الرملة» في هذه السنة (٣٠٩) ، وأخبروهم بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بازائهم من «عم» الى تيزين (٣١٠).

ودخلت سنة اربع وسبعين: والفرنج مجدون على قتال «حارم» ، ونقبوا في تل القلعة ، من جهة القبلة نقبا ، ومن جهة الشمال آخر ، فانهد السور على من تحته ، وهو موضع البغلة ، التي جددها السلطان الملك الظاهر – قدس الله روحه .

وامتنع القتال من تلك الناحية ، خوفا من وقوع شيء آخر فأخرج المسلمون رجلا من عندهم الى «طمان» ، يطلب الأمان من الملك الصالح والنجدة ، فسير الى الملك الصالح ، واعلمه .

فانتخب الملك الصالح رجالا اجلادا من الحلبيين ، أعطاهم مالا جزيلا ، وقال لهم: «اريد منكم ان تدخلوا قلعة حارم» ، فجاؤوا ، والفرنج محدقون بها ، في الليل ، فسلكوا خيامهم مفرقين ، حتى جاوزوها ، وصاحوا بالتكبير والتهليل ، وصعدوا القلعة ، وصار فيها شوكة من المقاتلة ، بعد ان كان قتل من المسلمين بها رجال عدة ، والمسلمون – أعني عسكر حلب – اذ ذاك حول الفرنج جرايد ، وأثقالهم «بدير سمعان» ، وهم يتحفظون من يمكنهم أخذه من الفرنج ويحفظون اطراف البلد .

وسار العسكر عند ذاك الى «دير أطمة» (٣١١) ، وصادفوا

الفرنج في وطأة «أطمة» فحملوا عليهم ، فانهزموا وقتل من الفرنج ، واسر جماعة ، فدام حصار الفرنج أربعة أشهر ، وأرسل الملك الصالح اليهم ، وقال : «إن الملك الناصر واصل الى الشام ، وربما يسلم من بحارم اليه قلعتها ، ويضحي في جواركم» ، وبذل لهم مالا بمقدار ما انفقوا مدة حصارهم لها ، وانتظم الصلح ، ورحلوا .

وخرج الملك الصالح ، فنزل على «حارم» ، فسلمها إليه أصحاب كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولى فيها «سرخك» جمدار (٣١٢) أبيه نور الدين ، ودخل حلب وطالب نواب كمشتكين بماله ، واعتقل ابن التنبي وزيره ، فأحضر بعض المال ، وعذب حتى احضره ، ثم هرب من الاعتقال .

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، سعى جماعة بالقاضي محيي الدين ابي حامد بن الشهرزوري ، قاضي حلب وقدحوا فيه عند جمال الدين شاذبخت ، وأوهموه انه يميل الى الملك الصالح ، ووضعوا على لسانه أشعارا نسبوها إليه ، فأوجب ذلك استيحاشه ، وتوجه الى الموصل ، وعرض القضاء على عمي «ابي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة» فامتنع ، فقلد والدي القضاء بحلب واعمالها ، وبقي على قضائها الى ان مات الملك الصالح وفي دولة عز الدين وعماد الدين ومدة من دولة السلطان الملك الناصر .

وقبض الملك الصالح قرية للاسماعيلية تعرف بحجيرا من ضياع نقرة بني اسد ، فكتب «سنان» الى الملك الصالح كتبا عدة في اطلاقهم ، فلم يطلقها ، فأرسل جماعة من الرجال معهم النفط والنار ، فعمدوا الى الدكان التى في رأس «الزجاجين» من الشرق في القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائب رئيس البلد بمن معه في المربعة ، والجماعة المرتبون

لحراسة الأسواق ، وأخذوا السقائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الاسماعيلية من أسطحة الأسواق ، وألقوا النار والنفط في الأسواق ، فاحترق سوق البز الكبير وسوق العطارين ، وسوق مجد الدين ، المعد للبز ، وسوق الخليع ، وسوق الشراشين – وهو الآن يعرف بالكتانيين – وسوق السراجين ، والسوق الذي غربي الجامع ، جميعه ، الى أن انتهى الحريق الى المدرسة الحلاوية (٣١٣) .

واحترق للتجار والسوقية ، من القماش والآلات شيء كثير ، وافتقر كثير منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيلية بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ومات سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، ووليها اخوه عز الدين مسعود ، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان الملك الصالح في هاتين السنتين رخي البال ، مستقرا في مملكته ، سالكا في الاحسان الى اهل حلب طريق أبيه عفيف اليد والفرج واللسان . فقدر الله تعالى أن حضر أجله ، وله نحو من تسع عشرة سنة ، (٣١٤) فمرض بالقولنج ، واشتد مرضه .

فدخل اليه طبيبه «ابن سكرة اليهودي» ، وقال له سرا : «يا مولانا شفاؤك في الخمر ، فان رأيت ان تأذن لي في حمله في كمي ، بحيث لا يطلع اللالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحد من خلق الله علي ذلك » ، فقال: «يا حكيم ، كنت والله أظنك عاقلا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم – يقول: إن الله لم يجعل شفاء امتي فيما حرم عليها. (٣١٥) وما يؤمنني ان أموت عقيب شربها – فألقى الله ، والخمر في بطني ، والله لو قال لي ملك من الملائكة : إن شفاؤك في الخمر لم استعملته ».

حكى لي ذلك والدي عن ابن سكرة الطبيب .

ولم أيس من نفسه أحضر الأمراء والمستحفظين ، واوصاهم

بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك ، فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك ايضا ، وهو زوج اختك ، وكان والدك يحبه ويؤثره ، وهو تولى تربيته ، وليس له غير سنجار ، فلو أعطيته البلد لكان أصلح ، وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ، ولا حاجة له الى بلدك » ، فقال له: «إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم ان صلاح الدين ، قد تغلب على البلاد الشامية ، سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام ، وأن سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده ». فاستحسنوا هذا القول منه ، وعجبوا من حسن رأيه مع شدة مرضه ، وصغر سنه .

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بقلعة حلب ، الى أن ابتنت والدته «الخانكاه» تجاه القلعة ، ونقل اليها في ايام ، فسير الأمراء (٣١٦) .جورديك ، والبصيري ، ويزغش ، وجمال الدين شاذبخت ، الذوريون ، مع جماعة المماليك الذورية ، الى «عز الدين» ، يستدعونه ، وجددوا الأيمان فيما بينهم له .

وأما علم الدين سليمان بن جندر ، وحسام الدين طمان بن غازي ، وأهل الحاضر ، فانهم راسلوا «عماد الدين» صاحب سنجار ، وكتموا أمرهم ، و«شاذبخت» هو الوالي بالقلعة ، والحافظ لخزانتها ، والمدبر للأمور مع «الذورية» ، فسير الى علم الدين سليمان ، وحسام الدين طمان ، وطلب منهما الموافقة في اليمين لعز الدين ، فماطلا ، ودافعا ، فلما تأخر وصول «عماد الدين» عليهما ، وافقا على اليمين لعز الدين .

ولما وصل رسول الأمير الى عز الدين ، سار هو ومجد الدين قايماز الى الفرات ، فنزل على «البيرة» ، ووصل شهاب الدين ـ أخو عماد الدين ـ مختفيا ، واجتمع بطمان وابن

جندر ، وأعلمهما ان «عماد الدين» في بعض الطريق ، فأخبروه بأخذ اليمين عليهم ، وأن تربصه بالحركة احوجهم الى ذلك ، فعاد اليه أخوه وعرفه ، فعاد الى بلاده .

وأما «عز الدين» ، فحين وصل الى «البيرة» أرسل الى الأمراء الذين بحلب ، واستدعاهم اليه . فخرجوا والتقوه «بالبيرة» ، وساروا معه الى حلب ، ودخلها في العشرين من شعبان ، واستقبله مقدموها ورؤساؤها ، وصعد الى القلعة .

وكان «تقي الدين عمر» - ابن أخي الملك الناصر - بمنبج ، فعزم على ان يحول بين «عز الدين» وحلب ، حين وصل الى «البيرة» لأنه وصل جريدة ، وتخاف عنهم الغلمان والحشد ، ثم انه تثاقل هو وأصحابه عن ذلك .

ولما وصل «عز الدين» الى حلب ، سار تقي الدين من منبج الى حماة ، وثار اهل حماة ، ونادوا بشعار «عز الدين» ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصدها ، وقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من الشام ، وأعلموه محبة اهل الشام لأهل بيته .

وكان «الملك الناصر» بالديار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا يمين ، ولا نغدر به» ، ولما بلغ «الملك الناصر» اخذ عز الدين حلب قال: «خرجت حلب عن أيدينا ، ولم يبق لنا فيها طمع».

وأقام عز الدين بحلب ، فسير إليه أخوه «عماد الدين زنكي بن مودود» ، وقال: «كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه وبأمواله ، دوني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه» وطلب منه تسليم حلب إليه ، وأن يأخذ منه «سنجار» عوضا عنها .

فامتنع «عز الدين» ، ولم يجبه الى ما أراد ، فأرسل اليه وهدده بأن يسلم «سنجار» الى «الملك الناصر» فيضايق الموصل بها ، فأشار عليه طائفة من الامراء ، بأخذ «سنجار» منها واعطائه

حلب ، وكا أشد الناس في ذلك «مجاهد الدين» ، وهو الذي كان يتولى تدبيره ، وكان أمراء حلب لا يلتفتون الى «مجاهد الدين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكه عسكر الموصل ، فلذلك ميل «عز الدين» الى ذلك .

وشرع «عز الدين» في الميل الى الامراء ، الذين حلفوا له أولا ، والاعراض عن الذين مالوا الى اخيه «عماد الدين» ، وأحسن الى اهل حلب ، وخلع عليهم ، وأجراهم على عادتهم في أيام عمه «نور الدين ، وابنه «الملك الصالح» ، وأبقى قاضيها والدي ، وخطيبها عمي ، ورئيسها «صفي الدين طارق بن الطريرة» على ولاياتهم ، وولى بقلعة حلب «شهاب الدين اسحق بن أميرك» الجاندار (٣١٨) صاحب الرقة ، وابقى «شهاب» «شاذبخت» في القلعة ناظرا معه ، وولى مدينة حلب والديوان مظفر الدين بن زين الدين .

وكان الصلح قد انفسخ ، بموت الملك الصالح ، بين الفرنج والمسلمين ، وكانت «شيح الحديد» (٣١٩) مناصفة بين المسلمين والفرنج ، فأضافها عسكر حلب ، قبل وصول عز الدين الى «الدربساك» (٣٢٠) ، واختصوا بها دون الفرنج ، وحضر اهلها الى طمان ، فأعطاهم الأمان .

فلما وصل «عز الدين» سير العساكر الى ناحية «حارم» ، وحاولوا نهب «العمق» ، فانحاز اهله كله الى «شيح» لعلمهم بأن «طمانا» أمنهم ، فأراد عساكر الموصل ان ينهبوها ، فقال لهم: «ان شيح لحلب ، وانهم في اماني» . فلم يلتفتوا الى قوله ، وسار واليها ليلا ، فسبقهم الى «المخاض» ، ووقف في وجوههم يردهم ، فقتل منهم جماعة ، ثم تكاثروا وعبروا ، فسبقهم طمان الى «شيح» ، وأمرهم ان يجعلوا النساء في المغاير ودربها .

فوصل عسكر الموصل ، فرأوا ذلك ، فعزموا على القتال ، فصاح طمان: «اذا كنتم تخفرون ذمتي ، فأنا أرحل الى الفرنج» .وسار في اصحابه الى ان قرب من «يغرا» ، فوصله من اخبره بأنهم عادوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلا ، وخافوا من ملامة عز الدين ، فعاد «طمان» ، ونزل كل منهم في خيامه «بحارم» .

وكاتب المواصلة «عز الدين» يطعنون على «طمان» ، وأنه وافق اهل «شيح» في العصيان ، وأراد اللحاق بالفرنج ، فأحضر «طمان» والمواصلة ، وتقابلوا بين يديه ، فقال عز الدين : «الحق مع حسام الدين ، ولا يجوز نقض العهد لواحد من المسلمين ». وكان ذلك في شهر رمضان من السنة .

وبقيت المواحشة بين امراء حلب والمواصلة ، والحلبيون لا يرون التغاضي لمجاهد الدين ومجاهد الدين يحاول ان يكونوا معه كأمراء الموصل ، والأمراء الحلبيون يمذون عليه ، بأنهم اختاروه لهذاالأمر ، ويطلبون منه الزيادة ، ويختلق المواصلة عليهم الأكانيب .

فهرب الأمير علم الدين سليمان بن جندر ، قاصدا «الملك الناصر» الى مصر ، فقالوا لعز الدين: «ان طمانا سيهرب بعده ، فأمر عز الدين مظفر الدين بن زين الدين ، وبني الغراف ، والجراحي وغيرهم ان يمدوا من «السعدي» الى «المباركة» في طريقه ، وان يقف جماعة حول دار «طمان» ــ وكان يسكن خارج المدينة ــ فلما لم يجر من «طمان» شيء من ذلك ، جاؤوإليه نصف الليل ، وطلبوه ، فخرج اليهم ، فوجد ابن زين الدين وبني الغراف ، فسألهم عما يريدون ، فقالوا: «انه انهي الى عز الدين بأنك تريد الهرب ، وقد أمرنا بأن نعوقك» فقال: «والله ما لهذا صحة ، ولو اردت المسير عن حلب لمضيت ، لا على وجه الخفية ، ولا أخاف من أحد».

فجعلوا لهم طريقا آخر الى نيل غرضهم ، وأصبحوا ، وعز الدين منتظر ما يكون ، فقالوا له: «كان قد عزم على الهرب ، فلما علم أن الطريق قد أخذ عليه ، وأن الدار قد أحيط بها أخر ذلك الى وقت ينتهز فيه الفرصة ، والمصلحة قبضة قبل هربه». فأمرهم بأن يقبضوه محترما ، ويحضروه اليه .

فجاءوه ليلا ، من أعلى الدار وأسفلها ، وأزعجوه ، وكان نائما ، فخرج الى الباب ، فوجد مظفر الدين بن زين الدين مع بني الغراف فقالوا: «إن المولى عز الدين قد امرنا بالقبض عليك». فقال لهم : «السمع والطاعة ، فشأنكم وما امرتم به» ، فاركبوه ، وحملوه ، والرجال محيطة به ، وفتحوا بالليل باب القلعة ، واعتقلوه بها غير مضيق عليه .

واحضره «عز الدين» ، ووذسه ، وقال: لم أفعل ما فعلت إلا لشدة رغبتي فيك ، وافتقاري الى مثلك » ، فعرفه ما ينطوي عليه ، وان ما نقل عنه لم يخطر بباله . فقال: «إن وقيعة اعدائك فيك ، لم تزدك عندي الا حظوة ».

وبقي معتقلا في القلعة اسبوعا ، ثم خلع عليه ، وأطلقه وزاد في اقطاعه «الاخترين» (٣٢٠) .

وأقام «عز الدين» حتى انقضت مدة الشتاء ، ثم تزوج ام الملك الصالح ، في خامس شوال من السنة ، ثم سيرها الى الموصل ، واستولى على جميع الخزائن التي كانت لنور الدين وولده بقلعة حلب ، وما كان فيها من السلاح ، والزرد ، والقسي ، والخوذ ، والبركسطوانات (٣٢١) ، والنشاب ، والآلات ، ولم يترك فيها إلا شيئا يسيرا من السلاح العتيق ، وسير ذلك كله إلى «الرقة».

وترك في قلعة حلب ولده نور الدين محمودا طفلا صغيرا ، ورد

أمره الى الوالي بـالقلعة : شـهاب الدين اسـحق ، وسـلم البلد والعسكر الى مظفر الدين بن زين الدين ، وسار الى الرقة ، سادس عشر شوال ، فأقام بها فصل الربيع .

وراسل اخاه «عماد الدين» ، في المقايضة «بسـنجار» ، ليتـوفر على حفظ بلاده ، ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه انه يحتاج الى الاقامة بالشام ، لتعلق اطمـاع «الملك الناصر» بحلب ، وقـدم عليه أخوه . واستقرت المقايضة على ذلك ، وتحالفا على ان تـكون حلب وأعمالها لعماد الدين و«سنجار» وأعمالها لعز الدين ، وأن كل واحد منهما ينجد صاحبه ، وأن يكون «طمان» مع عمـاد الدين ، فسـير «طمان» ، وصعد الى قلعـة حلب ، وكان معهـم علامـة مـن عز الدين ، فتسلمها ، وسير عز الدين من تسلم سنجار .

وفي حال طلوع «طمان» ، ونقل الوالي متـاعه ، طمـع « مـظفر الدين بن زين الدين» بأن يملك القلعة ، ووافقه جماعة من الحلبيين كانوا بقربه ، في الدار المعروفة بشمس الدين علي بن الداية وجماعة من الأجناد ، ولبس هو زردية ، تحت قبائه ، وألبس جمـاعة مـن اصحابه الزرد تحت الثياب ، ومع كل واحد منهم سيف ، وأرسـل الى شهاب الدين ، وقال له: إنه وصـلني كتـاب مـن اتـابك عز الدين ، وأمرني أن أطلع في جماعة اليك ، فأمره بالصعود .

وكان «جمال الدين شاذبخت» ، في حوش القلعة الشرقي ، الذي هدمه الملك العادل – وكان بين الجسرين اللذين جددهما السـلطان الملك الظاهر – رحمـه الله – وعمـل مـكان ذلك الحـوش بغلة (٣٢٢) – فـرأى الجند مجتمعين تحـت القلعـة ، فسـير «شاذبخت» ، وأحضر بوابا كان للقلعة ، يقال له «علي بـن منيعـة» وكان جلدا يقظا ، وأمره بالاحتراز .

فلما ان أراد أن يدخل من باب القلعة ، تقدم إليه ، وقـال له: «لا تدخل إلا أنت وحدك» .وكان في ركابه جماعة فمنعوهم ، فلم يتـم له ما أراد .

وعاد ابـــن زين الدين الى داره ، وقيل إن ابـــن مقبـــــــل الاسبسلار ، قال له: «أنت تصـعد الى القلعـة ، فمـا هـذا الزرد عليك ؟» فعاد ، وجعل يعتذر عما شاع في الناس من فعله .

وكتب شهاب الدين الوالي وجمال الدين شـاذبخت الى عز الدين كتابا بخط « حسين بن يلدك» ، إمام «المقام» . وأخذ تحته خـطوط الاجناد ، والنقيب والاسباسلار ، فلم يمكن «عز الدين» مكاشفته في ذلك ، لقرب «الملك الناصر» من البلاد .

وبعـث «مـظفر الدين» الى «عز الدين» يعتـذر ، ويقـول: «إن الاسماعيلية أوعدوني القتـــل ، ومـــا أمـــكنني الا الاحتــــزار بالسلاح ، أنا ومن معي ، وأذكر الحفظة بالقلعة ذلك علي ، ولم يكن ذلك لأمر غير ما ذكرته». فلم يقابله على ذلك .

وأمـــا «طمــــان» ، فإنه قبض على الجمـــــــاعة الذين كانوا معه ، وحبسهم في القلعة ، واطلع على ماكانوا اضمروه ، وأطلقهم في اليوم الثاني ، وستر هذا الأمر .

ثم وصل قطب الدين ابن عمـاد الدين الى حلب ، ثـم ورد أبـوه «عماد الدين» ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور الدين ، ووصل على البـرية مـن جهـة «الأحص» (٣٢٣) والتقـاه الأكابر مـن الحلبيين ، وصـعد الى قلعـة حلب ، في ثـالث عشر المحرم ، من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله .

وولى القلعة «عبــــد الصــــــمد بـــــن الحــــــكاك الموصلي» ، والعسكر ، والخزائن ، والنظر في احـوال القلعـة الى مجـــاهد الدين بـــزغش ، وأنزل «شـــــاذبخت» مـــــن القلعة ، والقضاء ، والخطابة ، والرئاسة ، على ما كان عليه ، في أيام أخيه وابن عمه .

وولى الوزارة « بهاء الدين أبا الفتـح نصر بـن محمـــد بـــن

القيسراني » ، أخا «موفق الدين خالد » - وزير نور الدين - واستمر الشيعة في أيامه ، وأيام اخيه ، على قاعدتهم ، التي أقرهم عليها «الملك الصالح » ، من اقامة شعارهم بالشرقية ، بالمسجد الجامع .

وأبقي « سرخك» في حارم على ما كان عليه . وحكم « شاذبخت» في عزاز وقلعتها - وهو وكيل عن ابنة نور الدين التى اطلقها الملك الناصر لها - وصالح الفرنج .

وجرى في الاحسان الى اهل حلب ، على قاعدة عمه وابن عمه واخيه ، ولما بلغ الملك الناصر حديث حلب وأخذ عماد الدين إياها ، قال :«أخذنا والله حلب» ، فقيل له: «كيف قلت في عز الدين لما أخذها : خرجت حلب عن ايدينا ، وقلت: حين أخذها عماد الدين : أخذنا حلب؟» فقال: «لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال ، وعماد الدين ، لا مال ولا رجال »!

وخرج «الملك الناصر» ، من مصر في خامس المحرم من هذه السنة ، وخرج الناس يودعونه ، ويسيرون معه ويتأسفون على فراقه ، وكان معه معلم لبعض أولاده ، فالتفت الى بعض الحاضرين ، وأنشد :

تمتع من شميم عرار «نجد»
فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان ، وتطير ، فقدر انه لم يعد الى مصر ، الى أن مات ، مع طول مدته ، واتساع ملكه في غيرها .

وسار على «أيلة» وأغار على بلاد الفرنج في طريقه ، ووصل دمشق في صفر ، ثم خرج منها الى ناحية «الغور» ، فأغار على ناحية «طبرية» و«بيسان» ، وعاد الى دمشق ، ثم خرج الى «بيروت» ، ونازلها ، واجتمع الفرنج فرحلوه عنها ، فدخل الى

دمشق ، وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج على قتـاله ، فجعـل ذلك حجة عليهم .

وسار حتى نزل على حلب ، في ثامن عشر من جمـادى الأولى ، سنة ثمـاني وسـبعين وخمسـمائة . ونزل على «عين أشـمونيث» (٣٢٤) ، وامتد عسكره حولها شرقا ، وأقام ثلاثة أيام ، فقـال له عماد الدين : «امض الى سـنجار ، وخـذها وادفعهـا إلي ، وأنا اعطيك حلب» .

وكان «عمـاد الدين» قـد ندم على مقـايضة أخيه بحلب وسنجار ، حيث وصل ووجد خزائنها صـفرا مـن المال ، وقلعتهـا خالية من العدد والسلاح والآلات ، وأنه يجاور مثـل «الملك الناصر» فيها .

فعند ذلك سار «الملك الناصر» الى جسر «البيرة» ، وكان صاحبها «شهاب الدين بن أرتق» قد صار في طاعته ، فعبر اليه مـظفر الدين ابن زين الدين الى الناحية الشامية ، وحـران إذ ذاك في يده ، كان أقطعه اياها عز الدين صاحب الموصل ، وحصلت بينه وبينه وحشـة من الوقت الذي عزم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانت رسـله تتـردد الى «الملك الناصر» تطمعه في البلاد ، وتحثه على الوصول .

وعاد ابن زين الدين معـه حتـى عبـر الفـرات في جسر «البيرة» ، وكان «عز الدين» قد وصل بعسـاكر الموصـل الى «دارا» (٣٢٥) ليمنع «الملك الناصر» من حلب ، فلما عبـر الفـرات عاد الى الموصل ، وعبر «الملك الناصر» ، فأخذ «الرهـا» من ابن الزعفراني ، وسلمها الى ابن زين الدين ، وأخذ الرقة من ابن حسان ، ودفعها الى ابن الزعفراني ، وكاتـب ملوك الشرق ، فـأطاعوه ، وقصـد «نصيبين» فأخذها .

وسار الى الموصل ، وفيها عسـكر قـوي ، فقـوتل قتـالا شديدا ، ولم يظفر منها بطائل ، فرحل عنها الى «سـنجار» فـأنفذ

«مجاهد الدين» اليهـا عسـكرا ، فمنعـه «الملك الناصر» مـن الوصـول ، وحـاصر «سـنجار» ، فسـلمها اليه امير تلك الناحية ، وصارت «الباشورة» (٣٢٦) معه ، فضعفت نفس واليهـا «أمير أميران» أخي عز الدين ، فسلمها بـالامان ، في ثـاني شـهر رمضان مـن السـنة ، وقـرر «الملك الناصر» أمـورها ، وعاد الى حران .

ولما قصد «الملك الناصر» البـلاد الشرقية ، رأى عمـاد الدين ان يخرب المعاقل المطيفـة ببلد حلب ، فشـن الغـارات على شـاطىء الفرات ، وهـدم حصـن بـالس ، وحصر قليعـة نادر (٣٢٧) ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشـط ، فـأخربها واستاق مواشيها ، وأحـرق جسر «قلعـة نجـم» (٣٢٩) ، وعبـر الفرات فأغار على « سروج »(٣٣٤)

ثم عاد الى حلب ، ثـم خـرج وهـدم «حصـن الكرزين» (٣٣١) وخرب حصن «بزاعا» وقلعة «عزان» ، في جمادى الآخرة ، وخـرب حصن «كفرلاثا» (٣٣٢) بعد اخذه من صاحبه بـكمش ، وكان قـد استأمن الى «الملك الناصر» ، وضاق الحـال عليه ، فشرع في قـطع جامكية اجناد من القلعة ، وقتر على نفسه في النفقات .

وأما «الملك الناصر» ، فرحل من «حران» فنزل «بحـرزم (٣٣٣) تحت قلة «ماردين» .فلم ير له فيها طمعا ، فسار الى «آمد» ، في ذي الحجة ، وكان قد وعد «نور الدين محمد بن قرا أرسلان » بـأخذها مـن ابـن نيسـان(٣٣٤) ، وتسـليمها اليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلمها في العشر الأول ، من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وكان فيها من المال شيء عظيم ، فسلم ذلك كله مع البلد الى نور الدين ، وقيل له في أخذ الأموال وتسلم البلد فقال : «ماكنت لأعطيه الأصل وابخل بالفرع ».

ثم إن الملك الناصر عبر الى الشـام ، فمـر «بتـل خـالد»

فحصرها ، فسلمها اهلها بالامان في المحرم . ثم سار منها الى عين تاب ، وبها «ناصر الدين محمد» أخو «الشيخ اسماعيل الخزندار» ، فدخل في طاعته ، فأبقاها عليه .

ولما علم «عماد الدين» ذلك ، وتحقق قصده لحلب ، أخذ رهائن الحلبيين ، وأصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم ، خوفا من تسليم البلد ، وقسم الابراج والأبواب على جماعة من الأمراء ، وكان الأمراء «الياروقية» بها في شوكتهم .

وجاء الملك الناصر ، ونزل على حلب في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتد عسكره من «بابلى» الى النهر ممتدا الى «باسلين» (٣٣٥) ، ونزل هو على «الخناقية» (٣٣٦) ، وقاتل عسكر حلب قتالا عظيما ، في ذلك اليوم ، وأسر «حسام الدين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «باذقوسا» (٣٣٧) ، وهو الذي تولى شحنكية حلب ، فيما بعد .

وهجم تاج الملوك بوري بن أيوب ، أخو «الملك الناصر» ، على عسكر حلب ، فضرب بذشاب زندبورك (٣٣٨) فأصاب ركبته ، فوقع في الأكحل ، فبقي أياما ، ومات بعد فتح حلب ، ودفن بتربة «شهاب الدين الحارمي» ، «بالمقام» (٣٣٩) ، ثم نقل الى دمشق .

وجد الملك الناصر ، بسبب أخيه على محاصرة حلب أياما ، فاجتمع إليه (٣٤٠)الاجناد من العسكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلهم ، فقالوا : « قد ذهبت اخبارنا (٣٤١) ونحتاج لغلاء الأسعار الى مال بد منه» ، وشح بماله ، فقال لهم: «أنتم تعلمون حالي ، وقلة مالي ، وأنني تسلمت حلب صفرا من الاموال ، وضياعها في اقطاعكم». فقال له بعضهم: «من يريد حلب يحتاج الى أن يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه » فأحضر أواني من الذهب والفضة ، وغيرها ؛ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ، ويقاتلون أشد قتال بغير جامكية (٣٤٢) ، ولا قرار ، نخوة على البلد ، ومحبة لملكهم ، فأفكر عماد الدين ، ورأى أنه لا قبل له بالملك الناصر ، وأن ماله ينفد ، ولايفيده شيئا ، فخلا ليلة بطمان ، وقال له:

«ما عندك في أمرنا؟ هذا الملك الناصر ، قد نزل محاصرا لنا ، وهو ملك قوي ، ذو مال ، والظاهر أنه يطيل الحصار ، وتعلم انني اخذت حلب خالية من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته ، ولا أدري عاقبة هذا الأمر الى ما ينتهي

فأحس طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا اذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والايمان ، على أن لا يطلع احد على مايدور بيننا ، فإن هؤلاء الامراء ان اطلعوا على شيء مما نحن فيه افسدوه ، وانعكس الغرض» ، فتحالفا على كتمان ذلك ، فقال له طمان: «أرى من الرأي في حلب ان تسلمها الى الملك الناصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهك حرمتها ، ويضعف امرها ، وتفنى الاموال ، وتضجر الرجال ، ويستغل بلدها فيتقوى هو وعسكره به ، ونحن لا نزداد الا ضعفا ، والآن فنحن عندنا قوة ، ونأخذ منه ما نريد من الأموال والبلاد ، ونستريح من الأجناد والحاحهم في الطلب ، ثم قد اصبح ملكا عظيما ، وهو صاحب مصر ، وأكثر الشام ، وملوك الشرق قد اطاعوه ومعظم الجزيرة في يده . فقال له: «والله هذا الذي قلته كله رأيي ، وهو الذي وقع لي فاخرج إليه ، وتحدث معه على ان يعطيني: الخابور ، وسنجار ، وأي شيء قدرت على ان تزداده فافعل ، واطلب الرقة لنفسك

ثم ان طمان كتم ذلك الامر ، وباكر القتال ، وأظهر أن بداره واصطبله (بالحاضر) خشبا عظيما ، وأنه يريد نقضها كيلا يحرقها العسكر ، فكان يبيت كل ليلة في داره ،خارج المدينة .

ويجتمع بالسلطان الملك الناصر ، خاليا ، ويرتب معه ، ويجيء الى عماد الدين ويقرر الحال معه ، وينزل ، ويصعد الى القلعة من «برج المذشار» — وكان عند باب الجبل الآن متصلا بالمذشار — الى أن قرر مع الملك الناصر : ان يأخذ حلب وعملها ، ولا يأخذ معها شيئا من أموالها ، ونخائرها ، وجميع ما فيها من الآلات والسلاح ، وأن يعطي عماد الدين عوضا عنها : سنجار ، والخابور ونصيبين ، وسروج ، وأن يكون لطمان الرقة (٣٤٣) ، ويكون مع عماد الدين .

وشرط عليه ان تكون الخطابة والقضاء للحنفية (٣٤٤) بحلب ، في بني العديم ، على ما هي عليه ، كما كان في دولة الملك الصالح ، وان لا ينقل الى الشافعية .

هذا كله يتقرر ، والقتال في كل يوم بين العسكرين على حاله ، وليس عند الطائفتين علم بما يجري ، ويخرج من الحلبيين في كل يوم عشرة آلاف مقاتل او أكثر ، يقاتلون أشد قتال .

ولم يعلم أحد من الامراء ولا من أهل البلد ، حتى صعدت أعلام «الملك الناصر» على القلعة ، بعد أن توثق كل واحد من الملكين من صاحبه بالأيمان ، فأسقط في أيدي أهل حلب والامراء من «الياروقية» ، وغيرهم ، وخاف «الياروقية» على أخبازهم ، والحلبيون على أنفسهم ، لما تكرر منهم من قتال «الملك الناصر» ، مرة بعد اخرى ، في أيام الملك الصالح .

وصرح العوام بسبه ، وحمل رجل من الحلبيين يقال له «سيف بن المؤذن» إجان الغسال ، وصار بها الى تحت الطيارة (٣٤٥)، بالقلعة ، وعماد الدين جالس بها يشير اليه ان يغسل فيها كالمخانيث ، ونادى اليه : «يا عماد الدين ، نحن كنا نقاتل بلا جامكية ولا جراية ، فما حملك على أن فعلت ما فعلت؟»

وقيل: إن بعضهم رماه بالذشاب ، فوقع في وسط

الطيارة ، وعمل عوام حلب اشعارا عامية ، كانوا يغنون بها ، ويدقون على طبيلاتهم بها ، منها:

أحباب قلبي لا تلوموني
هذا «عماد الدين» مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب
وزاده المولى نصيبين
ودق آخر على طبله ، وقال مشيرا الى «عماد الدين»:
وبعت «بسنجار» قلعة حلب
عدمتك من بايع مشتري
خريت على حلب خرية
نسخت بها خرية «الاشعري»(٣٤٦)

وصعد اليه «صفي الدين» ـ رئيس البلد ـ ووبخه على ما فعل ، وهو في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقال له عماد الدين: فما مات ، فاستهزأ به (٣٤٧) .

وأنفذ عسكر حلب وأهلها ، الى السلطان الملك الناصر : عز الدين جورديك ، وزين الدين بلك ، فاستحلفوه للعسكر ولأهل البلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجت العساكر ومقدمو حلب اليه الى «الميدان الاخضر» (٣٤٨) وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم .

ولما استقر أمر الصلح ، حضر الملك الناصر صلاح الدين عند أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يعوده وقال له: «هذه حلب ، قد أخذناها ، وهي لك» فقال: «لو كان وأنا حي ، والله ، لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي» .فبكى الملك الناصر والحاضرون .

وأقام «عماد الدين» بالقلعة ، يقضي اشغاله ، وينقل اقمشته ، وخزائنه ، والسلطان الملك الناصر مقيم « بالميدان

الاخضر » ، الى يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر ، فنزل «عماد الدين» من القلعة ورتب فيها «طمان» مقيما بها ، الى ان يتسلم ذواب «عماد الدين» ما اعتاض به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا .

ونزل عماد الدين ، في ذلك اليوم الى السلطان الملك الناصر وعمل له السلطان وليمة واحتفل وقدم «لعماد الدين» اشياء فاخرة من الخيل والعدد ، والمتاع الفاخر ، وهم في ذلك إذ جاءه بعض أصحابه وأسر اليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يظهر جزعا ولا هلعا ، وكتم ذلك عن عماد الدين ، الى ان انقضى المجلس ، وأمرهم بتجهيزه .

فلما انقضى أمر الدعوة ، وعلم عماد الدين بعد ذلك عزاه عن اخيه ، وسار السلطان الملك الناصر معه مشيعا في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قراحصار»(٣٤٩) فنزل به ، والسلطان في خيمته الى ان وصل «عماد الدين» رسل أصحابه يخبرونه بأنهم تسلموا «سنجار» ، والمواضع التي تقررت له معها ، فرفعت اعلام الملك الناصر ، عند ذلك على القلعة ، وصعد اليها في يوم الاثنين السابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وامتنع سرخك ، والي «حارم» ، من تسليمها الى السلطان الملك الناصر ، فبذل له ما يحب من الاقطاع ، فاشتط في الطلب ، وراسل الفرنج ، ليستنجد بهم ، فسمع بعض الأجناد ، بقلعة حارم ذلك ، فخافوا ان يسلمها الى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحبسوه ، وأرسلوا الى السلطان ، يعلمونه بذلك ، ويطلبون منه الأمان والانعام ، فأجابهم الى ذلك وتسلمها .

وأقر عين تاب بيد صاحبها ، وسلم «تل خالد» الى «بدر الدين دلدرم» صاحب «تل باشر» ، وكان من كبار الياروقية ، وأقطع

«عزاز» الأمير علم الدين سليمان بن جندر . وولى الملك الناصر قلعة حلب سيف الدين يازكج الأسدي ، وولى شحنكية حلب حسام الدين تميرك بن يونس ، وولى ديوان حلب ناصح الدين بن العميد الدمشقي ، وأبقى الرئيس «صفي الدين طارق بن أبي غانم بن الطريرة» ، في منصبه على حاله ، وزاد اقطاعه .

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصب ، فما زال به ، حتى نقل الخطابة عن الحنفية الى الشافعية ، وعزل عنها عمي «ابو المعالي» . ووليها «أبو البركات سعيد بن هاشم» ، وفعل في القضاء كذلك ، فسير إلى القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي إلى دمشق ، بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأحضر إلى حلب وولي قضاءها ، وعزل «والدي» عن القضاء ، وامتدحه محيي الدين بن الزكي ، بقصيدة بائية ، قال فيها :

وفتحكم «حلبا» بالسيف في صفر
مبشر بفتوح «القدس» في رجب

فاتفق من أحسن الاتفاقات ، وأعجبها ، فتح القدس في شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدين في القضاء بحلب مدة ، ثم استناب القاضي زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي في قضاء حلب ، وسار الى بلده دمشق .

ثم إن السلطان «الملك الناصر» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وجعل فيها ولده الملك «الظاهر غازي» ـ وكان صبيا ـ وجعل تدبير أمره الى سيف الدين يازكج .

وسار الى دمشق ، ثم خرج الى الغزاة في جمادى الآخرة ، وسار الى «بيسان» ، وقد هرب اهلها ، فخربها ، وجرد

قطعة من العسكر ، فخربوا «الناصرة» والفولة»(٣٥٠) ، وما حولهما من الضياع .

وجاء الفرنج فنزلوا «عين الجالوت» ، ودار المسلمون بهم ، وبثوا السرايا في ديارهم ، للغارة والنهب ، ووقع جورديك ، وجاولي الأسدي ، وجماعة من النورية على عسكر «الكرك» و «الشوبك» ، سائرين في نجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا مائة نفر ، وعادوا .

وجرى للمسلمين مع الفرنج وقعات ، ولم يتجاسروا على الخروج للمصاف ، وعاد السلطان «الى الطور»(٣٥١) في سابع عشر جمادى الآخرة . فنزل تحت «الجبل» ، مترقبا رحيلهم ، ليجد فرصة ، فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على اعقابهم . ورحل نحوهم ، وناوشهم العسكر الاسلامي ، فلم يخرجوا اليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين ، وفرغت أزواد المسلمين ، فعادوا الى دمشق ، ودخل السلطان دمشق ، في رابع وعشرين من جمادى الآخرة .

ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج اليها في رجب ، وكتب الى أخيه «الملك العادل» ، وأمره ان يلتقيه الى الكرك ، وسار السلطان الى الكرك ، وحاصرها ، ونهب أعمالها ، وهجم ربضها ، في رابع شعبان ، وهدم سورها بالمنجنيقات ، وأعجزه طم خندقها ، ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل» ، رحل عنها ، ونزل بازائها (٣٥٢)

ووصل أخوه « الملك العادل » ، من مصر ، وعقد لابن أخيه ، «تقي الدين عمر» ، على ولايتها ، فسار اليها في نصف شعبان.

وعاد السلطان الملك الناصر الى دمشق ، والملك العادل أخوه معه ، فعقد له على ولاية حلب ، وسار اليها في ثاني وعشرين من

شهر رمضان ، وخرج السلطان الملك الظاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل الى والده في شوال .

ويقال إن «الملك العادل» دفع الى السلطان ، لأجل حلب ، ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، وقيل دون ذلك ، وكان السلطان محتاجا اليها لأجل الغزاة ، فلذلك سلم اليه حلب ، وأخذها من ولده .

ولما دخلها «الملك العادل» ، ولى بقلعتها صارم الدين بزغش ، وولى الديوان والاقطاع والجند ، واستهداء الاموال ، وشحنكية البلد : «شجاع الدين محمد بن بزغش البصراوي» ، واستكتب الصنيعة ابن النحال ـ وكان نصرانيا ـ فأسلم على يديه ، وولى وقوف الجامع فخر الدين أحمد ابن عبد الله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الداثرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وأن لا يتعرض لوقف المسجد الجامع ، بل يوفر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع الى «الزردخاناه» (٣٥٣)إلا ما فضل عن ذلك كله ، وجدد في أيامه مساجد متعددة كانت قد تهدمت.

ووقع في أيامه وقعة بين الحنفية والشافعية ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الاخضر ، وأصلح بين الفريقين ، وخلع على الأكابر من الفقهاء والمدرسين ، وهدم الحوش القبلي الشرقي الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى ان يسفحه فسفحه السلطان الملك الظاهر بعده ، وكتب عليه اسمه بالسواد الى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجدد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضها .

ووصل رسول الخليفة شيخ الشيوخ «صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل» ، الى السلطان «الملك الناصر» ، في الاصلاح بينه وبين عز الدين ـ صاحب الموصل ـ وورد معه من الموصل القاضي محيي

الدين أبو حامد بن الشهرزوري ، الذي كان قاضي حلب ثم تولى قضاء الموصل ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الظاهر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظاهر ، ولم يتفق الصلح بينهما (٣٥٤)

وحضرني حكاية جرت لشيخ الشيوخ مع «محيي الدين» ، في هذه السفرة ، وذلك ان شيخ الشيوخ كان قد وصل الى السلطان «الملك الناصر» ، وهو محاصر الموصل ، ليصلح بينه وبين عز الدين ، في المحاصرة الأولى ، فلم يتفق الصلح ، واتهم أهل الموصل شيخ الشيوخ بالميل مع «الملك الناصر» ، فعمل محيي الدين فيه ابياتا منها:

بعثت رسولا أم بعثت محرضا
على القتل تستجلي القتال وتستحلي؟

وقال فيها مخاطبا للامام الناصر:

فلا تغترر منه بفضل تنمس
فما هكذا كان «الجنيد» ولا «الشبلي»(٣٥٥)

فبلغت الأبيات شيخ الشيوخ.

فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخ الشيوخ: «كيف تلك الابيات التي عملتها في؟» فغالطه عنها ، فأقسم عليه بالله ان ينشده اياها ، فذكرها له ، حتى أنشده البيت الذي ذكرناه أولا ، فقال: «والله لقد ظلمتني ، وإنني والله ، اجتهدت في الاصلاح فما اتفق» فأنشده تمامها ، حتى بلغ الى قوله: «فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي» فقال : » والله لقد صدقت ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي ، أدور على أبواب الملوك من باب هذا الى باب هذا».

ثم إن الرسل ساروا عن غير زبدة ، وتوجه الملك العادل من حلب في ذي الحجة ، وعيد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد الى حلب .

واهتم السلطان الملك الناصر ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، لغزاة «الكرك» ، فوصل اليه «نور الدين بن قرا أرسلان» ، واجتاز بحلب ، فأكرمه «الملك العادل» ، وأطلعه الى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه الى دمشق ، فخرج السلطان ، والتقاه على عين الجر(٣٥٦) ، « بالبقاع» ، ثم تقدم الى دمشق وتجرد وتأهب للغزاة ، وخرج الى «الكرك» ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقي الدين ابن اخيه ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم الى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدقت العساكر بها ، وهجموا الربض ، وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعا على سطح جبل ، وسدوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس (أرناط) ، فكاتب من فيها الفرنج ، فوصلوا في جموعهم الى موضع يعرف «بالواله»(٣٥٧) ، فسير «الملك الناصر» الأثقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنيقات .

ورحل عنها في جمادى الآخرة ، وأمر بعض العسكر فدخلوا الى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخربوها ، واستنقذوا منها اسرى من المسلمين ، وفعلوا في «سبسطية»(٣٥٨) و «جينين»(٣٥٩) مثل ذلك ، وعادوا ودخلوا دمشق مع السلطان .

ووصل اليه « شيخ الشيوخ» بالخلع ، من الخليفة الناصر ، له ولأخيه «الملك العادل» ، ولابن عمه ناصر الدين (٣٦٠) ، فلبسوها ، ثم خلع السلطان ، بعد ايام خلعته الواردة من الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان .

وورد اليه رسول مظفر الدين بن زين الدين ، يخبره ان عسكر

الموصل ، وعسكر قــزل نزلوا على اربــل ، وأنهــم نهبــوا وأخربوا ، وأنه انتصر عليهم ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويقوي طمعه ، وبذل له اذا سار اليها خمسين الف دينار ، فعند ذلك هادن الفرنج مدة .

ورحل من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقــام بها الى أن خرجت السنة .

وسار منها الى حران والتقاه مظفر الدين بالبيرة ، في المحرم سنة احدى وثمانين ، وعاد معه الى حران ، وطــالبه بمــا بــذل له مــن المال ، فأنكر ، فقبض عليه ، ووكل به .

ثم أخذ منه مدينتي حران والرها ، وأقام في الاعتقــال الى مســتهل شهر ربيع الاول ثم أطلقه خوفا مــن انحــرا ف الناس عنه ، لأنهــم علموا انه الذي ملكه البلاد الجــزرية ، واعاد عليه حــران ، ووعده باعادة الرها ، اذا عاد من سفرته ، فأعادهما عليه .

وسار الملك الناصر الى الموصــل ، فــوصل بلد (٣٦١) ، فنزلت اليه والدة عز الدين ، ومعها ابنة نور الدين ، وغيرها من نساء بني اتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فــردهن خــائبات ، ظنا منه أن عز الدين أرسلهن عجزا عن حفظ الموصل ، واعتذر بــأعذار ندم عليها بعد ذلك .

ورحل حتى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجري القتال بين العسكريين ، وبذل اهــل الموصــل نفــوسهم في القتـــال لرده النساء ، وندم السلطان على ردهن ، وافتتح تل عفــر ، فــأعطاها عماد الدين صاحب سنجار.

واقام على حصار الموصل شهرين ، ثم رحل وجاءه الخبــر بمــوت شاه أرمن ، وكاتبه جماعة من أهل خلاط ، فترك الموصل طمعــا في خلاط ، فاصطلح أهل خلاط مع البهلوان صاحب اذربيجان ، فنزل

السلطان على ميافارقين ، وكان صاحبها قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمرتاش ، وملك بعده حسام الدين يولق أرسلان ، وهو طفل ، فطمع في أخذها ، ونازلها ، فتسلمها من واليها ، وزوج بعض بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان ، ثم عاد الى الموصل عند اياسه من خلاط ، فوصل الى كفرزمار (٣٦٢) ، فسار عائدا الى حران ، واتبعه عز الدين بالقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبهاء الدين الربيب ، رسولين اليه في موافقته على الخطبة والسكة ، وأن يكون معه عسكر من جهته ، وان يسلم اليه شهرزور(٣٦٣) وأعمالها ، وماوراء الزاب .

واشتد مرض السلطان بحران في شوال ، وأيس منه ، وأرجف بموته ، ووصل اليه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها ، واستدعى المقدمين من الأمراء من البلاد ، فوصلوا اليه . وعزم الملك العادل على استحلاف الناس لنفسه.

وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعا في ملك الشام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرق على أحداثها مالا ، وسار إلى حمص ، وجرى من تقي الدين بمصر حركات من يريد أن يستبد بالملك .

وتماثل السلطان ، وبلغه ذلك كله ، وأركب ، فرآه الناس ، وفرحوا ، وابتنى دارا ظاهر حران فجلس فيها حين عوفي ، فسميت دار العافية . ولما عوفي رد على مظفر الدين الرها ، وأعطاه سنجقا ، وأحضر رسولي الموصل ، وحلف لهما على ماتقرر في يوم عرفة .

وبلغه موت ابن عمه ناصر الدين ، صاحب حمص ، ورحل عن حران الى حلب ، وصعد قلعتها يوم الأحد ، رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأقام بها أربعة ايام ، ثم رحل الى دمشق ، فلقيه «أسد الدين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار الى دمشق .

وسير الى «الملك العادل» ، وطلبه اليه الى دمشق ، فخرج من حلب جريدة ، ليلة السبت الرابع والعشرين ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين . فوصل اليه الى دمشق ، وجرت بينهما أحاديث ، ومراجعات استقرت على أن الملك العادل يطلع الى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكه ، ويسلم حلب الى الملك «الظاهر غازي» ، وينزل الأفضل الى دمشق من مصر ، وينزل تقي الدين ايضا منها .

وكان الذي حمله على إخراج الملك العادل من حلب ان علم الدين سليمان بن جندر كان بينه وبين الملك الناصر صحبة قديمة ، قبل الملك ، ومعاشرة ، وانبساط ، وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويقدم عليه غيره .

فلما عوفي الملك الناصر سايره يوما «سليمان» ، وجرى حديث مرضه ، وكان قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد ، فقال له «سليمان بن جندر»: «بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنت خارجا الى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة؟». قال: «وكيف ذلك؟» — وهو يضحك — . قال:

«اذا أراد الطائر ان يعمل عشا لفراخه ، قصد أعالي الشجرة ، ليحمي فراخه ، وأنت سلمت الحصون الى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ،

هذه حلب ، وهي ام البلاد بيد أخيك ، وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد ابن أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد». فقال له: «صدقت ، وأكتم هذا الأمر».

ثم أخذ حلب من أخيه ، وأعطاها ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطى

الملك العادل بعد ذلك حران ، والرها وميافارقين ، ليخرجه من الشام ، ويتوفر الشام على أولاده .

فكان ما كان ، وأخرج «تقي الدين» من مصر ، فشق عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسير الملك العادل «الصنيعة» لاحضار أهله من حلب وسار «الملك الظاهر» - قدس الله روحه - الى حلب ، وسير في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا» (٣٦٤) ، وولاه قلعة حلب ، واوصاه بتربية الملك الظاهر ، وأخيه الملك الزاهر ، وحسام الدين بشارة ، صاحب بانياس - وولاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرار «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاء ، في كل شهر أربعة آلاف دينار . وكل يوم قباء وكمه (٣٦٥) ، وعليق دوابه من الأمراء ، وخبزه من الأمراء ، واستمرت هذه الوظيفة ، الى سنة ست وثمانين الى رجب .

فورد كتاب الملك الناصر الى ولده الملك الظاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الاقطاعات ، وأن البلد بلده ، وكان القاضي الزبداني يكتب له ، فلم يعجبه ، فانصرف على حال غير محمودة .

وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرت حكاية مستملحة عنه ، فأثبتها :

أخبرني الزكي احمد بن مسعود الموصلي المقرىء ، قال: كنت أؤم بعلم الدين سليمان بن جندر ، فاتفق أن خرجت معه الى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، فقال: كنت ومجد الدين أبو بكر بن الداية والملك الناصر صلاح الدين ، تحت هذه الشجرة ، ونور الدين إذ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج فقال مجد الدين : كنت اتمنى أن نور

الدين يفتح حارم ، ويعطيني إياها ، فقال صلاح الدين: أتمنى على الله مصر ، ثم قالا لي: تمن أنت شيئا ، فقلت: إذا كان مجد الدين صاحب حارم وصلاح الدين صاحب مصر ، ما أضيع بينهما ، فقالا: لا بد من أن تتمنى شيئا ، فقلت: إذا كان ولابد من ذلك فأريد «عم».

فقدر الله نور الدين كسر الفرنج ، وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين ، وأعطاني «عم». فقال صلاح الدين: أخذت أنا مصر والله ، فإننا كنا ثلاثة ، وتمنى «مجد الدين» حارم ، وأخذها ، وتمني علم الدين «عم» وأخذها .وقد بقيت امنيتي. فقدر الله تعالى: أن فتح أسد الدين مصر ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين وهذا من أغرب الاتفاقات .

وزوج السلطان الملك الناصر ولده «الملك الظاهر» ، في هذه السنة ، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل». ودخل بها يوم الأربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان. ثم إن السلطان عزم على قصد «الكرك» مرة أخرى فبرز من دمشق ، في النصف من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وسير الى حلب يستدعي عسكرها ، فاعتاق عليه ، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية» ، وبلاد «ابن لاون» ، وذلك أنه كان قد مات ، وأوصى لابن اخيه بالملك .

وكان الملك المظفر تقي الدين بحماة ، فسير اليه السلطان ، وأمره بالدخول الى بلاد العدو ، فوصل الى حلب في سابع عشري محرم ، ونزل في دار «عفيف الدين بن زريق» (٣٦٦) ، وأقام بها الى أن صالحهم ، في العشر الأواخر من شهر ربيع الأول ، ثم سار حتى لحق السلطان ، وأما السلطان فانه سار الى رأس الماء (٣٦٧) واجتمعت اليه العساكر الاسلامية من الموصل ، والشرق ، ومصر ، والشام ، «بعشترا» ، بعد ان أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج على الحاج ، فأقام قريبا

من « الكرك» مشغلا خاطره ، ليلزم مكانه الى أن وصل الحاج ، وتقدم الى الكرك ، وبث سراياه ، فنهبوا بلدها وبلد «الشوبك» ، وخربوه .

وأرسل الى ولده الملك الافضل ، فأخذ قطعة من العسكر ، فدخل الى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخرج اليهم جمع من الداوية والاسبتارية ، فظفروا بهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر الباقون ، وقتل مقدم الاسبتار .

وعاد السلطان الى العسكر ، وعرض العسكر قلبا وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجاليشية وساقة ، وعرف كلا منهم موضعه ، وسار على تعبئة ، فنزل بالاقحوانة (٣٦٨) بالقرب من طبرية ، وكان القمص صاحبها(٣٦٩) قد انتمى الى السلطان ، لخلف جرى بينه وبين الفرنج . فأرسل الفرنج اليه البطرك والقسوس والرهبان ، وتهدده بفسخ نكاح زوجته ، وتحريمه ، فاعتذر ، وتنصل ، ورجع عن السلطان اليهم ، ثم ساروا كلهم بجموعهم الى «صفورية» (٣٧٠).

فرحل السلطان ، يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ، وخلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم الى الفرنج ، فلم يخرجوا من خيمهم ، فنزل ، وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابلة الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل الى طبرية جريدة ، وقاتلها ، وأخذها في ساعة من نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدموا إلى عساكر المسلمين ، فعاد السلطان الى عسكره ، والتقى الفريقان ، وجرى بينهما قتال ، وفرق بينهما الليل . وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحرض بعضهم بضعا .

فلما كان صباح السبت لخمس بقين من الشهر ، طلب كل من الفريقين موضعه ، وعلم المسلمون أن «الأردن» من ورائهم ، وبلاد القوم بين أيديهم ، فحملت العساكر الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة واحدة ، فهرب القمص في أوائل الأمر نحو «صور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، فلم يزل سقيما حتى مات في رجب .

وأحاط المسلمون بالباقين من كل جانب ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينج منهم أحد . واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين – وحطين : قرية عندها قبر شعيب عليه السلام – فضايقهم المسلمون على التل ، وأوقدوا النيران حولهم ، فقتلهم العطش ، وضاق الأمر بهم حتى استسلموا للأسر ، فأسر مقدموهم وهم : الملك كي ، والبرنس أرناط صاحب الكرك وأخو الملك ، وابن الهنفري ، وأولاد الست (٣٧٢) ، وصاحب جبيل ، ومقدم الداوية ، ومقدم للاسبتار ، وأمم لايقع عليها الاحصاء ، حتى كان الرجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجيا ، في حلقهم حبل .

وأسروا من المصاف ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين الفا من الفرنج ، ما بين رجل ، وأمرأة ، وصبي . وقتل من المقدمين وغيرهم خلق لا يحصى ، ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا الى الساحل مثل هذه الوقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصلبوت ، وهو قطعة خشب مغلفة بالذهب ، مرصعة بالجوهر ، يزعمون أن ربهم صلب عليها ، وضربت في يديه المسامير ، احضروه معهم المصاف تبركا به ، ورفعوه على رمح عال .

فأما مقدم الداوية والاسبتار ، فاختار السلطان قتلهم فقتلوا ، وأما الملك «كي» ، فإنه أكرمه ، وجلس له في دهليز الخيمة ، واستحضره ، وأحضر معه « البرنس أرناط »، وناول

الملك «كي» شربة من جلاب بثلج ، فشرب منهـا ، وكان على أشـد حال من العطش ، ثم ناول الملك بعضها «ابـرنس أرناط» ، فقـال السلطان للترجمان: « أنت الذي سقيته ، والا ما سـقيته أنا ». وأراد بذلك عادة العرب ان الأسير إذا أكل أو شرب ممن اسره أمن .

وكان السلطان قـد نذر مـرتين إن أظفـره الله بـه أن يقتله : إحداهما لما أراد المسـير الى مـكة والمدينة ، وبعثـرة قبـر النبي – صلى الله عليه وسلم .

والمرة الأخرى ان السلطان كان قد هادنه ، وتحـالفا على أمـن القوافل المترددة من الشـام الى مصر ، فـاجتاز بـه قـافلة عظيمة ، غزيرة الاموال ، كثيرة الرجـال ، ومعهـا جمـاعة مـن الأجناد ، فغدر بهم الملعون ، واخذهم وأموالهم وقال لهم: «قـولوا لمحمـد يجـيء وينصركم» فبلغ ذلك السـلطان وسـير اليه ، وهدده ، ولامه ، وطلب منه ردها فلم يجـب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به .

فالتفت السلطان الى «ارناط» ، وواقفه على ماقال ، وقـال له: «ها أنا أنتصر لمحمد». ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعـل . فسـل السيف ، وضربه به ، فحل كتفه ، وتمـم عليه مـن حضر ، وأخـذ ورمي على باب الخيمة .

فلمـا رآه الملك على تلك الصـورة لم يشـك في أنه يثني به ، فاستحضره ، وطيب قلبه ، وقال: «لم تجـر عادة الملوك أنهـم يقتلون الملوك ، ولكن هذا طغى ، وتجاوز حده فجرى ما جرى».

ثم إن السلطان أصبح يوم الأحد ، الخـامس والعشرين ، فنزل على «طبرية» ، وتسلم قلعتها بالأمان من صاحبتها ، ثم رحل منهـا يوم الثـلاثاء الى «عكا» ، فنزل عليهـا يوم الأربعـاء سـلخ الشـهر ، وقـاتلها يوم الخميس مسـتهل جمـادى

الأولى ، فأخذها ، واستنفذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، واخذ جميع ما فيها ، وتفرق العسكر .

وفتح بعدها : قيسارية ونابلس ، وحيفا ، وصفورية ، والناصرة ، والشقيف ، والفولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكانها ، وأموالها .

ورحل السلطان من عكا الى «تبنين» ، وقاتلها وفتحها يوم الاحد ثامن عشر جمادى الاولى ، ثم رحل منها الى «صيدا» فتسلمهايوم الاربعاء العشرين منه ، ثم سار الى «بيروت» ، ففتحها في التاسع والعشرين منه ، ثم سلمت «جبيل» إلى أصحابه وهو على بيروت .

ثم سار الى «عسقلان» ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد أن تسلم في طريقه مواضع «كالرملة» «ويبنا» و«الداروم». وأقام على عسقلان ، وتسلم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنطرون ، وبيت لحم ، ومسجد الخليل عليه السلام .

وسار الى بيت «المقدس» ، فنزل عليه يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستين ألفا غير النساء والصبيان ، ثم انتقل الى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزحف ، والقتال ، وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور ، مما يلي «وادي جهنم» ، في قرنة شمالية .

ولما رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأن جميع البلاد التي افتتحها السلطان صار من بقي من اهلها الى «القدس» ، خرج عند ذلك اليه ابن بارزان (٣٧٤) ، ملقيا بيده ، ومتوسطا لأمر قومه ، حتى استقر مع السلطان خروج الفرنج عنها بأموالهم

وعيالهـم ، وأن يؤدوا عن كل رجـل منهـم عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسـة دنانير ، وعن كل طفـل لم يبلغ الحلم دينارين ، ومن عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصل من ذلك عن مـن خـرج منهـم مائتين وستين الف دينار صورية ، واسترق بعد ذلك منهم نحو ستة عشر ألفا .

وكان السلطان قد رتب في كل باب أميرا أمينا لأخـذ مـا اسـتقر عليهـم ، فخـانوا ، ولم يؤدوا الامـانة ، فـانه كان فيه ، على التحقيق ، العدة التي ذكرناها ، وأطلق «ابن بارزان» ثمـانية عشر الف رجل من الفقراء ، وزن عنهم ثلاثين الف دينار .

وتسلم القدس في يوم الجمعـة السـابع والعشرين ، مـن شـهر رجب ، وأقيمت صلاة الجمعة فيه ، في الجمعة التي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس محيي الدين بن زكي الدين – وهو يومئذ قـاضي حلب – وأزيلت الصلبان من قبة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل ما كان بالمسجد الاقصى من حوانيت الخمارين ، وهدمت كنائسـهم والمعابد ، وبنيت المحاريب والمساجد .

وأقام السلطان على «القـدس» ، ثـم رحـل عنه ، في الخـامس والعشرين من شعبان ، فنزل على صور بعد ان قدم عليه ولده «الملك الظاهر» ، من حلب في ثامن عشر شـهر رمضـان ، قبـل وصـوله اليها .

وكان نزوله على «صـور» في ثـاني عشرين مـن شـهر رمضان ، وضايقها ، وقاتلها ، واستدعى اسطول مصر ، فـكانت منه غرة في بعض الليالي ، وظنوا انه ليس في البحـر مـن يخافونه ، فما راعهم الا ومراكب الفـرنج مـن «صـور» قـد كبستهم ، واخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، فانكسر نشـاط

السلطان ، ورحل عنها في ثاني ذي القعدة ، وأعطى العساكر دستورا ، وساروا الى بلادهم (٣٧٥) .

وأقام هو بعكا ، الى أن دخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وكان من «بهونين» (٣٧٦) قد ارسلوا الى السلطان ، وهو «بصور» ، فأمنهم ، وسير من تسلمها ، وسار السلطان فنزل على حصن «كوكب» (٣٧٧) في أوائل المحرم من السنة ، وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج غرتهم ليلا ، وكبسوهم بعفر بلا (٣٤٨) وقتلوا مقدمهم «سيف الدين» أخا «الجاولي» فسار السلطان ، ونزل عليها بمن كان قد بقي من خواصه بعكا ، وكان ولده «الملك الظاهر» قد عاد عنه الى حلب ، وعاد أخوه «الملك العادل» الى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصن منيع ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي محاصرا .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النصف من ربيع الأول الى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس» (٣٧٩) ، ووصل اليه «عماد الدين زنكي» صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تل قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسير إلى الملك الظاهر إلى حلب والى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين» قبالة «أنطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت اليه العساكر في هذه المنزلة .

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، على تعبئة لقاء العدو ، ودخل الى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا» و«العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم ، ووصل الى «أنطرطوس»(٣٨٠) في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ، ونظر إليها ، وسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، وأحدقت

العساكر بها من البحر الى البحر ، وزحف عليها ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذها بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما بها ، وخرب سور البلد .

وسار الى حلب ، فوصل اليه ولده «الملك الظاهر» في أثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيزين» . ووصل الى «جبلة» في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتم نزول العسكر حتى تسلم البلد ، سلمها اليه قاضيها واهلها ، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلموها وبقيت القلعة ممتنعة ، وقاتل القلعة ، فسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

وسار عنها الى «اللاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشري جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرق الليل بين الناس ، وأصبح المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين ، ونقبوا في السور مقدار ستين ذراعا ، فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى ،وسلموها يوم السبت .

ورحل عن اللاذقية ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون (٣٨١) ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشري جمادى الأولى ، واستدار العسكر حولها ، واشتد القتال عليها من جميع الجوانب .

فضربها منجنيق ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعة من سورها تمكن الصاعد الصعود منها ، وزحف عليها السلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان الا ساعة حتى ارتقى المسلمون على أسوار الربض ، فهجموه ، فانضم اهله الى القلعة ، فقاتلهم المسلمون فصاحوا الأمان ، وسلموها على صلح القدس .

وأقام السلطان بها حتى تسلم عدة قلاع ، «كالعيد» و«قلعة

الجماهريين» و«حصن بلاطنس» . ثم رحل ونزل على بكاس (٣٨٢) وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهـر يخرج من تحتها ، يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شـاطىء «العاصي» وصعد السلطان جريدة الى القلعة ، وهي على جبل مـطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جـانب وقـاتلها قتـالا شـديدا بالمنجنيقات والزحف ، وفتحها يوم الجمعة تاسع جمـادى الآخـرة عنوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيهـا . وكان لها قلعة تسمى «الشغر» قريبا منها يعبر من احداهما الى الأخـرى بجسر ، فضربها بالمنجنيقات الى أن طلبوا الأمـان ، ثـم سـلمها اهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر .

ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظـاهر الى قلعـة تسمى «سرمانية» يوم السبت ، فقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر المذكور .

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلهـا في ايام الجمـع ، وكذلك القدس يوم الجمعة .

ثم سار السلطان جريدة الى «حصن برزية» وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة ، ويحيط به أودية من سـائر جـوانبه ، وعلوهـا خمسمائة ذراع ونيف وسبعون ذراعا ، فتـأمله وقـوى عزمـه على حصاره ، واستدعى الثقل وبقية العسكر ، يوم السبت رابع عشري جمادى الآخرة . فنزل الثقل تحت الجبل .

وفي بكرة الأحد صـعد السـلطان جـريدة ، مـع المقاتلة ، والمنجنيقـات ، وآلات الحصـار الى الجبـل ، فـأحدق بالقلعة ، وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلا ونهـار ، ثـم قسـم العسكر على ثلاثة أقسام ، يوم الثلاثاء ، ورتـب كل قسـم يقـاتل شطرا من النهار ، بحيث لا يفتر القتال عليها .

وحضرت نوبة السلطان ، فتسلمها بنفسه ، وركب ، وصـاح في

الناس ، فحملوا حملة الرجـــل الواحــــد ، وطلعـــــوا الى الأسوار ، وهجموها عنوة ، ونهبوا جميع ما فيهـا ، وأسروا مــن كان فيها ، وعاد السلطان الى الثقل ، وأحضر صاحبها ومعه مــن اهله سبعة عشر نفرا ، فـــرق له الســـلطان ، وأطلقـــه مـــع جماعته ، وأنفذهم الى صاحب «انطاكية» ، استمالة له ، فانهم كانوا من اهله (٣٨٣).

ثم سار السلطان حتى نزل على «درب ساك »، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلها قتالا شديدا بـالمنجنيقات ، وأخـذ النقب تحت برج منها ، فوقع ، وحماه الفرنج بالرجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كل من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلما قتل منهم واحدا اقاموا غيره مقامه ، عوضا عن السور .

ثم طلبوا الامان على ان ينزلوا بأنفسهم وثيابهـم لا غير ، بعـد مراجعتهم أنطاكية ، وتسـلمها السـلطان ، يوم الجمعـة الثـاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشـهر ، ونزل في مـرج «بغراس» ، وأحدق بعض العسكر «ببغراس» ، وأقـام يزكا (٣٨٤) على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منهـا ، وقـاتل البلد مقاتلة شديدة ، حتى طلبـوا الامـــان ، وشرطـوا اســـتئذان انطاكية ، وتسلمها في ثاني شعبان من السنة (٣٨٥)

وفي ذلك اليوم عاد الى الخيم ، وراسله أهـل «انطـاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشـدة ضـجر العسـكر ، وقلق عمـــاد الدين – صاحب سنجار – لطلب العود إلى بلاده ، واستقر الصلح بينه وبين صاحب أنطاكية على أنطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم ، وأن يكون ذلك إلى سبعة اشهر ، فإن جاءهم من ينصرهـم والا سـلموا البلد الى السلطان .

وطلبه ولده «الملك الظاهر» ان يتوجه معه الى حلب ، فسار معه اليها ، ودخلها في حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة «الملك الظاهر» ، وأنعم «الملك الظاهر» على جماعة كثيرة من عسكره ، فأشفق السلطان عليه ، وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد» ، ونصب عليها المناجيق ، وداومها بالقتال حتى تسلمها بالامان في رابع عشر شوال ، وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لازموا الحصار هذه المدة العظيمة ، وصابرهم من بها من الفرنج ، حتى فنيت أزوادهم وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، فراسلوا أخا السلطان « الملك العادل » - وكان قريبا منهم ، منازلا بعض القلاع - فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، وتسلمها ، وتسلم ايضا «الشوبك» ، وغيرها من القلاع التي تجاورها .

ثم سار السلطان من «صفد» الى «كوكب» (٣٨٦) ، فنزل على سطح الجبل ، وأحدق العسكر بالقلعة ، وضايقها بالقتال ، حتى تمكن النقب من سورها ، فطلب أهلها الأمان فتسلمها في النصف من ذي القعدة (٣٨٧).

وسار بعد ذلك بمدة الى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وسار الى «عسقلان» مودعا أخاه «الملك العادل» وكان متوجها الى مصر ، فأخذ من أخيه عسقلان ، وأعطاه «الكرك».

وتوجه لتفقد البلاد الساحلية - ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة - وهو بعكا . وتوجه الى دمشق فدخلها مستهل صفر .

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الأول ، الى «مرج فلوس» (٣٨٨) محاصرا «لشقيف أرذون» (٣٨٩) ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» - وهو قريب من شقيف أرذون - في سابع عشر ربيع الأول .

وضاق على الفرنج المجال ، وقلت أزوادهم . فنزل «أرناط» صاحب الشقيف اليه - وكان عظيما فيهم ذا رأي ودهاء ، فأظهر الطاعة والمودة للسلطان ، ووعده بتسليم المكان وقال: «أريد أن تمهلني حتى أخلص أولادي وأهلي من الفرنج ، وأسلم إليك الحصن ، وتعطيني موضعا أسكن فيه بدمشق ، وأقطاعا تقوم بي وبأهلي وتمكنني الآن من الاقامة بالشقيف ، حتى أخلص أولاد».
فأجابه السلطان إلى ذلك ، وجعل يتردد إلى خدمته .

وكانت الهدنة بين انطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره مشغول بذلك ، وقد سير الى تقي الدين ان يجمع من يقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء انطاكية .

وبلغه أيضا أن الفرنج قد تجمعوا «بصور» في جموع عظيمة ، وكان الأمر قد استقر مع «أرناط» أن يسلم إليه «الشقيف» ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأن «المركيس» لم يمكنهم من المجيء اليه ، وطلب التأخير مدة أخرى ، فعلم السلطان مكره ، فأخذه وحبسه ، فأجاب الى التسليم ، فسير مع جماعة من العسكر الى تحت «الشقيف» ، فأمرهم بالتسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسيسا حدثه بلسانه وعاد بما قال اليهم ، فاشتدوا في المنع .

فعلم حينئذ أن ذلك كان تأكيدا مع القسيس ، فأعادوه الى السلطان ، وسيره الى «بانياس» ، وتقدم الى «الشقيف» فحصره ، وضيق عليه ، وجعل عليه من يحفظه ، الى أن سلمها ، من بها بعد ان عذب صاحبها أشد العذاب ، واشترطوا اطلاق صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين (٣٩٠) .

وأما بقية الفرنج ، فان ملكهم كان وعده السلطان أنه متى سلم «عسقلان» أطلقه ، فاتفق أنه اطلقه «بأنطرطوس» ، حين فتح تلك الناحية ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفا أبدا فنكث .

واتفق مع « المركيس » صاحب « صور » وعسكرا مع جموع الفرنج على باب « صور » . واتفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت النكاية فيها سجالا بين الفريقين ، بحيث تحاجز الفريقان في آخر تلك الأيام ، من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار الفرنج إلى حصار « عكا » ، فنزلوا عليها في يوم الأربعاء ثامن شهر رجب . وسار السلطان فنزل عليهم بظاهر « عكا » ، ومنعهم من الاحاطة بسورها ، فكان نازلا على قطعة منها تلي الشمال ، ومعه الباب الشمالي من « عكا » مفتوحا ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب « عين البقر » ، وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

وجرت بينهم وبين الفرنج وقعات متعددة ، من أعظمها خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل ، فوقف المسلمون ايضا على تعبئة ، وتحركت ميسرة الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفر ، فتراجع عنهم ، وامده السلطان بأطلاب عدة من القلب ، فخف القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه فحملوا على القلب فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتهم الى « الاقحوانه » ومنهم من دخل دمشق .

ووصل الفرنج إلى خيم السلطان ، فقتلوا ذلك اليوم « أبا علي الحسين بن عبد الله بن رواحة » . وكان قد مدح النبي صلى الله عليه وسلم ــ ووقف بازاء قبره ، وأنشد قصيدته ، وقال : « يارسول الله إن لكل شاعر جائزة وقرى ، وإني أطلب جائزتي الشهادة ، فاستجاب الله دعاءه » .

وقتل ذلك اليوم مكبس السلطان وطشت داره(٣٩١) ، وثبتت ميسرة المسلمين ، وصاح« السلطان » فيمن بقي من المسلمين : « يال الاسلام » ، وعادت ميسرة الفرنج إلى عسكره ، فتكاثر

الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة الاف ، ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين نفرا .

ثم إن الحرب اتصلت بينهم ليلا ونهارا ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشتاء ، فلقي المسلمون منه شدة .

وحضروا إلى السلطان ؛ وأشاروا عليه بالرحيل عن « عكا » إلى « الخروبة »(٣٩٢) ، ليتفسح ما بين العسكرين . وكان ذلك للضجر من تلك المواقفة ، وملازمة القتال ، حتى أوهم السلطان (وقالوا له :)(٣٩٣) « إنك قد ضيقت على الفرنج مجال الهرب ، وحلت بينهم وبين صور ، وطرابلس ، ولو أفرجت لهم عن الطريق لما وقفوا بين يديك » فرحل السلطان إلى « الخروبة » .

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا ، وأحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتصل ما بينهم وبين « صور » ، وجاءت مراكبهم منها ، فحصرت « عكا » من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المذخورة ، بعد أن كان من الميرة المجلوبة .

وتوفر الفرنج على قتال أهل « عكا » بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ، وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلا هلاليا : طرفاه متصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سورا مما يليهم ، وشرفوه بالجذويات والطوارق(٣٩٤) ، والتراس .

واتصلت الأمداد إليهم من البحر ، بالأقوات والرجال والأسلحة ، حتى كان ينقل إليهم البقول الرطبة ، والخضروات من جزيرة « قبرس » فتصبح عندهم في اليوم الثاني .

وسير السلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام يستنفر

ويستصرخ ، واتصلت الاخبار بوصول ملك الالمان إلى « القسطنطينية » في ستمائة الف رجل ، منهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة الف سوقة وأتباع وضياع .

وحكي أنه كان في عسكره خمسة وعشرون الف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات ، فأسقط في أيدي المسلمين ، واستولى اليأس عليهم ، وتعلقت آمالهم أنه ربما مانعه من في طريقه من « الأوج » (٣٩٥) ومن قلج أرسلان (٣٩٦) ، فلم يتفق شيء من ذلك ، بل سار ، وقطع البلاد ، حتى وصل إلى المصيصة .

وأرسل الله عليهم وباء عظيما وحرا عظيما ، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر دوابهم ، وذبح البقر الذي يجر العجل ، فكان يموت في كل يوم ألوف من الرجال ، ويسابقون الموتان إلى ما معهم من الدواب الحاملة للأثقال ، حتى وصلوا إلى « انطاكية » ولم يبق منهم إلا دون العشر .

وكان في جملة من مات منهم ملكهم الذي غزا الشام ، في سنة أربع وأربعين ، وحاصر دمشق ، مات غريقا في نهر « بطرسوس » يقال له « الفاتر » ، نزل ، وسبح فيه فغرق ، وقيل بأنه سبح فيه وكان الماء بارداً ، فمرض ومات ، وأخذ وسلق في خل ، وجمعت عظامه ليدفن في البيت المقدس .

وأوصى بالملك لابنه مكانه ، واتفقت الكلمة عليه ، فمرض « بالتينات » (٣٩٧) ، وأقام بها ، وسير « كند أكرا » على عسكره ، ووصل إلى « أنطاكية » ، فمات ذلك « الكند » بها .

وخرج البرنس إلى الملك ، واستدعاه إلى أنطاكية طمعا في أنه يموت ويأخذ ماله ، وكان قد فرق عسكره ثلاث فرق لكثرته ، فالفرقة الأولى : اجتازت تحت « بغراس » مع الكند المذكور ، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتي رجل ، ووقع أيضا على جمع عظيم

خرجوا للعلوفة ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأسروا زهاء خمسمائة نفر .

ولما وصل ملك الألمان إلى أنطاكية أخذها من صاحبها ، وأودع فيها خزائنه ، وسار منها يوم الاربعاء خامس وعشرين من شهر رجب ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، متوجها إلى عكا ، وفشا فيهم الوباء حتى لم يسلم من كل عشرة واحد ، ولم يخرجوا من « أنطاكية » حتى ملؤوها قبورا .

ووصل الملك الى « طرابلس » ، في نحو ألفي فارس ، لو صادفهم مائة من المسلمين لأخذوهم ، ووصلوا الى « عكا » رجالة ضعفاء ، لايدفعون ، ومات ابن ملك الالمان على « عكا » في ذي الحجة من سنة ست (٣٩٨) .

ووصل إلى المسلمين « بعكا » الأسطول المصري في خمسين شينيا غنم في طريقه إليها بطس ومراكب فرنجيه ، أسر رجالها وغنم أموالها ، وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكا ،وتماسكت بما دخل فيها من الأقوات والأسلاح ، وكان دخولها في يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ست وثمانين.

وفي هذا الشهر ، جهز الفرنج بطسامتعددة ، لمحاصرة « برج الذبان » - وهوعلى باب ميناء عكا - فجعلوا على صواري البطس برجا ، وملؤوه حطبا ونفطا ، على أنهم يسيرون بالبطس ، فاذا قاربت « برج الذبان » ولاصقته ،أحرقوا البرج ·الذي على الصاري ، وألصقوه ببرج الذبان ، ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذونه .

وجعلوا في البطسة وقودا كثيرا ، ليلقوه في البرج اذا اشتعلت النار فيه . وعبؤوا بطسا ملؤوها حطبا ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

وجعلوا في بطسه ثالثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لايصل إليهم نشاب ، ويكونون تحت القبو ، ويقدمون البطسة إلى البرج ، فاوقدوا النار ، وضربوا الذفط ، فانعكس الهواء عليهم ، فاحترقت البطسة ، وهلك من فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها المسلمون ، وانقلبت الثالثة التي فيها القبو بمن فيها .(٣٩٩) .

وفي هذه السنة ، في ربيع الأول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة ، والجروخ ، والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف « بعلي بن النحاس » ، فرماها من السور ، بقدور نفط متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ، كانت سببا لاحراق تلك الآلات وما فيها ومن فيها .

وا شتد حصار الفرنج على عكا ، ومل من بها من الأجناد المقام ، ووصل إليهم من مصر مراكب فيها غلة ، فاتلفوها بالاضاعة وبالتغريق ، تبرما بالمقام .

وفي ربيع الأول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها الوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك « الفرنسيس » والآخر بملك « انكتير » ، فاشتدت وطأتهما على عكا ، وعظمت نكايتهما ، في سورها ، وقل ما بها من الميرة والسلاح .

فأمر السلطان بأن أوسق مركب عظيم من « بيروت » ، وا ستكثر فيه من السلاح والأقوات والمقاتلة ، وأظهر عليه زي الفرنج وشعارهم ، وأخذ قوم من أسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين ، فتركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج ، وتزيوا بزي الفرنج ، وحلقوا شعورهم ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليبا .

وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدة من بلادهم ، وأقلعوا

داخلين إلى مرسى « عكا » ، مسلمين على الفرنج بلغتهم ، مبشرين لهم بأن وراءهم من المدد ، من تشتد به منتهم ، وتعز به نصرتهم ، فلم يرتب المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى (٤٠٠) .

فدخلوا إلى « عكا » ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتمت هذه الحيلة ، وكانت من الفرص التي لاينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطمعوا في أخرى مثلها ، فجهزوا مركبا عظيما من « بيروت » أيضا ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار ، وجعل فيه سبعمائة من مقاتلة المسلمين .

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الأرصاد ، فمكثوا أياما يلجون في البحر ، ويقاربون عكا ، فلا يجدون في الدخول مطمعا ، حتى صادفتهم مراكب « الانكيتر » في حال قدومه من بلاده ، في إحدى وعشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلته ، فغرق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأن الفرنج إن ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الاسر والذلة ، عمد رجل حلبي حجار من أهل « باب الاربعين »(٤٠١) ، يقال له « يعقوب » وكان مقدم الجماعة إلى سفل المركب وأخذ قطاعته ، وخسف المركب ، ودخل فيه الماء ، وغرق ، ولم يظفر الكفار منه بشيء ، سوى رجلين تخطفهما الفرنج من رأس الماء ، واحتملوهما في مراكبهم ، فأخبرا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى « عكا » قطع قلوب من بها ، وأسقط في أيديهم ، وهرب جماعة من الأمراء منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوب من بقي بها ، وعظمت النكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأذن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه مـن الآلات ، والعدد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مـائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخـرجوا سـالمين بأنفسهم ، وذراريهـم ، وأمـوالهم ، وقمـاشهم ، وضـمنوا « المركيس » عشرة آلاف دينار ، لأنه كان الواسـطة ، ولأصـحابه أربعة آلاف .

وحلف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلموا « عكا » ، في يوم الجمعـة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كل من كان بها من المسلمين ، وفرقوا بينهـم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتهم ، ثم قتلوا منهـم ألفين ومائتين صبرا ، على دم واحد ، في يوم واحد ، حيث تـوهموا فيهم أنهم فقراء ، ليس لهم مفاد ، وأسروا من رجوا منه أن يفتـدى بمال ، أو يكون من السلطان على بال .(٤٠٢) .

وأقـاموا بعـكا نحـو أربعين يومـا ، و « الملك الناصر » على حصارهم ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى « عسقلان » ، فسـار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكا إلى « يافا » ، وهي مسيرة يوم واحد ، في شهر كامـل ، لمضـايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناضلة ومطاردة ، فلما أشفق السلطان من أخذهم « عسقلان » سبق إليها فهدمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

فأقام الفرنج « بيافـا » ، وانتقـل السـلطان إلى « الرملة » ، وشرع الفرنج في بناء « يافا » وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمـارتها ، ثـم سـاروا إلى « الداروم » ، فحصروها ثلاث مرات ، وأخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

وعاد السـلطان ، في ثـالث ذي الحجـة ، بـالعساكر الى البيت

المقدس ، وعمره ، وحصنه ، ووعر طريقه ، وعمق خندقه ، وجعل « الملك العادل » ، بازاء الفرنج « بالرملة » .

وتوفي الملك المظفر تقي الدين ، « على مناز كرد » ، وهو محاصر لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب « خلاط » ، وكسرة تقي الدين .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بالبيت المقدس ، والملك العادل في الرملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح ، ما بين عكا و « الداروم » ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ، خوفا من أن يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتنقطع مادتهم .

وعصى فيها الملك المنصور ابن تقي الدين على السلطان بميافارقين ، وحينى (٤٠٣) ، وحران ، والرها ، وسميساط ، والموزر ، فسير إليه ابنه الملك الأفضل وأقطعه تلك البلاد الشرقية ، فسار إلى حلب ومعه أخوه « الملك الظافر » ، ووصلا إلى حلب . فأرسل السلطان أخاه « الملك العادل » ، جريدة ، في عشرين فارسا من مماليكه ، وأمره أن يرد « الملك الأفضل » ، ويطيب قلب « الملك المنصور » ، ويعطيه ما يريد ، فوصل « الملك العادل » ، واجتمع بالملك المنصور ، وقرر أمره .

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ، لمدة ثلاث سنين وخمسة أشهر ، على أن سلموا إلى المسلمين « عسقلان » ، و« غزة » ، و « الداروم » . واقتصروا من البلاد الساحلية على ما بين « صور » و « يافا » بعد أن فتح السلطان « يافا » ، وبقي القلعة .

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلا منهم

يعرف « بالكند هري » ، وزوجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقر عندهم أن يجعلوها على كل مرة من ملكوه (٤٠٤) .

وسار السلطان من القدس إلى بيروت في شوال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية « الابرنس » وولده « قومص طرابلس » ؛ وخلع عليهما ، وجدد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

وفي سادس عشري ذي القعدة ، دخل إلى دمشق ، بعد مدة تقارب أربع سنين ، وكان « الملك الظاهر » قد ودعه من « القدس » ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان ، وأخبرني القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ودعه ، ثم سير إليه ، واستأذنه في مراجعته في أشياء فأدخله عليه ـ وكنت حاضرا ـ ثم قال للملك الظاهر : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير : وآمرك بما أمرك الله به ،فانه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لاينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولاتحقد على أحد ، فان الموت لا يبقي على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فانه لايغفر إلا برضاهم ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فانه كريم »

وفي شهر ذي القعدة ، سلم إلى « الملك المنصور » ما كان لأبيه بالشام ، وهو « منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرة النعمان » وانقضت سنة ثمان وثمانين .

والهدنة مع الفرنج مستمرة ، و« الملك الناصر » بدمشق ، « والملك الظاهر » بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الأفضل ، وهو أكبر ولد السلطان ، معه بدمشق .

فمرض السلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر بحمى حادة ، واختلط ذهنه في السابع ، وحبس كلامه ، وانجذبت مادة

المرض إلى دماغه ، وتـوفي ـ رحمـه الله ـ في الثـالث عشر مـن مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السابع والعشرين مـن صفر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وليس في خزانته من المال يوم وفاته سوى دينار واحد صـوري ، وسبعة وأربعين درهما نقرة (٤٠٥) ، ودعوتـه على المنابـر مـن أقصى حضرمـوت في الجنوب إلى أوائل بـلاد « أرانية »(٤٠٦) في الشمال عرضا ، ومن طرابلس الغـرب إلى بـاب همـذان طـولا . ونقودها من الدراهم والدنانير مضروبة باسمه ، وعساكرها مطيعة لأمره ، سائرة تحت لوائه . ومـن جملة ملكه ديار مصر ، والشـام جميعه ، والجزيرة وديار بكر ، واليمن .

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكان وزيره القاضي الفاضل« عبد الرحـيم بن علي البيساني » ، صاحب البلاغة في الكتابة .

واستقر ملك ابنه السلطان « الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » لحلب ، والبيرة ، وكفر طاب ، وعزاز ، وحارم ، وشيزر ، وبارين ، وتل بـاشر . واسـتقل بملك حلب ، وأنعـم على رعيته ، واستمال قلوبهم بالاحسان ، وعمل بوصية أبيه في الافعـال الحسان ، وشارك أهل حلب في سرورهم والحـزن ، وقلد أعناقهـم أطواق الانعام والمنن ، وجالس الكبير منهم والصـغير ، واسـتمال الجليل والحقير .

وكان ـ رحمه الله ـ مع طلاقة وجهه ، من أعظم الملوك هيبـة ، وأشدهم سطوة ، وأسدهم رأيا ، وأكثرهم عطاء ، وكانت الوفود في كل عام تزدحم ببابه من الشعراء ، والقراء ، والفقراء ، وغيرهـم . وكان يوسعهم فضلا وإنعاما ، ويوليهم مبرة وإكراما .

ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد « سيف الدولة بن حمدان » ما اجتمع ببابه – رحمه الله – وزاد على « سيف الدولة » في الحباء ، والفضل والعطاء .

وخرج صاحب ، الموصل « عز الدين » ، باتفاق « عماد الدين » وصاحب ماردين . لاستنقاذ حران والرها ، من يد « الملك العادل » ، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ ونزل بدنيسر .

ونزل « الملك العادل » بحران ، واستنجد بعساكر « الملك الظاهر » و« الملك الافضل » ، فسير الملك الظاهر عسكره ومقدمه الملك المنصور ابن تقي الدين ، ونزل الملك العادل على سروج فافتتحها . ومرض عز الدين ، وعاد الى الموصل عن غير لقاء .

ثم نزل الملك العادل على الرقة ، فأخذها ، وأعطاها ابن أخيه « الملك الظافر » . وسار بالعساكر الى نصيبين ، وأقطع الخابور وبلد القنا ، ثم اصطلحوا في شهر شعبان .

وكان الياروقية ومقدمهم « دلدرم » صاحب « تل باشر » ، قد تكبروا وتحامقوا على الملك الظاهر ، وقصروا في خدمته ، في حياة أبيه . وكانوا يعظمون « بدر الدين دلدرم » ، ويركبون كلهم في خدمته حتى كأنه السلطان ، وكان بايديهم من الاقطاع خير ضياع « جبل السماق » ، وغيرها ؛ وملك الملك الظاهر حلب ، فسلكوا معه من الحماقة ، ما كانوا يسلكونه من قبل ، فاعتقل مقدمهم « دلدرم » في قلعة حلب ، وقيده ، وأخرج الباقين عن حلب ، وقبض اقطاعهم وطلب من « دلدرم » تسليم « تل باشر » فامتنع ، وذلك في سنة تسعين وخمسمائة .

واتفق أن وقع خلاف بين الافضل والملك العزيز ، بسبب اميرين من الناصرية ، احدهما ميمون القصري ، والآخر سنقر الكبير ، وكان بايديهما عدة من القلاع ، فاستشعرا من الملك الافضل أن يقبضهما ، فسارا الى مصر ، وكاشفا « الافضل » بالعصيان .

وطلبا من العزيز الكون في خدمته على أن يذب عما في ايديهما ، فاقطع الملك الأفضل بلادهما ، واقطعهما الملك العزيز نابلس ـ وكانت مقطعة مع ابن المشطوب ـ فامتنع من تسليمها اليهما ، وسار الى الملك الأفضل فوقع الشر بينهما بسبب ذلك .

ونزل الملك العزيز الى دمشق ، في جمادى الآخرة ، وأقطع بلدها ، فسير الملك الافضل الى عمه ، وأعلمه بذلك ، فسار « الملك العادل » من بلاده شرقي الفرات جريدة ، واجتمع بالملك الظاهر غازي بحلب ، واصعده الى قلعة حلب ، وانزله في الدار ، التي فيها ابنة الملك العادل « غازية خاتون » ، زوجة السلطان الملك الظاهر . وطلب من الملك الظاهر موافقته على المسير الى نصرة الملك الافضل ، واصلاح ما في قلوب الملكين من المضاغنة ، فوافقه على ذلك . ثم قال له الملك العادل : « انا ضيفك ، ولا بد للضيف من قرى واطلب ان تكون ضيافتي منك دلدرم » . فأجابه الى ذلك وأطلقه .

وكان « العلم بن ماهان » في خدمة السلطان « الملك الظاهر » في محل الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمه الملك العادل ، فامتنع : وقال : « هذا عمي ، ومحله محل الوالد » . ونزل الملك « بدلدرم » من القلعة فمضى في يومه الى « تل باشر » .

وصعد الملك العادل والملك الظاهر الى نصرة الملك الأفضل ، بعد ان سلم الملك الأفضل الى الملك الظاهر جبلة ، واللاذقية ، وبلاطنس وأعمال ذلك كله ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل ، والملك الظاهر بالملك الأفضل ، وتأخر الملك العزيز عن دمشق .

وجرت بين الملوك الثلاثة مراسلات افضت الى الاتفاق والصلح ، على ان تكون بلاد الملك الأفضل بحالها ، وما كان بيد « ميمون » و « سنقر » ، على حاله ، ويكونان في خدمة « الملك العزيز » . ووقعت الايمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسمائة .

وعاد « الملك العزيز » الى مصر ، و « الملك الظاهر » الى حلب ، والملك العادل الى الشرق .

وفي سنة إحدى وتسعين اتصل القاضي « بهاء الدين أبو المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم » بخدمة « الملك الظاهر » . وقدم اليه الى حلب ، وولاه قضاء حلب ووقوفها ، وعزل عن قضائها « زين الدين ابا البيان بنا » نائب « محيي الدين ابن الزكي » ، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشورة .

ثم إن « الملك الأفضل » استشعر من أخيه « الملك العزيز » ان ينزل الى دمشق ، ويحاصرها ، في سنة احدى وتسعين ، كما فعل في السنة الخالية ، فسار الى « قلعة جعبر » واجتمع بعمه « الملك العادل » . بها ، وفاوضه في الوصول اليه الى دمشق ، لينصره على الملك العزيز ان وصل الى دمشق ، اما بصلح أو بغيره ، فوافقه على ذلك .

وتوجه الملك العادل الى دمشق ، ثم عدل الملك الأفضل الى حلب ، الى أخيه الملك الظاهر ، ووصل اليه الى حلب ، وفاوضه في انجاده على الملك العزيز ، فلم يجد عنده نية صادقة في الحركة معه الى دمشق ، واشترط عليه شرائط من جملتها أن صاحب « حماه » الملك المنصور محمد بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم صاحب « بارين » و « بدر الدين دلدرم بن ياروق » ، صاحب « تل باشر » ، كانوا كلهم في طاعته ، ومضافين اليه ، وبلادهم من جملة بلاد الملك الظاهر ، وأنهم كانوا من جملة اصحابه ، فانحرفوا عنه ، وانضافوا الى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع إليه في دلدرم ، وأطلقه لأجله ، وضمن له عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف الى عمه .

وطلب « الملك الظاهر » أن الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه وبينه من الشرط ، وأن لايعرض لاتباعه المذكورين .

وسار الملك الأفضل الى دمشق ، على أن يقرر مع عمه ما التمسه الملك الظاهر . فلم يتفق للملك الظاهر شيء مما التمسه . فعاد بالكلية

عنهما ، وأرسل الى الملك العزيز ، يحضه ، ويحرضه على قصدهما لأن الملك الافضل مال الى الملك العادل ، والقى أموره كلها اليه .

ووصلت رسل الملك العزيز الى الملك الظاهر ، بموافقته معه ، ومعاضدته . وحلف له الملك الظاهر ، في شهر رجب من السنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان ؛ والاسدية والاكراد مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الافضل ، قد كاتباهم ، فمالوا إليهما لتقدمة الملك العزيز الناصرية عليهم .

وخرج الملك الظاهر ، فنزل بقنسرين ، وعيد بها عيد الفطر ، وعيد الملك العزيز « بالفوار » ، وعزم الملك العزيز على الرحيل الى دمشق ، والنزول عليها ، ورحل أبو الهيجاء السمين والمهرانية ، والأسدية في رابع شوال . وساروا الى دمشق .

ورحل الملك الظاهر من « قنسرين » الى « قراحصار » ، قاصدا حصار منبج - وهي في يد الملك المنصور صاحب حماه - فلما وصل الملك الظاهر الى « بزاعا » ، وصله الخبر بأن العسكر خامر على الملك العزيز ، وأنه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك الافضل خلفه الى مصر ، فعاد الملك الظاهر الى « قراحصار » حتى انسلخ شوال ، ودخل حلب .

ووصله الخبر بأن الملك العادل والافضل ، سارا خلف الملك العزيز الى مصر ، ونزلا على « بلبيس » ، ودخل الملك العزيز الى مصر ، واستقر أمره بها ، وعلم الملك العادل بأنه لايتمشى أمرهما مع الملك العزيز ، فكتب الى القاضي الفاضل ، وطلب الاجتماع به ، فألزمه الملك العزيز بالخروج إليه ، فاجتمع به ، واصلح حاله مع الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن الأسدية . وقال للملك الأفضل : « أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك » .

وتحالفوا ، وعاد الملك الأفضل ، ومعه أبو الهيجاء السمين ، وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فانحرف الملك الظاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

وكان الملك العادل قد احتوى على الملك العزيز ، واوقع في نفسه أن السلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، والخطبة والسكة ، وكان يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحنق عليه ، فاتفق مع الملك العزيز على أن ينزلا جميعا إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة في جميع بلاد الشام .

فسير الملك الظاهر أخاه الملك الزاهر داود ، والقاضي بهاء الدين قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر ، في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة الى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع الى ما فيه صلاح النية والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى « البركة » في ربيع الأول من السنة ، وأعادوا الرسل بغير زبدة ، فعرفوا الملك الأفضل في اجتيازهم عليه ، بما عزم الملك العزيز ، والملك العادل عليه ، من اقامة الخطبة والسكة للملك العزيز ، وتعجب من نقضهما الهدنة معه .

ولما وصلوا الى حلب ، راسل الملك الظاهر ، أخاه الأفضل ، في تجديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل الى الملك الظاهر من الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير جاندار أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ، واخذها من ابن السلار . وسير العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلمها الى قيصر ، ويجعل الاجناد فيها على حالهم ، ويحلفهم للسلطان الملك الظاهر .

وكان العلم بن ماهان ، اذ ذاك عند الملك الظاهر في محل الوزارة فلما وصل اليها ، ودخل قلعتها طمع باللاذقية ، وحدثته نفسه

بالعصيان ، واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا الى « الملك الظاهر » ، وقبضوا على ابن ماهان فسارع الملك الظاهر ، وخرج الى اللاذقية ، وصعد الى القلعة ، وأحضر ابن ماهان ، وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلاما من خواصه ، وقطع لسان البدر بن ماهان قرابته واننيه ، وسلخ العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرقه ، ودخل الى حلب وهو معه ، فأركبه حمارا مقلوبا ، وعلى رأسه خف امرأة ، ويده معلقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرة ، ثم صعدوا به الى القلعة ، فالتقاه « ابن منيفة » بوابها ، وقال له : « اريد حقي منك » . وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطما كثيرا . وحبس في القلعة .

وتحدث بعض الناس أن الملك الظاهر أراد أن يرجع عن اقطاع قيصر اللاذقية ، فكتب الى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

ولما دخل السلطان الملك الظاهر من اللاذقية ، سير عسكرا من عسكر حلب ، نجدة لأخيه الملك الأفضل ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصراها ، وتسلمها الملك العزيز بمخامرة ، أوجبت دخول الملك العادل من « باب توما » ، والملك العزيز من باب « الفرج » .

وخرج الملك الافضل من القلعة ، وعوض عن دمشق بصرخد ، فسار اليها ، ووصل « الملك الظافر » إلى أخيه « الملك الظاهر » إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع « الملك الظاهر » في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، وسير

القاضي بهاء الدين ، وغرس الدين قلج ، الى الملك العـزيز ، يطلب موافقته ، وكان قد رحل الى مصر ، وابقى الملك العادل بدمشق .

وخرج « الملك الظاهر » الى « مرج دابق » ، وأقام بها وأظهـر أن صاحب « مرعش » عاث في بلد « رعبان » ، وسير يقدمه عسكره الى « عين تاب » ، فخاف صاحبها حسام الدين بـن ناصر الدين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الربض مظهرين أن صاحب مرعش سير الى « الملك الظاهر » واعتذر ، وانقاد الى طاعته ، وحلف له .

«فرحل السلطان الى «الراوندان»، وأقام بها ثلاثة أيام، »رحل الى « عزاز » ليلا ، وهي في ايدي نواب الأمير « سيف بن علم الدين علي بن سليمان بن جندر » ، وكان مريضا بحلب ، فأراد السـلطان ان يصعد الى القلعة من شدة المطر ، فمنعه من في القلعة أن يطلع إلا باذن « سيف الدين » ، فسـار الى « دربساك » وبهـا « ركن الدين الياس » ابن عم « سيف الدين » ، فقبض عليه .

وعاد الى حلب مغضبا ، ودخـل الى دار سـيف الدين بنفسـه ، وأخذه في محفة ، وسيره الى « عزاز » ليسلمها ، ووكل به « حسام الدين عثمان بن طمان » ، فـوصل معـه اليهـا وسـلمها الى نواب السلطان « الملك الظاهر » ، وعادوا به الى حلب .

ولما جرى على سـيف الدين ذلك ، وكانت « دربسـاك » معـه ، وفيها ماله ونوابه ، وبها جمـاعة مـن أسرى الفـرنج ، فـأعملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العـدد ، وقاموا في القلعة ، فاحتمى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجـدا في السـير حتى وصل « درب ساك » ، فوجد الوالي قـد انتصر على الاسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان الى « حارم » ، ثم دخل الى حلب ، فـأقام حتـى

تقضت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي « وقلج » بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل الى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه « الملك الكامل محمد » الى حلب ، زائرا ابن عمه الملك الظاهر ، وكان قد طلبه من ابيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار الى أبيه .

وعصى « سربك » « برعبان » على الملك الظاهر ، وقد كانت في يده ، عوضه بها عن « حارم » وكان من مماليك أبيه الشجعان ، فأظهر الملك الظاهر أنه يخرج الى الغزاة ، وخرج الى « قنسرين » ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل الى « رعبان » ، فنزل عليها ، وأقام أياما لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس « سربك » سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل الى السلطان ، والتمس منه العفو فعفا عنه . ورد « رعبان » إليه وسار ، الى حلب ، فأقام بها الى اول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار الى « الغور » لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظاهر ، فوصلت رسله الى السلطان الملك الظاهر ، يخبره ان الفرنج قد عزموا على قصد جبلة واللاذقية فخرج الملك الظاهر الى « الاثارب » ، وسير الحجارين والزراقين ، لهدم حصني جبلة واللاذقية . وسار « المبارز أقجا » لهدم « جبلة » فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهلها منها .

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللاذقية ، فنقبوا القلعة ، وعلقوها ، ورفعوا ذخائرها ، وهدموا المدينة ، وذهب أهلها ، وبقي العسكر منتظرا وصول العدو ، ليلقوا النار في الاخشاب المحشوة في الانقاب ، فلم يصل احد منهم .

وجاء البرنس في البحر تحت « المرقب » ، وطلب غرس الدين وابن طمان فوصلا اليه ، وكلماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لاتهدم اللاذقية ، واخبرهما ان الفرنج فتحوا « صيدا » و « بيروت » ، وعادوا الى « صور » .

فسيرا واعلما السلطان وهو « بريحا » (١) فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار الى « حارم » ، فوصلها في محرم سنة أربع وتسعين . وأقام بها مدة ، ثم رحل الى اللاذقية ، فعمرها وعمر ضياعها ، وتوجه الى حلب .

وتوفي غرس الدين قلج ، فعصى أولاده بالقلاع التي كانت بيده ، وهي : « دركوش » ، و « الشغر » ، و « بكاس » ، و « شقيف الروج » ، وامتنعوا من تسليمها الى الملك الظاهر ، فخرج اليها ، ونازلها ، وأخذ عليها النقوب ، واستنزلهم منها ، وصفح عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنية ، وتقدم عنده منهم : سيف الدين علي بن قلج .

ودخلت سنة خمس وتسعين

ومات الملك العزيز بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الاسدية الى الأفضل ، والناصرية الى الملك العادل .

وانقاد الناصرية على نيات غير موافقة ، واستدعوا الملك الأفضل ، فسار من « صرخد » الى مصر ودخلها ، وتلقاه اخوته على مرحلتين منها ، واستوثقوا منه بالايمان ، على ان يكون كافلا للملك المنصور « محمد بن الملك العزيز » ومربيا له .

وخرج الجحاف ، وجهاركس ، الى « ميمون » الى القدس ، فقيد « الملك الأفضل » أخاه « الملك المؤيد » وجماعة من الأمراء كاتبوا « الملك العادل » ، وأرسل الملك الظاهر وزيره نظام الدين أبا المؤيد محمد بن الحسين ، الى أخيه الملك الأفضل ، مهنئا له بولاية مصر ، فأقام عنده مدة ، والرسل تتردد اليه من « الملك الظاهر » في الاتفاق على الملك .

وكان الملك العادل ، اذ ذاك محاصرا ،« ماردين » ، وقد أشرف على اخذها ، فسار الملك الافضل الى دمشق ، وخرج الملك الظاهر الى « حارم » ، لغدر وقع من الفرنج بناحية « العمق » أغاروا على التركمان ، في تلك الناحية . وسير بعض العسكر الى « خناصره » ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجه الى دمشق .

وصالح الملك الظاهر الفرنج ورحل الى « مرج قراحصار » في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وسار الملك العادل حتى بلغ الى « تدمر » ، وسار في البرية الى دمشق ، ونزل الملك الافضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة ، ونزل بعض عسكره في « الميدان » ، وهجم بعض العسكر

المدينة بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الافضل ، وكان مجد الدين – أخو الفقيه عيسى – هو الذي دخل منها حتى بلغ السوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، واخرجهم من البلد .

وخامر بعض العسكر على « الملك الافضل » ودخلوا في الليل الى دمشق ، فاختل الامر عند ذلك ، وتأخر الملك الافضل الى « جسر الخشب » .

وسار الملك الظاهر الى حماه ، فالتقى سيف الدين طغرل الظاهري قطعة من عسكر حماة سائرة الى منبج فظفر بها « طغرل » وأسر رجالها ، وأحضرهم الى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدتهم ودوابهم .

ولما وصل الملك الظاهر الى « حماة » منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهرا ، ونزل عليها ، وقاتلها ، فهادنه الملك المنصور صاحبها ، وأخرج اليه تقدمة سنية ، وسير عسكره في خدمته ، فأقطعه الملك الظاهر « بارين » وكانت في يد ابن المقدم ، فخرج صاحب « حماة » اليها محاصرا لها .

وسير الملك الظاهر الى « الموصل » رسولا يأمر صاحبها بانجاد « ماردين » وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملك الظاهر الى دمشق ، واجتمع بالملك الافضل في منزلته ، وخيموا بأرض « داريا » ، ثم إنهم زحفوا على المدينة ، وقاتلوها .

وبلغ الملك الظاهر ان « جهاركس » و « سامة » و « سرا سنقر » وغيرهم ، قد عزموا على الدخول الى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسير الملك الظاهر عسكرا مقدمه « سيف الدين بن علم الدين » ، ليمنعوهم من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، ودخل المذكورون الى الملك العادل ، فاشتد بهم ازره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غير العسكر الحلبي ، فأما المصري فأكثره منافق .

ووصل المواصلة الى « ماردين » ؛ ورحلوا الملك الكامل عنهـا ، ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربـت البشـائر خـارج دمشـق في العسكر .

وسير الملك « الظاهر » عسكرا ، مقدمه « سيف الدين » المذكور الى الشرق ليجتمعوا مع المواصـلة ، ويحصروا بـلاد الملك العـادل بالشرق ، وأقطع سيف الدين « سروج » وكان الأمر قد استقر مـع المواصلة ، أن يرد إليهم سروج والرقة . فلما علموا بـأن السـلطان أقطع سيف الدين « سروج » انحرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر الرها ، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملك المنصور صاحب حماة « بارين » في ذي القعدة من ابن المقدم ، وعوضه عنها بمنبج ، بعد ذلك ، على ما سنذكره فيما بعد .

ووصلت رسل الشرق الى الملك الظـاهر – وهـو على دمشـق – واتفقوا على ان يكون لصاحب الموصل حران ، والرها ، والرقـة ، وسروج ، وأن يكونوا يدا واحدة على من خـالفهم ، وتحـالفوا على ذلك ، في ذي الحجة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

ودخلت سنة ست وتسعين

والحصار على دمشق على حاله ، وأكثر الأجناد يحملون الأزواد في الليل ، ويبيعونه على اهل البلد ، فأخرج الملك العادل خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التجار جملة كبيرة ، وأمر بعمل الروايا والقرب ، للصعود الى مصر ، واستدعى ابنه الملك الكامل من البلاد الشرقية ، فجمع وحشد .

وسير الملك الظاهر الى سيف الدين بن علم الدين ، والى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على « سلمية » ليمنعوا الملك الكامل من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا الى « حماة » ، وساق سيف الدين بن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظاهر بذلك .

ووصل الملك الكامل الى دمشق ، فرحل الملك الظاهر ، والملك الافضل ، الى « مرج الصفر » ، ثم الى « رأس الماء » .

ورحل الملك الظاهر ، واخفى نفسه جريدة الى ناحية « صرخد » ومعه الملك المجاهد صاحب حمص ، وسار الى طرف « السماوة » ، وخرجوا الى « تدمر » . وسار الملك الظاهر الى حلب ، ووصل بعده بغال الثقل ، دون الجمال على البرية ، حتى وصلوا الى « القريتين » ، ولحقهم الملك الكامل « بالقريتين » ، وهو مسرع الى الشرق ، ووقع عسكر حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقل السلطان الى « القريتين » ، سير الى مقدم عسكر حلب « علم الدين قيصر الناصري » ، واستدعاه ، وقال له : « ما بيننا وبينكم الا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردوا علينا ما أخذتم لنا » . ففعل ذلك ، وسار

الملك الكامل الى الشرق ، ووصلت البغال الى حلب ، في تاسع عشر شهر ربيع الاول .

وأما الملك الافضل ، فانه توجه من « رأس الماء » الى مصر ، وتوجه ثقل الملك الظاهر وخزانته معه الى مصر ، وخرج الملك العادل من دمشق ، وسار خلفه الى مصر ، فدخلها ، وهرب الملك الافضل الى « صرخد » .

واستولى الملك العادل على الديار المصرية ، في صورة الكافل ، والمربي ، للملك المنصور محمد بن العزيز ، وسير خزانة « الملك الظاهر » ، وبقية ثقله جميعه إليه ؛ وخفر أصحابه حتى وصلوا الى حلب ، في نصف جمادى الاولى ، والسلطان « بتل السلطان » ، فدخل الى حلب .

ووصلته رسل الملك العادل تطلب منه الموافقة ، فلم يجبهم الى ذلك ، وخرج الى « بكاس » و « حارم » فمرض . ودخل حلب ، واشتد مرضه ، وطلب اليه الى القلعة الزهاد الذين كانوا بحلب ، مثل ابي الحسن الفاسي ، وعمي ابي غانم ، وعبد الرحمن ابن الاستاذ ، وسألهم الدعاء ، وتبرك بهم ، وازال مظالم كثيرة . ثم أبل من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ست وتسعين .

وانفصل عنه صاحب حمص وصاحب حماه ، وصارا مع عمه الملك العادل ، وعوض صاحب حماة عز الدين بن المقدم بمنبج عن « بارين » ، باشارة الملك العادل . ومات ابن المقدم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير .

واستقل الملك العادل بملك مصر ، وقطع الخطبة والسكة للملك المنصور بن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهم من مال الى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابن العزيز ، فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الافضل .

فوصل الملك الافضل الى أخيه السلطان الملك الظاهر الى حلب ، في عاشر جمادي الأولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووصل معه الجحاف ، واخبراه أن جهاركس « بالغور » ، مع العسكر ، واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسير الملك الظاهر الى الموصل بطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه الافضل ، وقصدا منبج ، ففتحها الملك الظاهر ، وقبض على ابن المقدم وحبسه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها .

وكان ابن فاخر سعد الدين مسعود بقلعة نجم ، نائبا عن ابن المقدم ، وأخته معه ، فسلمها الى « الملك الظاهر » ، وعوضه « بمائز » — قرية من بلد عزاز — وسلمها الملك الظاهر الى الافضل .

وسار الى أفامية ، ومعه ابن المقدم ، فعاقبه تحتها ليسلموا اليه ، فلم يسلموا ، فسيره ، وحبسه ، بحلب ، وأقام بكفر طاب ، واستولى على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما فيها لبيت المال ، وسار الى حماه ، ونزل عليها ، في شعبان ، وقاتلها الى ان صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له ثلاثين ألف دينار ، ووافقه .

وسار الى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ، وسار الى دمشق فنازلها ، واستدعى « جهاركس » و « قراجا » من الغور فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما بنفسه ، ولاطفهما حتى رحلا معه ، بعد ان أعطى الملك الافضل قراجا « صرخد » ، وأخرج امه وعياله منها ، ونزلوا على دمشق وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد صار في الباقين مع الملك العادل ، وقال : « المصلحة أننا نلقى الملك العادل ، فاذا كسرناه تم لنا ما نريد » .

وكان الملك العادل قد نزل من مصر الى « الكرك » ، ثم توجه الى نابلس ، فلما رأى جهاركس جد الملك الظاهر على حصار دمشق ، هرب من العسكر الى الملك العادل الى نابلس ، وهرب قراجا الى صرخد ، وعصى بها وتركا خيامهما على حالها وبركهما ، فأنهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقاتلوها قتالا شديدا ، وأحرقوا « العقيبة » ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن الملك الظاهر ، بعد ان وصل الى « رأس عين »(٢) .

وسار الملك « الفائز بن العادل » من البلاد الشرقية ، طالبا تشعيث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسير الملك الظاهر « المبارز أقجا » ـ وكان من أكبر أمراء حلب ـ ومعه بعض العسكر ، فنزل على « بالس » ونهبها ، وسار الى « منبج » فنزلها ، فوصل الملك « الفائز » إليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر الى « بزاعا » ، ودخلها الفائز »وبنى قلعتها وحصنها ، وسار منها طالبا عسكر حلب الى « بزاعا » فاندفعوا بين يديه الى حلب ، وأقام على بزاعا أياما ، وجفل بلد حلب خوفا منه ، وهرب فلاحوه .

ورحل الى أبيه إلى نابلس ، فسير الملك العادل نجدة تدخل الى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أحدقت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كمينا ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة الا القليل . ونكث صاحب حماة ، وخرج الى ناحية « الروج » ، وأغار عليه ، ونهب رستاق « شيزر » .

وسار عسكر حلب الى منبج ، فلم يجد فيها مطمعا ، واستدعاهم الملك الظافر ، فمضوا اليه الى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خبز الجحاف .

ووقع الخلف بين الملك الافضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريدها لنفسه ، لانه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الافضل يريدها لنفسه لأنها بلده ، وأنه أخرج « صرخد » من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر ، ومعه ميمون القصري ، وسرا سنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الافضل فنزل حمص ، عند صاحبها الملك المجاهد ، وزوج ابنه « الملك المنصور إبراهيم » بابنة الملك الافضل .

وسار الملك الظاهر الى حماة ، فأغار عليها ، وشعث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مال اخذه منه وسار الى منبج ، وعزم على ان يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لانهم قاموا مع الملك « الفائز » فشفع اليه الأمراء في ان يسلموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ثم دخل الى حلب ، واقطع ميمون القصري عزاز ، وشيح ، وبلد الحوار ، واقطع ايبك فطيس اقطاعا أرضاه ، وعاد عنه سرا سنقر ، وتسلم السلطان أفامية من ابن المقدم وعوضه عنها « بالراوندان » .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحصين البغدادي » في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته الى حلب ، ووزر له ، وصار وزيره بعده نظام الدين ابو المؤيد محمد بن الحسين .

ووصل الملك العادل الى دمشق ، فتوجه اليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الافضل ، وترفق اليه ، فأعطى الملك الافضل « شختان » و « جملين » و « الموزر » و« قلعة السن » و« سميساط » وسار اليها الملك الافضل ، ونزل الملك العادل الى حماة ، وراسل الملك الظاهر ، حتى استقر الصلح بينه وبينه ، على

أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وصعد الرسول شمس الدين بن التنبي الى المنبر ، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، ونثر ذهبا كثيرا على الناس . وبلغ الملك الظاهر ، عن ابن المشطوب ، أنه كان قد عزم على المخامرة ، فسير الى منبج » العسكر ، واخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب الى الشرق .

وجمع الملك الظاهر العرب في دابق ، لأخذ العداد منهم ، وخاف ابن المقدم منه ، فهرب الى « الراوندان » ، ليعصي بها ، فسار الملك الظاهر خلفه ، ولم يمهله ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة ، ومضى الى « بدر الدين دلدرم » ، بتل باشر ، منهزما من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصرا لها ، فسلمها من كان بها اليه ، وحاز جميع ما كان فيها من الذخائر والاموال ، ورتب امورها .

وسار منها الى منبج ، وسير نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان نازلا على « ماردين » ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلج رسلان ، ونزل السلطان في « بدايا » ، واتفق الامر بينه وبين [صاحب] « ماردين » وابن الملك على الصلح ، فعاد الى حلب بعد ان توجه الى « البيرة » .

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم الى جهة « انطاكية » ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية اذ ذاك ، سيف الدين بن علم الدين ، وعبروا في ارض اللاذقية ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم إن رأوا لهم طمعا في اللاذقية يأخذوها .

فخرج سيف الدين بعسكره ، والتقوا ، ونصره الله عليهم ،

واسر ملوكهم ومقدميهم – وكان ملكهم أعور – وقتل منهم جمعا كثيرا ، ووصل الاسرى ، والرؤوس ، والخيل ، والسلاح ، الى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

وعصى الملك الأفضل على عمه الملك العادل ، في البلاد التي كان اعطاه إياها ، فسير ، واستعاد منه شبختان ، وجملين ، والموزر ، وسروج ، والسن ، وسار الملك الظاهر الى « قلعة نجم » ، فأخذها من الملك الافضل خوفا أن يستولي عليها عمه ، وكان « الملك الظاهر » قد سلمها الى الأفضل ، فوصلت أم الملك الأفضل الى حلب ، تسأل الملك الظاهر ، سؤال عمه فيه ، وفي رد البلاد عليه ، فسير معها الى دمشق « سيف الدين بن علم الدين » في ذلك فلم يجب الى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى « سميساط » . وشرط عليه أن لاتكون له حركة بعد ذلك .

ودخلت سنة ستمائة

ووصلت الاخبار بحركة الفرنج الى « جبلة » و « اللاذقية » ، فسير السلطان اليها العساكر ، وأمرهم بخراب « جبلة » و « اللاذقية » فلم يكن للفرنج حركة ، وخربت قلعة « اللاذقية » و « العتيقة » — وكانت من جهة الشمال — وذلك بعد ان اخذت اللاذقية من ابن جندر — سيف الدين بن علم الدين .

وولد للسلطان « الملك الظاهر » ولده ، الملك « الصالح احمد » في صفر ، وسر به سرورا عظيما ، وزين البلد والقلعة ، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزي . ولبس السلطان ، ولعب العسكر معه في ميدان « باب الصغير » .

وفي محرم سنة احدى وستمائة ، هجم ملك الارمن « ابن لاون » — وهو من ولد « بردس الفقاس » ، الذي كان في زمن سيف الدولة [صاحب] انطاكية — فسير الملك الظاهر عسكرا من حلب ، لنجدة البرنس صاحبها ، فلما وصلوا الى « العاصي » ، ضعف أمر ابن « لاون » عندهم ، وقاموا عليه ، وأخرجوه منها ، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه ، فعاد عسكر حلب اليها ، ففسخ « ابن لاون » الهدنة ، وأغار على بلد العمق ،واستاق مواشيها وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل ، بالقرب من « دربساك » ، ليضيق به عليها .

وارسل الى السلطان ، وسأله أن يخلي بينه وبين « انطاكية » . وأن يعيد جميع ما اخذه من « العمق » فأجابه الى ذلك ، وهادنه على هذا الأمر . ونزل على « انطاكية » ، وخرب رستاقها ، ووقع فيها غلاء عظيم ، فكان الملك الظاهر يمد أهل « انطاكية » بالغلال ، حتى قويت .

ودخلت سنة اثنتين وستمائة

فجرد « ابن لاون » في جمادى الاولى ، في الليل ، عسكرا في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة الى ربض « دربساك » ، فلم يذكروا وقود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم أهل الربض ومن به من الأجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطلع الفجر ، فانتشروا في ارض « العمق » ، ونهبوا من كان فيه من التركمان ، وداموا الى ضحوة ذلك النهار ، ورجعوا .

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، ودخل الارمن الى « جبل الكام » ، فجاءهم في الليل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فكانوا يسلخون الشاء ويلبسون جلودها ، لشدة البرد ، فسير الملك الظاهر عسكرا من عسكر حلب يقدمه « ميمون القصري » ، ومعه « أيبك فطيس » ، فنزلوا على « حارم » ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان « بدربساك » ، وسيف الدين بن علم الدين نازل بعسكره على « تيزين » – وكانت جارية في اقطاعه – وفي اكثر الايام تجري وقعات بين العسكر المقيم « بدربساك » ، وبين عسكر ابن لاون « ببغراس » .

وخرج السلطان الى « مرج دابق » ، في شعبان من هذه السنة ، للدخول الى بلد « لاون » ، وجمع العساكر ، وسير اليه عمه « الملك العادل » ، وغيره من ملوك الاسلام النجد ، فأقام « بدابق » الى ان انسلخ شهر الصيام .

فسار «ابن لاون» من «التينات» ، جاء على غير طريق اليزك في الليل ، فأصبح في « العمق» غائرا على غرة من العسكر ، وكبس العسكر الذي كان مع ميمون ، حتى حصلوا معهم في الخيام ، وقابلوهم على غير أهبة فقاتلهم المسلمون ، فقتل منهم جماعة ، ولم يلبث إلا قليلا ، عاد وساق سيف الدين من « تيزين» ، فوجده قد رجع .

وبلغ الخبر إلى السلطان ، وهو « بدابق» ، فسار بالجيوش التي معه فنزل « بالعمق » ، واجتمع من العساكر والتركمان مالايحد كثرة ، فسير «ابن لاون» يبذل الطاعة ، وأن يهدم الحصن الذي بناه بقرب «دربساك» .

فأعرض عنه ، ورد فلاحي« العمق » ، وعمر ضياعه ، وكمل استغلال ذلك البلد ، والرسل تتردد في اصلاح الحال ، إلى أن استقرت القاعدة : على أن يهدم «لاون »الحصن الذي بناه ، ويرد جميع ماأخذ في الغارة ، ويرد جميع أسارى المسلمين الذين في يده ، وأن لايعرض « لأنطاكية» . وقرر الصلح الى ثماني سنين ، وخرب الحصن ، ورد مااستقر الأمر عليه .

ودخل السلطان حلب ، في سنة ثلاث وستمائة ، وأمر جماعة من مماليكه وأصحابه . وعاث الفرنج على بلد « حماة » ، في سنة خمس وستمائة ، فسير الملك الظاهر من حلب ، نجدة من عسكره .

ونزل الملك العادل على « قدس » ، وغارت خيله على طرابلس ، وخربوا حصونها ، وشتى « بحماة » الى ان انقضى فصل الربيع .

وعاد الى دمشق ، وعاد ابنه « الأشرف » ، الى بلاده ، من خدمة ابيه ، فعبر في حلب ، فالتقاه الملك « الظاهر » ، واحتفل به ، وانزله في داره بقلعة حلب ، وقدم له تحفا جليلة من السلاح ، والخيل ، والذهب ، والجوهر ، والمماليك ،والجواري ، والثياب ، بما قيمته خمسون ألف دينار ، وودعه بعد سبعة أيام الى قراحصار ، وعاد الى حلب .

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد « ابن لاون » ، وطلب نجدة من السلطان الملك الظاهر ، فأرسل إليه عسكرا مقدمه سيف الدين ابن علم الدين ، وفي صحبته أبيك فطيس ، فاجتمعوا بمرعش ،ونزلوا على برتوس (٣) في سنة خمس وستمائة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصونا عدة من بلد ابن لاون .

فراسل « لاون » الملك العادل ، والتجأ اليه ، فأرسل الملك العادل الى كيخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيخسرو ، وصالح « ابن لاون » على ان يرد حصن « بغراس » إلى « الداوية » ، وأن لايعرض لانطاكية ، وأن يرد ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدين .

وكان قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظاهر مدة ، وخاف الملك الظاهر من أخيه ركن الدين ، وأن يتغير قلبه عليه بسببه ، وأنه ربما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى « ابن لاون» ، ثم خاف منه ، الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لايعرض لبلاد السلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

وخرج العادل من دمشق ، في سنة ست وستمائة ، وطلب من الملك الظاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي الى خلاط ، لدفع « الكرج » عنها ، فسير إليه نجدة ، وعبر « الفرات » .

فلما وصل الى « رأس عين » ، رحل « الكرج » عن خلاط ، ووصل اليه صاحب « آمد » ، فسار في العسكر الى « سنجار » ، واقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على « سنجار » محاصرا لها ،وشفع اليه مظفر الدين بن زين الدين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : « لايجوز لي في الشرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، في مصلحة الجهاد » ، وضايق سنجار ، وقاتلها في شهر جمادى الآخرة .

وقام نور الدين بن عز الدين ــ صاحب الموصل ــ في نصرة ابن عمه صاحبها ، واتفق مع « مظفر الدين » ، وتحالفا ، وافسدا جماعة من عسكر « الملك العادل » ، وراسلا « الملك الظاهر » ، على ان يجعلاه السلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكة باسمه .

وجعل « الملك الظاهر » يداري الجهتين ، والرسل تتواتر اليه من البلدان ، وهو في الظاهر في طاعة عمه ، وعسكره معه ، وفي البـاطن في النظر في حفظ سنجار ، ومداخلة المواصلة ، وهو يظهر لعمـه أنه متمسك بيمينه له ، الى ان ارسـل أخـاه « الملك المؤيد » ، ووزيره « نظام الدين الكاتب » الى عمه ، معلمـا له أن رسـول الموصـل ، ومظفر الدين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة اليه ، في اطلاق سنجار ، وتقرير الأمر على حالة يراها .

وتوسط الحال عند قدومه ، على ان شفع فيهـم الملك الظـاهر ، واطلق لهـم « سـنجار » ، واسـتنزلهم عن « الخـابور » و« نصيبين » .

وعاد « الملك المؤيد » ، من حضرة عمه بالبر الوافر ، فلما وصـل « رأس عين » ، دخل إليها في ليلة بـاردة كثيرة الثلج . فنزل في دار فيها منزل مجصص ، فستر بابه ، وسد ما فيه من المنافس ، واوقد فيه نار في مذقل ، وعنده ثلاثة من أصحابه ، فاختنق ، وواحد مـن أصحابه ، وحمل الى « حلب » ميتا في شـعبان ، مـن سـنة ست وستمائة ، وجرى على الملك الظاهر منه مـا لايوصـف مـن الحـزن والأسف .

ووصل الملك العادل الى « حران » ، وخـافه صـاحب الموصـل والجزيرة ، فـراسل الملك الظـاهر ، وطلب منه أن يخلي بينه وبين ملوك الشرق ، وأن يحتكم في مايطلبه منه ، وراسله صاحب الموصل وصاحب اربل ، وصاحب الجزيرة ، يعتضدون به وهولا يؤيسهم ، فخرج السلطان الى « حيلان » بعسكره ، ثم رحل الى «السموقة» وراسل عمه في مهـادنتهم ، وتـطييب قلوبهـم ، وهـو مخيم على « السموقة » على نهر قويق ـ وطلب منه أن تكون كلمـة المسـلمين كلهم متفقة .

وكذلك تـدخل في الصـلح ملك الروم ، وأن يقصـدوا الفـرنج

بجملتهم ، فان الفرنج في نية التحرك ، وخامر جماعة من عسكر الملك العادل ، ووصل ابن كهدان الى السلطان الملك الظاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، ودخول ملوك الاسلام فيه .

وتمت المصاهرة بين « الملك العادل » و « الملك الظاهر » ، على ابنته الخاتون الجليلة « ضيفة خاتون » - بنت الملك العادل - وشرع السلطان في عمل « قناة حلب » وفرقها على الأمراء والخواص . وحرر عيونها وكاس طريقها جميعه ، حتى كثر الماء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل في المحال . ووقف عليها وقفا لاصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « نظام الدين محمد بن الحسين » بحلب ، بعلة الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة .

وكان - رحمه الله - وزيرا صالحا ، مشفقا ناصحا ، واسطة خير عند السلطان ، لايشير عليه إلا بما فيه مصلحة رعيته ، والاحسان اليهم . وقام بعده بكتابة الانشاء والاسرار « شرف الدين أبو منصور ابن الحصين » ، و « شمس الدين بن ابي يعلى » كان مستوفي الدواوين . فلما مات ابو منصور بن الحصين استقل بالوزارة ، وأضيف اليه ديوان الانشاء مع الاستيفاء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدكاره ، واوسع خندقها وعمل « البغلة » من الحجارة الهرقلية ، وعمق الخندق ، الى أن نبع الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، « ضيفة خاتون » بنت الملك العادل الى حلب ، مع « شمس الدين بن التنبي » . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم

بالعساكر الحلبية بعد ذلك « بتل السلطان » ، واحتفل في اللقاء . وبالغ في العطاء ، ووصلت الى حلب في النصف من المحرم ، من سنة تسع وستمائة .

وملك ابن التنبي قرية من قرى حلب ، من ضياع « الأرتيق »(٤) يقال لها تلع ، وأعطاه عطاء وافرا ، وحظيت عنده حظوة ، لم يسمع بمثلها .

ووقعت النار في مقام ابراهيم ـ عليه السلام ـ وهو الذي فيه المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والالات والسلاح ما لا يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ واحترقت السقوف والأبواب ، فجدده السلطان الملك الظاهر ، في اقرب مدة أحسن مما كان .

وتوفي شرف الدين عبد الله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقل شمس الدين عبد الباقي بن ابي يعلى بالوزارة ، في سنة تسع وستمائة .

وشرع الملك الظاهر في هدم « باب اليهود » وحفر خندقه وتوسعته ، وبناه بناء حسنا ، وغيره عن صورته التي كان عليها ، وبنى عليه برجين عظيمين ، وسماه « باب النصر » . وأتم بناءه ، في سنة عشر وستمائة .

وولد للسلطان الملك الظاهر ولده الملك العزيز ، من ابنة عمه الخاتون « ضيفة خاتون » ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من سنة عشر وستمائة ، فضربت البشائر ، وزينت مدينة حلب ، وعقدت القباب .

وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، ختن السلطان أخاه الملك الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزورق ، من قلعة حلب إلى المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الآلات والتماثيل التي

ركبوها ، حالة النزول اذواعا ، وطهر أولاد الاكابر من أهل المدينة ، وشرفهم ، وخلع عليهم .

ودخلت سنة احدى عشرة وستمائة

فجدد السلطان الملك الظاهر « باشورة » حلب ، من «باب الجنان » الى « برج الثعابين » ، وبنى لها سورا قويا ظاهرا عن السور العتيق ، فيه ابرجة كالقلاع ، وعزم على ان يفتتح بالقرب من « برج الثعابين » بابا للمدينة ، ويسميه « باب الفراديس » ، وكان يباشر الاشراف على العمارة بنفسه .

وامر في هذه السنة بتجديد ربض الظاهرية ، خارج « باب قنسرين » ، فيما بينه وبين النهر ، فنسب إليه ، لذلك ، وخربت « الياروقية » ، وانتقل معظم أهلها إليه .

ووثب الاسماعيلية على ابن الابرنس ، « بكنيسة انطرسوس » ، فقتلوه ، فجمع البرنس جموع الفرنج ، ونزل على حصونهم ، وقتل وسبى ، وحصر « حصن الخوابي » فكتبوا الى السلطان ، يستغيثون به ، ويستنجدونه ، فاستخدم السلطان مائتي راجل . وسير جماعة من عسكر حلب ، يحفظونه ، ليدخلوا الى « حصن الخوابي » ، ويمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه .

وجرد عسكرا من حلب ، مع سيف الدين بن علم الدين ليشغل الفرنج من جهة « اللاذقية » ليتمكن الرجالة من الدخول الى الحصن ، فلما سمع الفرنج بذلك ، كمنوا كمينا للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوهم ، وقبضوا ثلاثين من الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

فعند ذلك خرج الملك المعظم بن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، ودخل غائرا في بلد « طرابلس ، فلم يترك في بلدها قرية الا نهبها ، وخربها ، واستاق الغنائم والاسرى ، فرحلوا عن « الخوابي » ، وأطلقوا الأسرى الذين اسروهم من أصحاب السلطان الملك

الظاهر ، وراسلوه ، معتذرين ، متلطفين ، وافترقوا عن غير زبـدة حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والبـاب والابـرجة ، في سـنة اثنتـي عشر وستمائة . ولم يتم فتح الباب . وسده طغرل الأتابك ، لما مـات الملك الظاهر ، الى أن فتحه السـلطان الملك الناصر - أعز الله نصره - على ما نذكره ، في سنة اثنتين واربعين وستمائة .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ووقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر ، وبين السلطان « كيكاوس بن كيخسرو » ، واتفقا على أن يمضي السلطان الى خدمته ، ويتفق معه خوفا من عمه ، فأجابه « كيكاوس » الى ذلك ، وخرج بنفسه الى أطراف البلاد .

وندم السلطان على ما كان منه ورأى أن حفظ بيته أولى ، وأن اتفاقه مع عمه أجمل ، فسير القاضي بهاء الدين ـ قاضي حلب ـ الى عمه الى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنه قد جعل ابنه الملك العزيز محمدا ، ابن ابنة الملك العادل ، ولي عهده . وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك .

فسار الى مصر فرتب السلطان خيل البريد ، تطالعه بما يتجدد من أخبار عمه ، لينظر في أمره ، فان وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه الى « كيكاوس » ، وهو مع هذا كله في همة تجهيز الجيوش ، والاستعداد للخروج الى « كيكاوس » ، والاجتماع معه على قصد بلد ابن « لاون » أولا ، وكان « ابن لاون » قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرع السلطان بمجاورته ، ولعلمه بانتمائه الى عمه .

فوصلت الاخبار من « القاضي » من مصر ، ان الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع الى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقف في أمر من الامور .

وجعل كيكاوس يحث السلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به وضاق صدره ، وبقي مفكرا في أن عمه قد وافقه ، ولايرى الرجوع عنه الى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمه ، ويغض من قدره بالخروج اليه ، ويفكر في حاله مع ملك الروم ، وفي كونه وعده

بالخروج اليـــه والاجتماع به اذا خــرج ، وأنه إن رجــع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتــم في ذلك الامر . وطلب الاعتذار الى ملك الروم بوجه يجمل ، فلشدة فـكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حاد في جمــادى الآخــرة في ســنة ثلاث عشرة وستمائة . واعتــرته أمــراض شــتى ومــا شيرا (٥) واشتد به الحال ، وجمع مقدمي البلد وأمــراءه ، واســتحلفهم لابنه الملك العزيز محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح أحمد ، ثــم مــن بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمد بن الملك العزيز . وجعل الامير سيف الدين بن علم الدين مقدم العسكر ؛ وشهاب الدين طغرل الخادم والي القلعــة ، ومتــولي الخــزانة ، وتــربية أولاده ، والنظر في مصالح الدار والنساء .

وأنزل « بدر الدين ايدمر » والي قلعة حلب منها ، واقــطعه زيادة على ما كان في يده من الاقطاع « قلعة نجم » ، بنخائرها وعددهــا ، و « زردنا » ، مع تسع ضياع اخر من أمهات الضياع . وحلف إخوة السلطان على ذلك .

واستشعر السلطان مــن أخيه الملك الظــافر « خضر » ـ وكان مقيما « بالباروقية » ـ فأقطعه « كفرسود » ، وتقدم اليه بــالتوجه اليها ، فسار اليها ، فسبقه الملك « الزاهر » ، فــاستولى عليهــا ، وعلى « البيرة » و « حروص » و « المرزبان » و « نهر الجــوز » و « الكرزين » و « العمق » .

ومات الســلطان الملك الظــاهر ـ رحمــه الله ـ بقلعـــة حلب ، في الخامس والعشرين ، من جمادى الآخــرة مــن ســنة ثــلاث عشرة وستمائة ، وكتم خبر موته ذلك اليوم ، حتى دفن في الحجــرة ، الى جانب الدار الكبير ، التي انشأها بقلعة حلب .

ثم أركب في اليوم الثاني مــن مــوته ولداه: الملك العــزيز ، والملك الصالح ، وانزلا بالثياب السود الى أسفل جسر القلعــة ، وصــعد أكابر البلد اليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فتت في أعضادهم ، وكان له ـ رحمه الله ـ في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قلبة(٦) نكبة وبلاء :

والناس مأتمهم عليه واحد   في كل دار أنة وزفير .

ووصل « القاضي بهاء الدين » من الرسالة ، في اليوم الثالث ، والوزير ابن ابي يعلى ، قد استولى على التدبير ، وحكم على الصغير والكبير ، فصعد الى القلعة ، واجتمع « بشهاب الدين طغرل » ، وصرفه عن اضافة الامور الى الوزير .

وقرر أن الامراء يجتمعون ، ويتشاورون فيما يدبرونه ، وأن لايخرج الامر عن رأي « شهاب الدين » أيضا ، فاجتمعوا « بدار العدل » ، واتفقت آراؤهم على أن يكون « الملك المنصور بن العزيز » ، أتابك العسكر ، وأمر الاقطاع اليه ، وأمر المناصب الدينية يكون راجعا الى « شهاب الدين طغرل » ؛ وحلفوه على ذلك ، وركب ، والأمراء كلهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك العزيز في منصب ابيه ، وأخوه الى جانبه ، والملك المنصور ، الى جانبهما ثم اضطربت الحال ، ولم يرض إخوة « الملك الظاهر » ، بولاية المنصور .

ووصل في اثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس ـ وكان مخيما بالقرب من البلاد ينتظر وصول السلطان « الملك الظاهر » اليه ـ فسير رسولا معزيا ، ومشيرا بالموافقة معه ، وأن يكون « الملك الافضل » أتابك العسكر ، فإنه عم الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه .

ومال الأمراء المصريون مثل : « مبارز الدين يوسف بن خطلخ » ، و « مبارز الدين سنقر الحلبي » ، و « ابن أبي ذكرى الكردي » ، وغيرهم ، الى هذا الرأي ، وقالوا : « إن هذا ملك

كبير ، ولا ينتظم حفظ الملك الا به ، واذا صار أمر حلب راجعا اليه كان قادرا على أخذ ثأره من عمه ، وأخذ الملك به » .

ورأى القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : « إن هذا اذا فعل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبين ، لأن الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية ، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيدينا ، فان كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا وإن كانت عليه فلا نأمن ان الملك الأفضل ، يتغلب على ابن اخيه وينتزع الملك منه ، ويستقل به ، كما فعل الملك العادل بابن العزيز ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذب عن حلب كما يذب عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن هي راجعة الى شهاب الدين طغرل ، وهو متولي القلعة ، والرأي أن يقع الاتفاق عليه ، فان المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممن خالفه ، وقد وقع اعتماد الملك الظاهر عليه » .

فاتفق رأيهم كلهم عليه ، وعملت نسخة يمين ، حلف بها جماعة الأمراء والمقدمين من أهل البلد ، على الموالاة ، والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصالح ، وعلى الموالاة لاتابكه « شهاب الدين طغرل » وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن ابي يعلى ، وصرف ، واستقر الأمر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السنة .

وسار ابن ابي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السنة واستقل طغرل بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والاقطاع ، ولا يخرج في ذلك كله ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج .

وأقطع علم الدين قيصر « دربساك » ، وابن أمير التركمان ، « اللاذقية » ،وسير علم الدين الى الملك الزاهر ، اولا ، يعاتبه على استيلائه على البلاد ، فاعتقله ، وقال : « أنا أحق بذلك ، فانني كنت ولي العهد لأخي ، وقد حلف لي الناس » . وطمع بملك حلب ، ثم انقاد الى الطاعة والخطبة ، وشرط أن تبقى البلاد ، التي استولى عليها بيده ، فأجيب الى ذلك .

ولما استقر أمر الاتابكية لشهاب الدين طغرل ، كره ذلك جماعة من المماليك الظاهرية ، فعمد « عز الدين ايبك الجمدار » الظاهري ، واستضاف اليه جماعة من المماليك الظاهرية ، والأجناد . وكاتب « الاسد أقطغان » ـ وكان والي حارم ـ واتفق معه على أن يأتي إليه ، الى « حارم » بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة فاذا حصلوا بها انضم اليهم جماعة غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

وكان العسكر المقيم « بحارم » قد أصعد الى القلعة ، ورتب بها ، وفيهم « المبارز أيوب بن المبارز أقجا » ، فأحسوا باختلال أمر « الأسد » الوالي ، وانكروا عليه اشياء فاستيقظوا لانفسهم ، واتفقوا على حفظ القلعة ، والاحتياط عليها .

وسار ايبك الجمدار الى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام الصعود اليها ، فمنعه الأجناد والأمراء ، الذين في القلعة من ذلك ، ولم يمكنوا الوالي من التحرك فيها بحركة ، واحتاطوا عليه فسار ايبك الى « دربساك » ، وطمع أن يتم له فيها حيلة أيضا ، فلم يستتب له ذلك ، وعصى « الطنبغا » بقلعة بهسنى ، وانضاف الى ملك الروم « كيكاوس » . وانتظم الأمر بعد ذلك ، وسكنت الفتنة ، في أواخر شوال من السنة .

ونزل « الملك العادل » من مصر الى الشام ، وارسل الى « اتابك » بما يطيب نفسه ، وسير خلعة الملك العزيز ، وسنجقا ، وحلف له على ما أوجب السكون والثقة .

واتفق خروج الفرنج من البحر ، وتجمعوا في أرض عكا ، وأغاروا على « الغور » ، واندفع « الملك العادل » بين ايديهم الى « عجلون » ، ثم الى « حوران » ، ثم نازل الفرنج « الطور » ، وزحفوا عليه ، فكانت النصرة للمسلمين ، وقتل منهم جمع كثير ، وانهزموا عنها ، وهدمها الملك العادل .

وسار الفرنج الى « دمياط » ، ونزلوا عليها ، وبينها وبينهم « النيل » والملك « الكامل » في مقابلتهم ، واستدعى الملك « العادل » ابنه « الملك الاشرف » ، فسار في عسكره الى « حمص » ، ودخل بلاد الفرنج ، ليشغلهم عن محاصرة « دمياط » فدخل الى « صافيتا » ، فخربوا ربضها ، ونهبوا رستاقها ، وهدموا ما حولها من الحصون ، ودخلوا الى ربض « حصن الاكراد » ، فنهبوه ، وحاصروا القلعة ، حتى أشرفت على الأخذ ، والملك العادل مقيم في « عالقين » .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمائة

وتحرك ملك الروم « كيكاوس » ، ومعه « الملك الأفضل » ، طالبا أن يملك حلب ، ويطمع « الافضل » أن يأخذها له ، ليرغب الأمراء في تمليكه عليهم ، وكاتب جماعة من الأمراء ، وكتب لهم التواقيع ، ومن جملة من كاتبه « علم الدين قيصر » . وكتب له توقيعا « بأبلستان » . واغتنما شغل قلب « الملك العادل » بالفرنج ، ووافقهما الملك الصالح ـ صاحب آمد ـ وكان « كيكاوس » ، يريد الملك لنفسه ، ويجعل « الأفضل » ذريعة للتوصل اليه ، وكاتبه أمراء حلب الذين كانوا يميلون الى « الافضل » . فجمع العساكر ، واحتشد ، واستصحب المناجيق ، وسار في شهر ربيع الاول ، فنزل رعبان وحصرها ، وفتحها .

فسير « الاتابك شهاب الدين » « زين الدين ابن الاستاذ » رسولا الى « الملك العادل » ، يستصرخه على « الرومي » ، و « الأفضل » . فكتب الى ولده « الملك الاشرف » ، يأمره بالرحيل الى انجاد حلب بالعساكر ، وسير اليه خزانة ، وجعل « الملك المجاهد » ـ صاحب حمص ـ في مقابلة الفرنج .

وسار « الملك الأشرف » ، حتى نزل حلب « بالميدان الأخضر » ، وخرج الأمراء الى خدمته واستحلفهم ، وخلع عليهم ، وأتاه « مانع » أمير العرب بجموعه المتوافرة ، وعاث العرب في بلد حلب ، و « الملك الأشرف » يداريهم لحاجته اليهم .

وسار علم الدين قيصر الى ملك الروم من « دربساك » وجاهر بالعصيان ، ونزل « نجم الدين الطنبغا » اليه من « بهسني » .

وتسلم الرومي « المرزبان » ، وسار الى « تل باشر » وهي في يد ولد « بدر الدين دلدرم » ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الافضل شيئا من البلاد التي افتتحها فتحقق « الملك الافضل » فساد

نيته ، وسار الى منبج ، ففتحها بتسلم اهلها ، وكان قد صار في جملته رجل يقال له « الصارم المنبجي » ، وله اتباع بمنبج فتولى له أمر « منبج » وشرع في ترميم سورها ، واصلاحه .

وسار « الملك الاشرف » نحوه من حلب الى « وادي بزاعا » على عزم لقائه ، وجماعة من الامراء المخامرين في صحبته ، فنزل في وادي بزاعا ، وسير « الرومي » ألف فارس ، هم نخبة عسكره ومقدمهم « سوباشي سيواس » ، فوصلوا الى « تل قباسين » فوقع عليهم العرب واحتووا عليهم ، وعلى سوادهم .

وركب « الملك الاشرف » ، فوصل اليهم ، وقد استباحوهم قتلا واسرا ، وسيروا الاسرى الى حلب ، ودخلوا بهم والبشائر تضرب بين أيديهم ، واودعوا السجن .

ولما سمع « كيكاوس » ذلك ، سار عن منبج هاربا ، ورحل « الملك الاشرف » من منزلته ، واتبعه يتخطف أطراف عسكره ، حتى وصل الى « تل باشر » ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى افتتحها ، وسلمها الى نواب الملك العزيز ، وقال : « هذه كانت اولا ، للملك الظاهر - رحمه الله - وكان يؤثر ارتجاعها اليه ، وأنا أردها الى ولده » . وذلك في جمادى الاولى ، من سنة خمس عشرة وستمائة . ثم انه ملكها للاتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان عشرة وستمائة ، بجميع قراها . ثم سار « الملك الاشرف » الى « رعبان » و « تل خالد » فافتتحهما وافتتح « برج الرصاص » ، واعطى الجميع « الملك العزيز » . واقطعت « رعبان » لسيف الدين ابن قلج . وعاد منكفئا الى حلب ، ونزل على « بانقوسا » . وكان الخبر قد ورد بموت « الملك العادل » - رحمه الله - وكان مرض على « عالقين » ، فرحل الى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة . فكتب الاتابك شهاب الدين بذلك الى الامراء ، و« الملك الاشرف » قد قارب « مدينة حلب » ، فأعلموه بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء وخرج اكابر البلد والأمراء الى

خدمته ، وأنشد الشعراء مراثي الملك العادل ، وتكلم الوعاظ بين يديه .

ولما انفصل العزاء ، سير « الاتابك شهاب الدين » الى « الملك الأشرف » ، وتحدث معه في أن يكون هو السلطان موضع أبيه ، وأن يخطب له في البلاد ، وتضرب السكة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبية في خدمته . فقال : « لا والله لا أغير قاعدة قررها أبي ، بل يكون السلطان أخي « الملك الكامل » ، ويكون قائما مقام أبي » ، فاتفق الحال بين « اتابك » وبينه ، برأي القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، على أن خطب بحلب وأعمالها « الملك الكامل » وبعده للملك الأشرف ، ثم للملك العزيز وضرب اسم « الملك الكامل » والملك العزيز ، على السكة . وجعل امر الأجناد والأقطاع في

عسكر حلب الى « الملك الأشرف » ، وخليت له دار « الملك الظافر » « بالياروقية » ، فنزل فيها ، ورتب له برسم المعونة ، من اعمال حلب « سرمين » و« بزاعا » و « الجبول » ، ووصلت اليه رسل البلاد ، من جميع الجهات ، ومالوا اليه ، وصاروا اتباعا له ، وأمر ونهى ببلد حلب ، في الأجناد والأقطاع لا غير ، وتردد أكابر الحلبيين إلى خدمته ، وخلع عليهم ، وانقضى فصل الشتاء .

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

فأقطع الاقطاع لأجناد حلب ، ورتب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئا من ذلك إلا بمراجعة « الاتابك شهاب الدين » ، وبدا من الأمراء المصريين تحرك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم لميلهم الى « الملك الأفضل » . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه « الملك الكامل » ، يطلب منه النجدة الى « دمياط » . وكان « ابن المشطوب » قد أراد الوثوب عليه وتمليك « الفائز » أخيه ، فأخرجه من الديار المصرية ، بعد ان رحل من منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبور الفرنج اليها ، ونهب الخيم ومنازلة « دمياط » وقطعهم المادة عنها ، فاتفق رأي « الملك الاشرف » على تسيير الامراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيرهم نجدة الى أخيه ، وهم المبارزان : « ابن خطلخ » و « سنقر » الحلبيان ، وابن كهدان ، وغيرهم ، وخاف ابن خطلخ منه ، فاستحلفه على أن لايؤذيه ، فحلف له ، وسيرهم الى أخيه « الملك الكامل » ، فأقاموا عنده بالكلية .

وتوفي نور الدين – صاحب الموصل – في هذه السنة . وترك ابنا صغيرا قام « بدر الدين لؤلؤ » ، مملوك جده بتربيته . وخطب للكامل والاشرف .

وقام زنكي بن عز الدين ، فأخذ « العمادية » – وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل – بمواطأة من اجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : « أنا أولى بكفالة ابن أخي » . وساعده « مظفر الدين » صاحب « إربل » على ذلك ، فسير لؤلؤ رسولا الى « الملك الاشرف » إلى حلب ، يطلب إنجاده ، فسير اليه عز الدين ايبك الأشرفي .

وكان عماد الدين بن سيف الدين علي المشطوب ، لما نفي من الديار المصرية ، قد وصل الى « حماة » ، وأقام عند صاحبها ، وكاتب « الملك الأفضل » ، وجمع جموعا كثيرة من الاكراد ، وارباب الفساد ، وساعده الملك المنصور - صاحب حماه - بالمال والرجال على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر الى الأفضل ، وأن يقوم معه ويساعده صاحب حماه ، وسلطان الروم . ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمن زمن الربيع ، وخيول الأجناد متفرقة في الربيع ، فوصل الى « قنسرين » ونفذ منها الى « تل أعرن » (٧) وبلغ « الساجور » ، واستاق في طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره .

وبلغ خبره الى الملك الأشرف ، فأركب من كان بحضرته من العساكر ، خلفه ، وكان فيهم ابن عماد الدين صاحب « قرقيسيا » ، فلحقوه على « الساجور » ، وفي صحبته « نجم الدين بن أبي عصرون » ، فقبضوا عليه واتوا به الى « الملك الأشرف » ، فعفا عنه و « عن ابن أبي عصرون » ، واقطع ابن المشطوب « رأس عين » وأقام عنده مخيما « بالياروقية » ، إلى أن دخل شعبان ، من السنة المذكورة . وسار « الملك الأشرف » الى بلاده الشرقية ، لاصلاح أمر الموصل ، وكان صاحب اربل وزنكي ، قد كسرا « لؤلؤ» و « أيبك الأشرفي » ، على الموصل . فنزل الملك على حران ، وفي صحبته عسكر حلب .

ومات « كيكاوس » ، ملك الروم ، وملك بعده أخوه كيقباذ ، فراسل الملك الأشرف ، واتفق معه . وخربت القدس في أوائل هذه السنة . وخرج الى الفرنج المنازلين « دمياط » نجدة من البحر ، ووقع الوباء في أهل « دمياط » ، وضعفوا عن حفظها ، فهجمها الفرنج على غفلة من أهلها ، في عاشر شهر رمضان ، والملك الكامل ، مرابط حولها بالعساكر ، وابتنى مدينة سماها « المنصورة » ، وأقام فيها في مقابلة الفرنج .

ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والملك الأشرف في « حران » ، و « ابن المشطوب » في اقطاعه « رأس عين » ، وقد داخل صاحب « ماردين » ' وقرر الأمر معه على العصيان على « الملك الاشرف » ، وجمع جماعة من الاكراد ، فنمى الخبر الى الملك الاشرف ، وخاف ابن المشطوب ، فسار الى سنجار ، فاعترضه والي « نصيبين » ، من جهة الملك الاشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار الى سنجار ، فأجاره قطب الدين صاحبها . وأرسل « الملك الاشرف » اليه ، في طلبه ، فلم يجبه الى ذلك ، فسار الملك الاشرف نحوه ، فترك « سنجار » ، ومضى الى « تلعفر » ، فعصى بها ، فوصل اليه « ابن صبره » وعسكر الموصل . ووصل « الملك الاشرف » الى « سنجار » ، وفتحها ، وعوض صاحبها « بالرقة » عنها ، وفتح لؤلؤ « تلعفر » ، وسلمها الى « الملك الاشرف » ، واستجار « ابن المشطوب » بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الاشرف ، فيه ، وسلمه الى الملك الاشرف ، فقيده ، وسجنه بسنجار . وسار الملك الاشرف الى الموصل ، ومعه عسكر حلب ، فأقام مخيما على ظاهرها ، حتى اصلح أمرها مع صاحب « اربل » ، وهادنه .

ووصل الملك « الفائز » ، من الديار المصرية ، مستصرخا ، وطالبا النجد ، ووصل الى حلب ، وأنزل « بالميدان الأخضر » ، وسار الى الموصل ، الى أخيه « الملك الاشرف » ، فأقام عنده ، بظاهر الموصل ، شهرا ومات . وانفصل الملك الاشرف عن الموصل ، بعد اصلاح أمورها ، وشتى « بسنجار » ، وقبض على « حسام الدين بن خشترين — وكان أميرا من أمراء حلب — لغدر بلغه عنه ، وقيده ، وسيره ، وابن المشطوب الى قلعة « حران » ، فحبسهما فيها الى أن ماتا . وقبض على ابن عماد الدين — صاحب « قرقيسيا » — ، واخذها ، « وعانة » والبلاد التي كانت معه من يده ، وقدم حران ، فوصل اليه أخوه « الملك المعظم » في محرم سنة

ثمان عشرة من دمشق ، فوافقه على الصعود الى الديار المصرية ، لازاحة الفرنج عنها ، فجهز العساكر واستدعى عسكر حلب وعبر الفرات ، والتقى بعسكر حلب .

وسار الى دمياط ، مع أخيه « الملك المعظم » ، وخرج الفرنج عن « دمياط » ، ونزلوا في مقـــــــــــــــــــــــــابلة المسلمين ، فأرسلوا الماء عليهم ، فمنعهم من العود الى « دمياط» ، ولم يبق لهم طريق اليها ، وزحف المسلمون عليهم ، واستداروا حولهم ، فطلبوا الامان وتسليم « دمياط » فتسلمها المسلمون في العشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة .

وكان الملك المنصور – صاحب حماه – قد توفي في ذي القعدة ، سنة سبع عشرة وستمائة . وكان ابنه الكبير « الملك المظهر » ، في نجدة خاله بدمياط ، فاستولى ابنه الملك الناصر ، على حماة ، وسير الى الاتابك شهاب الدين ، يطلب الاعتضاد به ، والسفارة بينه وبين خاله « الملك الأشرف » ، على أن ينتمي اليه ، ويخطب له ، على أن يمنع عنه من يقصده ، وروسل في ذلك ، فأجاب ، وحلف له على ذلك . ونزل « الملك الأشرف » من الديار المصرية ، ووصل الى بلاده ، وسير كتابا الى الاتابك شهاب الدين ، يتضمن أنه : لما وقع الاتفاق في الابتداء ، وعرض علي « الجبول » و « بزاعا » و« سرمين » ، أجبت الى ذلك ، ليعلم المخالف والعدو ، أن البلاد قد صارت واحدة ، والكلمة متفقة ، والآن فقد تحقق الناس كلهم ذلك ، وأوثر الآن التقدم الى ذواب المولى « الملك العزيز » في قبضها ، واجرائها على العادة ، وصرفها في مصالح بلاده فأجبت الى ذلك ورفع « الملك الأشرف » أيدي ذوابه عنها .

وفي سنة تسع عشرة وستمائة

توجه « الملك الصالح » ابن « الملك الظاهر »الى « الشغر » و « بكاس » وأضيف اليه« الروج » و« معرة مصرين » . ورتب جماعة من الحجاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الأولى .

وفي ذي الحجة – من سنة تسع عشرة وستمائة – خرج الملك الناصر صاحب حماه الى الصيد ، فبلغ ذلك « الملك المعظم عيسى » ، صاحب دمشق ، فخرج مجدا من دمشق ، ليسبق ، صاحبها اليها فيملكها ، فانتهى الخبر الى « الناصر » ، فسبق اليها . ووصل الملك المعظم الى حماة ، فوجد الملك الناصر قد وصلها ، وفاته ما أراد فسار الى « معرة النعمان » ، واحتوى على مغلاتها ، وسير أتابك شهاب الدين إليه ، تقدمة مع مظفر الدين بن جرديك ، الى المعرة ، فقبلها ، واعتذر بأنه إنما جاء لكتاب وصله من « الملك الكامل » ، يأمره أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنه خرج خلفه ليدركه ، فلما قرب من « حماة » ، بدا من صاحبها من الامتهان ، وعدم النزل والاقامة ما لا يليق . وتجنى عليه ذنوبا لا أصل لها ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

ودخلت سنة عشرين وستمائة

فرحل « الملك المعظم » الى « سلمية » ، بعد أن رتب « بالمعرة » واليا ، ورتب « لسلمية » واليا من قبله ، وعزم على حصار « حماة » ، واستعد صاحبها للحصار ، ووكل الملك المعظم العرب ، لقطع الميرة عن حماة ، ومنع من يقصدها من الأجناد للانجاد ، وحول طريق القافلة على سلمية .

وارجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان ، قد وافق الملك المعظم ، وأنه قد صاهر صاحب « صهيون » ، وكان سيف الدين ابن قلج ، هو الذي أشار بترتيبه في اللاذقية وضمنه ، فسار اليه ، فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحة ، فترك سيف الدين ابن قلج بها أخاه عماد الدين ، واستصحب حسام الدين ، معه الى حلب ، فأقام الى ان زال الاستشعار من جهة « الملك المعظم » ، وردت إليه .

ووصل حسام الدين الحاجب علي ـ نائب الملك الأشرف في بلاده الى حلب ـ واجتمع بأتابك شهاب الدين ، وأعلمه أن الملك الأشرف ، كتب اليه أن يرحل الى « الملك المعظم » ، ويرحله عن بلاد « الناصر » ، ويعلم « أتابك » أن هذا الذي وقع ، لم يكن بعلم « الملك الكامل » ، ولا « الملك الأشرف » ، وانهما لا يوافقانه على ذلك ، وسار الحاجب اليه في هذا المعنى .

ووصل « الناصح أبو المعالي الفارسي » ـ أحد أمراء حلب ـ برسالة « الملك الكامل » من مصر ، وكان قد صعد اليها الى خدمته « الملك الأشرف » ، وكان هو الحاجب بين يديه إذ ذاك ، والامور كلها راجعة اليه ، فقال له الناصح : « الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل ، وترك الخلاف » ، فأجاب الى ذلك ، وقرر الصلح بين صاحب حماه وبينه ، ورحل الى دمشق ، وعاد الناصح الى مصر .

ونقل السلطان الملك الظاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، الى القبة ، بالمدرسة التي ابتناها له أتابك ، ودفنه بها في أول شعبان من سنة عشرين وستمائة .

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل الى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاه « الملك العزيز » ، ونزل في خيمته ، قبلي « المقام » وشرقيه ، بالقرب من « قرنبيا » ، وكان قد صحبه خلعه للملك العزيز من « الملك الكامل » وسنجق ، وخرج « الملك العزيز » وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك ودخل الناس الى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز ، ومد « الملك الأشرف » السماط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة أحضر « الخلع الكاملية » ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائما في خدمته . ثم أحضر المركوب فأركبه . وحمل الغاشية بين يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب الى القلعة .

وأقام « الملك الأشرف » ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رأيه مع الأمراء على اخراب قلعة « اللاذقية » فسار العسكر اليها ، وخربوها في هذه السنة .

وتوجه الملك الأشرف الى حران ، وعصى الملك المظفر « شهاب الدين غازي » أخوه ، عليه باخلاط » وكان أخوه « الملك المعظم » ، هو الذي حمله على ذلك ، وحسنه له ، لاجل ما سبق من « الملك الاشرف » ، في نصرة صاحب حماه . فاستدعى « الملك الاشرف » عسكرا من حلب ، فسار اليه عسكر قوي فيهم : سيف الدين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بلدق ، في سنة احدى وعشرين وستمائة ، وسار الى « اخلاط » ، واتفق « مظفر الدين » — صاحب اربل — والملك المعظم صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا الى جهة « الموصل » ، وهذا الى جهة « حمص » ، ليشغلا « الملك الأشرف » عن اخلاط ، فسير « الملك الاشرف » ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقيم بسنجار ، خوفا من أن يغتالها

صاحب « أربل » . وخرج « الملك المعظم » ، وأغار على بلد حمص ، وبارين ، ووصل الى « بحيرة قدس » وعاد .

ووصل الملك الأشرف الى « اخلاط » ، فخـرج أخـوه وقـاتله ، فهزمه الى « اخلاط » ، وفتحها أهلهـا للملك الاشرف . واحتمـى الملك « المظفر » بالقلعة ، حتى عفا عنه أخوه الملك الاشرف ، وخرج اليه ، وابقـى عليه « ميافـارقين » . وعاد عسـكر حلب والملك الأشرف ، في رمضان ، وشتى الملك الاشرف بسنجار .

وانهدم في هذه السنة من سور قلعة حلب الأبراج التي تلي « باب الجبل » ، من حد المركز وهي عشرة أبراج ، وتساقطت مع ابدانها ، في سلخ ذي القعدة . ووافق ذلك شدة البـرد في الاربعينات ، فـاهتم « أتابك شهاب الدين » بعمارتها ، وتحصيل آلاتهـا ، مـن غير أن يستعين فيها بمعاونة أحد ، ولازمها بنفسه ، حتى أتمهـا في سـنة اثنتين وعشرين وستمائة .

ومات الملك الأفضل ، « بسميساط » ، في هذه السنة في صـفر ، وحمل الى حلب ، فدفن في التربة ، التـي دفـن فيهـا أمـه قبلي « المقام » .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ووصل « محيي الدين ابو المظفر ابن الجوزي » ، الى حلب بخلعة من « الامام الظاهر » ، الى « الملك العزيز » ، وكان قد تولى الخلافة ، في سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت أبيه « الامام الناصر » ، فألبسها السلطان « الملك العزيز » ، وركب بها ، وكانت خلعة سنية ، واسعة الكم ، سوداء ، بعمامة سوداء ، وهي مذهبة ، والثوب بالزركش . وكان قد أحضر الى « الملك الاشرف » خلعة ، البسه أياها ، وسار بخلعة أخرى الى « الملك المعظم » ، وخلعة أخرى ، الى « الملك الكامل » .

وكاتب « الملك المعظم » خوارزمشاه ، وأطمعه في بلاده أخيه « الملك الاشرف » ، ونزل الملك المعظم من دمشق ، ونازل حمص ، وكان سير جماعة من الاعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل « مانع » ، في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الاشرف ، فانتهبوا قرى « المعرة » و « حماة » ، وقسموا البيادر ، ولم يؤدوا عادادا (٨) ، في هذه السنة ، لاحد .

ولما وصل « الملك المعظم » الى حمص ، اندفع « مانع » وعرب حلب ، والجزيرة ، الى قنسرين ، ثم نزلوا قراحصار ، ثم تركوا اظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة الى نحو حمص ، فتواقع « مانع » وعرب دمشق ، وقعات ، وجرد عسكر من حلب الى حمص ، فوصلوا اليها ، قبل ان ينازلها الملك المعظم ، فحين وصلوها اتفق وصول عسكر دمشق فاقتتلوا ، ثم دخلوا الى مدينة حمص .

وكان « الملك الاشرف » ، على « الرقة » فجاءه الخبر بحركة « كيقباذ » وخروجه الى بلاد صاحب « آمد » ، وأخذه « حصن منصور » ، و « الكختا » (٩) ، فسير « الملك الاشرف » نجدة

الى آمد ، فــالتقاهـم جيش « الرومــي » ، وهــزمهم ، فعــاد الملك الاشرف الى « حران » وخرج من بقي من عسكر حلب الى حــاضر « قنسرين » لانجاد صاحب حمص .

ووقع الفناء في عسكر « الملك المعظم » ومــاتت دوابهــم ، وكثــر المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من الســنة وسار « الملك الأشرف » ، عند ذلك بنفســه الى دمشــق ، واجتمــع باخيه « الملك المعظم » قطعا لمادة شرّه ، وزينت دمشق لقــدوم الملك الأشرف ، وعقدت بها القباب ، وأظهر الملك المعظم السرور بقدومه ، وحــــــــكمه في مــــــــاله ، وبــــــــــــــــــاطنه ليس كظاهره ، ورسله تتــردد إلى « خــوارزمشاه » في البــاطن ، وجاءته خلعة من « خوارزمشاه » فلبسها .

وكانا لما انقضى شهر رمضــان ، قــد خــرجا عن دمشــق ، إلى «المرج» ، وورد عليهما رسولا حلب : القاضي زين الدين ابن الاستاذ نائب القاضي بهاء ، ومظفر الدين بــن جــورديك ، يطلبــان تجــديد الأيمان « للملك العزيز » ، و«أتابك» .

فوجد « الملك الأشرف » ، وقد أصبح مع « الملك المعظم » ، بمنزلة التبع له ، ويطلب مداراته بكل طريق ، وهو لايتجاسر أن ينفرد بهما في حديث ، دون الملك المعظم ، « الملك المعــظم » يشــترط شروطــا كثيرة ، والمراجعات بينهمــا وبين أتــابك إلى حلب مســتمرة مــدة شهرين .

إلى أن وردت الأخبار بنزول « خــوارزمشاه» على « اخــلاط» ، ومحــاصرتها ، وفيهــا « الحــاجب علي » ـ نائب الملك الأشرف ـ فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام من بها مــن اهلهــا وجندهــا ، وأخرجوهم منها ، كرها .

فوافق الملك الأشرف أخاه ، على ماطلبه منه ، واستدعى رسولي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن « خلاط» .

وشتى الملك المعظم ، والملك الأشرف « بالغور » ، واضحى « الملك الأشرف » كالأسير في يدي أخيه « الملك المعظم » ، لايتجاسر على أن يخالفه في أمر من الأمور ، وهو يتلون معه ، وكلما أجابه « الملك الأشرف» إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى ان دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الأشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لايأمن من جهته من أمر يكرهه ، لانه أصبح في قبضته.

واتفق وصولي من الحج ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني « الملك الأشرف » ، وحملني رسالة إلى أتابك شهاب الدين ، مضمونها ماقد وقع فيه مع أخيه .

« وأنه يتلون معه ، تلون الحرباء ، ولايثبت على أمر من الامور ، وإن آخر ماقد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له أتابك على مساعدته ومعاضدته ، وأن لايوافق الملك الكامل عليه ، وأنه متى قصده الملك الكامل ، كان عونا له على الملك الكامل » .

فلما أبلغت « أتابك » ماقال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال « أنا حلفني الملك الأشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لاأهادن أحدا من الملوك على قضية إلا بأمره ، فاذا أراد هذا مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك » .

وحين رأى « الملك الأشرف» وقوعه في أنشوطة أخيه ، وأن لامخلص له إلا بما يريده ، ساعده على كل ماطلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبي حماة وحمص ، فاطمأن الملك المعظم إلى ذلك ، ومكن الملك الأشرف من الرحيل ، فسار إلى « الرقة » ، في جمادى الآخرة من السنة ،

فرجع « الملك الأشرف » عن جميع ما قرره مع أخيه ، تأول في أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرها عليها ، وأنه علم لا ينجيه من يدي أخيه إلا موافقته فيما طلب ، وندم « الملك المعظم » على تمكينه من الانفصال عنه ، وسير العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الأنبرور – ملك الفرنج – إلى عكا ، في جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في « الملك المعظم » حينئذ وأرسلا إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ، فلاطف حينئذ ، أخاه « الملك الأشرف » ، وأرسل إليه يطلب موافقته ، فعذفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله . ومرض « الملك المعظم » بدمشق ومات سلخ ذي القعدة .

وفي هذه السنة ، سلمت عين تاب ، والراوندان ، والزوب ، الى « الملك الصالح » ابن الملك الظاهر ، وأخذ منه « الشغر» و« بكاس» ، وما كان في يده معها .

ودخل الحاجب ، في هذه السنة ، وجمع من قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح « خوي » ، و« سلماس» ، وأخذ زوجة أزبك – وكانت في خوي – وهي التي سلمت خوي إليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسير الملك الناصر ، إلى عمه الملك الأشرف ، يعتضد به ، ويستمسك بذيله ، مع ابن موسك . فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ليأتي الى دمشق ، فسار إليه إلى دمشق .

ونزل « الملك الكامل » ، فخيم بتل العجول في مقابلة الفرنج ، وسير الملك الأشرف إليه ، « سيف الدين بن قلج » يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : « إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك » . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

وأما الملك العزيز ، فانه في هذه السنة ، جلس في « دار العدل » في منصب أبيه ، ورفعت إليه الشكاوى ، فأجاب عنها ، وأمر ونهى ، وكان يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجمع ليلا ، ويتكلمون في المسألة بين يديه .

وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ومقدمي البلد ، وأرباب المناصب ، وعمل عيدا عظيما ، احتفل فيه ، ولم يعمل بحلب عيد منذ مات « الملك الظاهر » ، قبل هذه السنة .

ووصل « الانبرور » إلى عكا ، وخيم الملك الكامل « بالعوجا » . وتوجه الملك الأشرف ، إليه من دمشق ، فجدد الأيمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر سنة ست وعشرين وستمائة ، فنزلت في « الغور » .

وصالح «الملك الكامل» الفرنج على أن أعطاهم مدينة «القدس» ـ سوى الصخرة والمسجد الاقصى ـ وليس لهم في ظاهرها حكم وأعطاهم « بيت لحم » ، وضياعا في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالملك الناصر ابن الملك المعظم ، فقال له :« إنني قد اجتهدت في أمرك بالملك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، وكان آخر ماانتهى اليه أن قال : يعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخذ أنت دمشق .

فعلم الملك الناصر ، أنهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيبك المعظمي معه ، فأشار عليه بالرحيل الى دمشق ، فقوض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى إلى دمشق ، وشرع في تحصينها ، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقاتلوا أشد

القتال ، حتى أعادوا الماء اليها ، ووصل الملك الكامـل ، في جمـادى الأولى ، بالعساكر المصرية ، وخيموا جميعا على دمشق .

وسار القاضي بهاء الدين ، وفي صحبته أكابر حلب وعدولهـا إلى دمشق ، لعقد المصاهرة بين « الملك العـزيز » و« الملك الكامـل » . ووصل إلى ظاهر دمشق من ناحية « ضمير » ،

وخرج الملك الكامـل مـن المخيم ، والتقـاه ، وأنزله في المخيم ، بالقرب من «مشهد القدم» . وأحضره إلى خيمته ، وقدم ماكان وصل على يده ، للملك الكامل . ثم نقله بعد ذلك الى جوسق الملك العـزيز « بالمزة » .

وكان يتردد إليه « الملك الكامـل » ، في بعض الأوقـات ، إلى أن اتفق الأمر ، على أن حمل الذهـب الواصـل ، لتقـدمة المهـر ، والجواري ، والخدم ، والدراهم ، والمتاع . وعقد العقـد بحضـور الملك الأشرف ، في «مسـجد خـاتون» ، وتولى عقد النكاح «عماد الدين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل ، لابنته« فاطمة خـاتون» ،على صـداق مبلغـه خمسـون ألف دينار وقبل القاضي « بهاء الدين » العقد عن الملك العزيز ، وذلك في سحرة يوم الأحد سادس عشر شهر رجب . وخلع « الملك الكامـل » على القاضي ، وعلى جميع أصحابه ، وعلى الحاجي بشر أمير لالا الملك العزيز ، بعد أن فتحت دمشق . وعاد القاضي ومـن في صـحبته إلى حلب .

واستقر أن يأخذ الملك الكامـل مـن الملك الأشرف ، عوضـا عن دمشق : حران ، والرها ، والرقة ، وسروج ، ورأس عين ، وسـار الملك الأشرف إلى بعلبـك ، فحصرهـا إلى أن اخـذها مـن صاحبها .

وسار العسكر الى حماة ، بأمر الملك الكامل ، فحصرها ليسلمها صاحبها إلى الملك « المظفر ابن الملك المنصور » ، فنزل إليه صاحبها

الملك الناصر – وكان نازلا بمجمع المروج – فحبسه عنده الى أن سلمها إلى اخيه ، وأعطاه « بارين » . وسار الملك الكامل إلى الرقة .

ونزل خوارزمشاه على « اخلاط » ، ووافقه ابن زين الدين ، في الباطن ، وصاحب آمد في الظاهر ، وخطب له ، وضاق الأمر بأهل « اخلاط » ، فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلى ذلك ، وافتتحها في ثامن وعشرين من جمادى الأولى ، من سنة سبع وعشرين وستمائة ، ووضع السيف في أهلها ، وسبى النساء والصبيان .

وفي ثامن جمادى الاولى ، ولد للسطان « الملك العزيز» ، مولود من جارية ، وسماه باسم أبيه ، ولقبه بلقبه « الملك الظاهر غازي » ، وزين المدينة ، وعقد القباب ، ولبس العسكر في أتم زينة وهيئة ، وعمل الزورق من القلعة الى المدينة ؛ ونزل الناس فيه ، واندقطعت بكرة برجل منهم ، فوقع في سفح القلعة ، فمات ، فبطل الملك العزيز الزورق .

وولد له أيضا في هذه السنة ، ولد آخر لقبه « بالملك العادل » . وولد له أيضا في هذه السنة ، « السلطان الملك الناصر » وهو الذي أوصي له بالملك ، بعد أن مات الولدان المتقدمان .

واتفق الملك الكامل ، والملك الأشرف ، وملك الروم كيقباذ ، على خوارزمشاه وطلب الملك الأشرف نجدة من حلب ، فسير الملك العزيز وأتابك ، عسكرا يقدمه « عز الدين بن مجلي » ، فدخل الملك الأشرف ، واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية « أرزنكان » ؛ واصطفت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبت ريح عاصفة في وجه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفا ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا ، وصار « الملك الأشرف » إلى « اخلاط » ، فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

وكان للفرنج حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية « المرقب » ، ونهبوا حصن بانياس ، وخربوه ، وسيروا أسرى إلى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرنج وقعة أخرى ، قتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربح فيها للمسلمين ، وسيرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

واحتبس الغيث في حلب ، وارتفعت الأسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على « باذقوسا » ، فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، وانحطت الأسعار قليلا .

واستقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية ، والاسبتار ، في العشرين من شعبان من السنة.

واستقل السلطان الملك العزيز بملكه ، في هذه السنة ، وتسلم خزائنه من«أتابك شهاب الدين» ، ورتب الولاة في القلاع ، واستحلف الأجناد لنفسه ؛ وخرج بنفسه ، ودار القلاع والحصون ، وركب أتابك شهاب الدين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب الناس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظاهر ، إلا هذه المرة ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السلطان « الملك العزيز» بابنة الملك الكامل ، وبقي «أتابك» مدة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السنة ، خطيب القلعة وابن خطيبها « زين الدين عبد المحسن بن محمد بن حرب » ، ومال اليه بجملته .

وسير الملك العزيز القاضي بهاء الدين ، في هذه السنة في شوال ، إلى مصر ، لاحضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها « الملك الكامل » ، إلى دمشق ، وسيرها من دمشق صحبته ، وأصحبها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العسكر ، وخرج وزيره ، وأعيان دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابر أهل حلب أيضا ، والتقتها والدة السلطان عمتها من « جباب التركمان » ، والتقاها بقية العساكر ، « بتل السلطان » ، والتقاها أخو السلطان « الملك الصالح» ، في عسكره ، وتجمله ، وعادت العساكر في تجملها ، واصطفت أطلابا طلبا بعد طلب ، في«الوضيحي» . وخرج السلطان الى«الوضيحي ».

ودخل مع زوجته ، ليلا الى القلعة المنصورة ،في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محتسبها « مجد الدين بن العجمي » ، لأن السعر كان مرتفعا ، وقد بلغ الرطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحط السعر كان في تقاليم الغلة ، الى أن بيع الرطل بخمسة ونصف ، فركب نائب المحتسب وسعره ، وهموا بقتل نائبه ، وخربوا الدكة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها ، فنزل والي البلد ، والأمير « علم الدين قيصر» ، وسكنوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر « الكمال بن العجمي » ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهموا به مرة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدم الأحداث ، وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وداوم « الملك العزيز» الخروج إلى الصيد ، ورمي البندق بنواحي « العمق» وغيرها ، وحسن له جماعة من أصحابه ، أن يسير إلى قلعة « تل باشر» ، ويستولي عليها ، وينزعها من ذواب أتابكه

« شهاب الدين طغرل » ، وأن يبقي عليه رستاقها ، وأن لايكون شيء من القلاع إلا بيده ، فنمى الخبر إلى « أتابك » ، فسير إلى الوالي ، وأمره أن لايعارضه في القلعة ، وأن يسلمها اليه ، وكان له بها خزانة ، فاستدعاها ، وخرج السلطان إلى « عزاز» ، وكانت في يد والدة أخت « الملك الصالح » ، وأولادها بني « الطنبغا » ، عوضهم بها « أتابك » عن « بهسنى » ، بعد قتل الرومي كيكاوس الطنبغا ، فصعد إلى قلعتها ، وولى بها واليا من قبله ، وأبقى عليهم ماكان في أيديهم من بلدها.

ثم سار السلطان من «عزاز» إلى «تل باشر» ، وصعد إلى القلعة ، وولى فيها واليا من جهته ، وانتزعها من ايدي ذواب أتابكه . وبلغه أخذ الخزانة ، من « تل باشر » ، فسير من اعترض أصحاب « أتابك » في الطريق ، فأخذ الخزانة منهم ، وكان يظن أن بها مالا طائلا ، فلم يجد الأمر كما ذكر ، فأعادها على أتابك ، فامتنع من أخذها ، وقال : « أنا ما ادخرت المال إلا لك » ثم دخل السلطان إلى حلب ، وكان ذلك كله ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم إن السلطان«الملك العزيز» ، خرج في خرجاته ، لرمي البندق الى «حارم» ، وتوجه منها الى « دركوش » ثم إلى «أفامية» ، في سنة ثلاثين وستمائة ، فلم يحتفل به صاحب « شيزر » شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين.

وأنفذ إليه إقامة يسيرة – وهي شيء من الشعير على حمير ، سخرها من بلد شيزر – فشق عليه ذلك . فلما دخل حلب استدعى « سيف الدين علي بن قلج الظاهري » ، وسيره إلى الملك الكامل ، ليستأذنه في حصار « شيزر » ، وأخذها ، وكانت مضافة إلى حلب ، وإنما خاف أن يلقي صاحبها نفسه على « الملك الكامل » ، فيشفع إليه في أمره ، فلايتم له مايريد ، فصعد « سيف الدين » إلى دمشق ، وقرر مع الملك الكامل ، الأمر على مايختاره « الملك العزيز» ؛ وسير

إلى السلطان الملك العزيز ، وأعلمه بذلك ، فأخرج العسكر ، والزردخاناه » ، ونزل العسكر على « شيزر » ، واحتاط الديوان ، على مافي رستاق « شيزر » من المغلات .

ووصل « سيف الدين بن قلج » من دمشق ، وخرج السلطان بنفسه ، فنصب عليها المناجيق ، من جهة الجبل ، وترك المنجنيق المغربي ، قبالة بابها ، وسير إلى صاحبها ، وقال له : « والله لئن قتل واحد من أصحابي ، لاشنقنك بدله » . فتقدم إلى الجرخية بالقلعة ، أن لايرمي أحد بسهم ، وتبلد ، وأسقط في يده .

وأرسل « الملك الكامل » إلى السلطان نجابين ، ومعهما خمسة الاف دينار مصرية ، ليستخدم بها رجالة ، يستعين بهم على حصار « شيزر» .

وقدم اليه الى شيزر « الملك المظفر محمود » -صاحب حماه- وأرسل اليه صاحب شيزر ، يبذل له تسليمها ، على أن يبقي عليه أمواله ، التي بها ، ويحلف له على أملاكه ، بحلب ، فأجابه إلى ذلك ونزل من شيزر إلى خدمة السلطان ، وسلمها اليه ، ووفى له السلطان بما اشترطه ، وصعد السلطان الى القلعة ، وأقام أياما بشيزر ، ثم دخل إلى مدينة حلب .

ومرض أتابك « شهاب الدين طغرل بن عبد الله » في أواخر هذه السنة ، ودام مرضه ، إلى أن مات ، ليلة الاثنين الحادية عشرة ، من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وحضر السلطان الملك العزيز، ومحمد ابن الملك الظاهر ، جنازته ، صبيحة الليلة المذكورة . ومشى خلف جنازته ، من داره إلى أن صلي عليه خارج « باب الأربعين » ودفن بتربته ، التي أنشأها «بتل قيقان » ، ووقفها مدرسة على أصحاب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبكى السلطان عليه بكاء عظيما ، وحضر عزاءه ، يومين بعد موته ، بالمدرسة التي أنشأها« أتابك » وجعل فيها تربة للسلطان الملك الظاهر - رحمهم الله - وفي هذه السنة :

وهي سنة احدى وثلاثين

نزل الملك الكامل ، من مصر ، واتفق مع أخيه الملك الأشرف ، على قصد بلاد السلطان « كيقباذ بن كيخسرو » ، للوحشة التي تجددت بينهم ، بسبب استيلاء كيقباذ على بلاد « أخلاط » ، وانتزاعها من أيدي نواب « الملك الأشرف » ، وسارا من دمشق ، وخرج معهما الملك المجاهد ، صاحب حمص ، والملك المظفر ، صاحب حماة ، ووصل معهم الملك الناصر ، صاحب الكرك ، ووصلوا إلى « منبج » باذن السلطان « الملك العزيز » .

وسير الملك العزيز إليه الى « منبج » الاقامة العظيمة ، والزردخاناه ، وعسكره ، ومقدمه عمه « الملك المعظم » ، وساروا من ناحية « تل باشر » ، فنزل إليه « الملك الزاهر داود بن الملك الناصر » . وقدم إليه صاحب «سميساط » « الملك المفضل موسى » ، وصاحب « عين تاب » «الملك الصالح بن الملك الظاهر » ، والملك المظفر شهاب الدين ابن الملك العادل، والملك الحافظ ، أخوه ، وغيرهم ، من الملوك ، حتى اجتمع في عسكره ستة عشر أميرا .

وسير ملك الروم إلى « الملك العزيز » ، وقال له : «أنا راض منك بأن تمده بالأجناد والأموال ، على أن لاتنزل إليه أبدا . وأعفاه الملك الكامل ، من مثل ذلك ، ورضي كل واحد من الملكين بفعله .

وسار الملك الكامل في جيوشه ، في أوائل سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، إلى أن نزل على « نهر الأزرق » ، في طرف بلاد الروم ، وجاء عسكر حتى نزل قبلي زلى - بينها وبين الدربند - والسلطان معهم ، وصعد الرجالة الى فم « الدربند » ، بالقرب من ذور كفال ، وبذوا عليه سورا ، وقاتلوا منه ، ومنعوا من يطلع إليه ، وقلت الاقوات على العسكر الشامي .

فرجع « الملك الكامل » ، وخرج إلى طرف بلد « بهسنى » ، ونزل على بحيرة أنزنيت ، ووصل إليه صاحب خرتبرت ، ودخل في طاعته ، وأشار عليه بالدخول من جهته ، فسار إلى ناحية « خرتبرت » .

ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طائفة من عسكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفر - صاحب حماة - وشمس الدين صواب، فكسر العسكر الكاملي، واعتصم من نجا منهم« بخرتبرت»،

فحاصرهم ملك الروم إلى أن نزلوا بالأمان ، وأطلقهم ، واستولى « كيقباذ» على « خرتبرت » ، وعفا عن صاحبها ، وعوضه عنها بأقطاع في بلاده .

ومرض « الملك الزاهر » في العسكر ، فحمل مريضا إلى« البيرة»،

وقوي مرضه ، وطمع بعض بعض اولاده بملكها ، وشرع في تحصينها وتقويتها ، وبلغ « الملك الزاهر » ذلك ، فسير إلى السلطان « الملك العزيز» ، واستدعاه إليه ، وأصعده إلى القلعة ، وأوصى اليه بالقلاع التي في يده ، والخزائن وعين لأولاده شيئا من ماله ، « بالبيرة» ، والسلطان بها عنده ، في أوائل صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وأقام السلطان بها يرتب أحوالها ، وأقام فيها واليا من قبله ، فاتفق وفاة القاضي بهاء الدين بحلب ، في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وطلب « الكمال ابن العجمي» قضاء حلب ، وكاتب السلطان في ذلك فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من « البيرة» إلى « حارم» ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى « حارم» ، فمنعه الدخول إليه ، وبذل له في قضاء حلب ستين ألف درهم ، وأن يحمل في كل سنة ، للسلطان ، من فواضل أوقاف الصدقة ، ومن كتابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السلطان إلى شيء من ذلك ، وكتب

إلى القاضي زين الدين ، كتابا يأمره بـأن يحـكم بين الناس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل الى المدينة ، فلما دخل السلطان اجتهد « ابن العجمي» في قبـول مـابذله ، وبـذل شـيئا كثيرا غير ذلك ، لخواص السلطان ، وحسنوا للسلطان قبول مـابذله ، وإجـابته الى ماسأله ، فجرى على مـذهب أبيه وجـده في الاحسـان ، ولم يبـع منصب النبي ـ صـلى الله عليه وسـلم ـ بـالأثمان ، ونظـر في مصـلحة الرعية ، وأرضى الله ونبيه ، وقلد القضـاء بمـدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الأول مـن سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، القاضي زين الدين أبا محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن علوان ـ المعروف بابن الأسـتاذ ـ وكان نائب القاضي بهاء الدين في الحكم .

وأما الملك الكامل ، فانه عاد في تلك الجيوش العـظيمة ، ولم يحـظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، وحـال بين الفـريقين ، وعاد كل إلى بلاده ، ولما خرج فصل الشـتاء ، خـرج « علاء الدين كيقبـاذ» الى الجزيرة ، والرها ، والرقة ، وسبى عسكره أهل البلاد كما يسـبى الكفار ،وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وسـتمائة ، وسار « الملك الكامل» نحـوها ، فـاندفع ملك الروم ، فعـاد « الملك الكامل» ، واستولى على البلاد ، وخرب قلعة الرها وبلدها ، وسير إليه السـلطان العسـكر إلى الشرق ، والزردخـاناه ، وذلك في الجماديين ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

ودا م « الملك العزيز» ، في ملكه بحلب ، وسمت همته إلى معالي الأمور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم الى أن دخلت سنة أربـع وثـلاثين وسـتمائة ،

فغضب على وزيره « زين الدين بن حرب » ، وألزمه داره بقلعـة حلب ، وولى الديوان مـكانه ، الوزير « جمـال الدين الاكرم أبـا الحسن علي بن يوسف القفطي الشيباني » .

وخرج في أواخر شهر صفر إلى « الذقرة » ، ثم توجه منهـا إلى «

حارم » ، وحضر في الملقه (١٠) ، لرمي البندق ، واحتـاج الى أن اغتسل بماء بارد ، فحم ، ودخل إلى حلب ، فالتقاه الناس ، وهـو موعوك ، ودامت به الحمى ، الى أن قوي مرضه ، واستحلف الناس لولده الملك « الناصر صـلاح الدين يوسـف بـن الملك العـزيز » . وسيرني إلى أخيه « الملك الصالح » إلى عين تـاب ، يسـتحلفه له ، ولابنه « الملك الناصر» ، وعدت ، وقد مات ، في شـهر ربيع الأول ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وتولى تدبير دولته الأميران : شـمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعز الدين عمر بـن محلى ووزير الدولة القـاضي « جمـال الدين الأكرم» و«جمال الدولة اقبال الخاتوني » ، يحضر بينهم في المشورة .

واذا اتفق رأيهم على شيء ، دخل جمال الدولة إقبال الخاتوني ، إلى جدة السلطان « الملك الناصر » ، والدة « الملك العـزيز » ، وعرفهـا مااتفق رأي الجماعة عليه ، فتـأذن لهـم في فعله ، والعـلامات على التواقيع ، والمكاتبات إلى السـتر العـالي الخـاتوني ، والدة الملك العزيز . فاتفق رأيهم ، على أن سيروا القاضي زين الدين ـ قـاضي حلب ـ والأمير بدر الدين بـدر بـن أبـي الهيجـاء ، إلى مصر ، رسولين الى « الملك الكامل » ، ليحلفاه « للملك الناصر » ، ويتوثقا من جهته ، واسـتصحبا معهمـا كزاغند السـلطان الملك العـزيز ، وزرديته، وخوذته ، ومركوبه .

فلما وصلا إليه ، أظهر الألم والحزن لموته ، وقصر في إكرامهمـا وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على الوجه الذي اقتـرح عليه ، وخاطب الرسولين بما يشيران به ، عنه ، من تقدمه « الملك الصـالح ابن الملك الظاهر » ، على العسكر ، وأن تكون تـربية «الملك الناصر » إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتفق بعد ذلك بمدة ، أن سير الملك الكامل خلعـة للملك الناصر ، بغير مركوب ، وسير عدة خلع لأمراء الدولة ، وسير مع رسول مفرد

خلعة « الملك الصالح » ، على أن يجيء اليه إلى « عين تاب » ، فاستشعر أرباب الدولة التدبير من ذلك ، وحصل عند جدة السلطان وحشة من ذلك . واتفق رأيهم ، على أن لبس السلطان خلعته ، ولم يخلع على أحد من الامراء شيء ، مما سيره لهم ، وردوا الرسول الوارد إلى الملك الصالح بخلعته ، ولم يمكنوه من الوصول إليه ، واستوحشوا من جهة « الملك الكامل » .

وكان « الملك الاشرف » ، قد تتابعت من أخيه ، « الملك الكامل » افعال أوجبت ضيق صدره ، وكان يغض على نفسه ، ويحتملها ، فمنها أنه أخذ بلاده الشرقية ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعددة .

واتفق أن « كيقباذ » ملك الروم ، أخذ « خلاط» ، فضاق ما في يد « الملك الاشرف » جدا ، وكان ينزل إليه في كل سنة إلى دمشق ، في عبوره إلى الشرق ، فيقيم بدمشق مدة ، فيحتاج « الملك الاشرف » ، في ضيافته إلى جملة .

وقبض على أملاكه التي كانت له بحران ، والرقة ، وسروج ، والرها ، ورأس عين ، وعلى جميع تمليكاته التي ملكها بتلك الناحية ، وفتح آمد ، وهو في صحبته ، فلم يطلق له من بلادها شيئا ، وخذله في انتزاع « خلاط » من يد « الرومي » ، فاتفق هو ، والملك المجاهد – صاحب حمص – والملك المظفر – صاحب حماة – وعزموا على الخروج عليه ، وعين لكل واحد منهم شيء من بلاده ، وأرسل إلى الملكة « الخاتون» والامراء بحلب ، وطلبوا موافقتهم على ذلك ، وخوفوهم من جهته ، وذكروا ماتمتد أطماعه إليه فوافقوهم . وتحالفوا عليه ، وسيروا رسلا من جهتهم إلى ملك الروم « كيقباذ» ؛ يطلبون منه مثل ذلك . فوصلوا إليه ومات « كيقباذ » ، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه « كيخسرو » ، فحلف لهم على ذلك .

واتفقوا كلهم على أن أرسلوارسلا من جهتهم ، إلى « الملك

الكامل » ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : « إننا قد اتفقنا كلنا ، ونطلب منك أنك لاتعود تخرج من مصر ، ولاتنزل إلى الشام » ، فقال لهم : « مبارك أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ، احلفوا أنتم أيضا لي : أن لاتقصدوا بلادي ، ولاتتعرضوا لشيء مما في يدي وانا أوافقكم على ما تطلبون » . ونزل رسوله ، ومرض « الملك الأشرف » ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات ـ على مانذكره ـ .

ومما تجدد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمائة : أن « شهاب» الدين»«صاحب شيزر» ، و«كمال الدين عمر بن العجمي» ، اتفقا ، على أن سيرا من جهتهما رجلا ، يقال له « العز ابن الأطغاني » إلى دمشق إلى « الملك الأشرف » ، وحدثاه في أن يقصد حلب ، وانهما يساعدانه بأموالهما ، وأوهمه صاحب « شيزر » أن معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أن أقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيين ، يتابعونه ، ويشايعونه ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على « الملك الأشرف » ، أن يوليه قضاء حلب .

فمضى رسولهما إلى « الملك الأشرف » ، واجتمع ببعض خواصه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابهما بأنه : « لاتتصور أن يبدو مني غدر ، ولاقبيح في حق أحد ذرية الملك الظاهر » ، وأخبرني « فلك الدين بن المسيري » أنه هو الذي كان المتكلم بين « الملك الأشرف » ، وبين رسولهما .

ونمي هذا الخبر إلى الملكة ، والامراء ، فسيروا من يوقف الرسول واتفق وصوله إلى حلب » فقبض في « باب العراق» ، وأصعد إلى القلعة ، وسئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فصه ، فحبس الرسول ، وحلقت لحيته ، وسير إلى « دربساك » ، وحبس بها ، واصعد « ابن العجمي » ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقعلة ، وأخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يتعرض لأموال ابن

العجمي ، تطييبا لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى أن مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستمائة وأطلقا .

ومما حدث أيضا ، في سنة أربع وثلاثين ، أن أميرا من التركمان ، يقال له « قنغر» جمع إليه جمعا من التركمان ، بعد موت « الملك العزيز» ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية « قورس » ، وغيرها ، ونهب ضياعا متعددة ، وكان يغاز (١١) ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر « ملك الروم » ، فسيروا رسولا إلى ملك الروم ، في معناه ، فأنكر ذلك ، وأمر برد ماأخذه ، من بلد حلب ، فرد بعضه ، وانكف عن العيث والفساد .

وبذل « ملك الروم » من نفسه الموافقة ، والنصرة « للملك الناصر» وكف من يقصد بلاده بأذى ، فسير له تقدمه سنية ، من حلب على يد « شرف الدين بن أمير جاندار » ، فأكرم الرسول إكراما كثيرا ، وسيرا إليه رسول في الباطن ، وهو أوحد الدين - قاضي خلاط - فاستحلفه على الموالاة « للملك الناصر » ، والذب عن بلاده ودفع من يقصدها .

واتفق أيضا ، في هذه السنة ، تحرك الداوية ، من « بغراس » ، وأغاروا في بلد « العمق » ، واستاقوا أغناما للتركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . فخرج « الملك المعظم بن الملك الناصر » يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على « بغراس » وحصروها مدة ، حتى ثغروا مواضع من سورها ، ونفد مافيها من الذخائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسير البرنس - صاحب أنطاكية - وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضبا لهم ، فرأوا المصلحة في إجابته الى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداوية ، على « بغراس » ورحلوا عنها ، ولو أقاموا عليها يومين آخرين ، لما استطاع من فيها الصبر على المدافعة

وسار العسكر عن « بغراس » ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ، خرابا شنيعا ، ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من « دربساك » ، فجمع « الداوية » جموعهم ، واستنجدوا بصاحب « جبيل » وغيره ، من الفرنج ، وجمعوا راجلا كثيرا ، وساروا من جهة حجر « شغلان » إلى « دربساك » ، ظنا منهم أن يكبسوا الربض ، على غرة من أهله ، وأن ينالوا منه غرضا ، فاستعد لهم من بالربض من الأجناد ، ونزل جماعة من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ، قتالا شديدا ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب الفرنج ، وكلت خيولهم ، فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة شنيعة ، وقتل منهم خلق عظيم ، واستولى المسلمون على فارسهم وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدمين واختبأ منهم جماعة من الخيالة ، وغيرهم ، خلف الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب ، وكان يوما مشهودا وحبسوا في القلعة ، ثم أنزلوا الى الخندق . وفتت هذه الوقعة في أعضاد « الداوية » ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

ومات في هذه السنة « علاء الدين كيقباذ» ـ ملك الروم ـ « بقيصرية» ، في أوائل شوال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وسيرت رسولا إلى ابنه « غياث الدين كيخسرو » ، القائم في الملك بعده ، بالتعزية ، وتجديد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع أبيه ، فحلفته على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على « قيرخان » ـ مقدم الخوارزمية ـ فهرب من بقي منهم ، من بلاد الروم ، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه ، وعبروا الفرات ، واستمالهم الملك الصالح بن الملك الكامل ، وأقطعهم مواضع في الجزيرة .

وتوفي « الملك الأشرف » بدمشق ، لأربع خلون من المحرم ، من

سنة خمس وثلاثين وستمائة . وأوصى بها لأخيه « الملك الصالح اسماعيل » ، وجدد الأيمان مع الجماعة ، الذين كانوا وافقوا أخاه « الملك الأشرف » .

فخرج « الملك الكامل » من مصر ، وقصد دمشق ، وسير من حلب نجدة الى دمشق وكذلك سير « الملك المجاهد » ولده « المنصور » اليها ، ونزل « الملك الكامل » على دمشق ، وحصرها مدة ، فرجع « الملك المظفر » – صاحب حماة – عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل ، وأطلعه على جميع الأحوال ، ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف ، وطلب من صاحب حمص « سلمية» ، لتجري الموافقة على ماكان عليه .

فسيرت من حلب ، ومعي الأمير « علاء الدين طيغا الظاهري » ، ليوفق بين صاحب حمص وصاحب حماة ، فأبى كل واحد منهما ، أن يجيب صاحبه إلى مايريد . وكان مطلوب صاحب حماة أن يعطيه صاحب حمص « سلمية » والقلعة التي جددها « الملك المجاهد » المعروفة « بشميميس »(١٢) . فقال « الملك المجاهد » : «هذه ثمينة لي ، وقد حلف لي على كل مابيدي » ، وأبى أن يجيبه إلى ذلك .

فعدنا إلى «حماة » ، وذكرنا لصاحبها مقالة « الملك المجاهد » ، وأن في مايحاوله نقضا للعهد ، فقال : هو قد نقض عهدي ، واستفسد جماعةمن عسكري »، وعدد له ذنوبا لا أصل لها ، وقال :« لابد من قصده ، وإذا نزل الملك الكامل على حمص ، نزلت معه عليها وفعلت مايصل إليه جهدي . ولكن حلب ، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها ، ولاأرجع عن اليمين التي حلفت بها للستر العالي ، والملك الناصر » .

فقلت : « فالمولى يعلم ماجرى بيننا وبين صاحب حمص ، من الأيمان ، ومانقض منها عهدا ، وإذا وصل عسكر من حلب لنجدته ، فكيف يفعل المولى » ؟ فتلجلج ، وقال :« أنا أقاتله ، ومن

قاتلني قاتلته » . فكتبنا بذلك إلى حلب ، فجاء الأمر بـالتوجه إلى حلب ، فسرنا في الحال من غير توديع ، حتى وصـلنا العبـادي ليلة الاثنين ، مستهل جمـادى الأولى ، مـن سـنة خمس وثـلاثين وستمائة ، فلحقنا «المهماندار» (١٣) بالخلع والتسفير ، فلم نقبـل منه شيئا ، ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء ، فتحقق أنه قـد داخـل « الملك الكامل » ، وأنه يطالعه بالمتجددات جميعها .

وأما دمشق ، فإن « الملك الكامـل » ، لازم حصـارها ، حتـى صالحه « الملك الصالح» ، على أن أبقى له بعلبك ، وبصرى ، وأخـذ منه دمشق ، في تاسع عشر جمادى الأولى ، من السنة ، ولم يتعرض لنجدة حلب ، وحمص بسوء ، وخرجوا من دمشق الى مسـتقرهم .

ووصل « الناصح » ، وعسـكر حلب ، الى حلب ، واسـتدعى « الملك المعظم » ، وأقارب السلطان والأمـراء ، وحلفـوا للسـلطان « الملك الناصر» و« الخاتون الملكة » ، على طبقاتهم ، ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ، ورؤساؤها . ثـم حلف الأجناد والعـامة ، واسـتعد الناس للحصــار بــالذخائر ، والأقــوات ، والحــطب ومـايجري مجـراه ، ونقلت أحجـار المناجيق إلى أبـواب البلد ، واستخدم جماعة من الخوارزمية ، وغيرهم .

ووصل « قنغـر التـركماني » ، فـاستخدم بحلب ، وقدم على التركمان . وقفـز جمـاعة مـن العسـكر الكاملي الى حلب ، فاستخدموا ، وتتابعت الرسـل إلى « ملك الروم » ، لطلب نجـدة ، تصل إلى حلب ، من جهته ، فسير نجدة من أجود عساكره ، وعرض عليهم أن يسير غيرها ، فاكتفوا بمن سيره .

وسـير ملك الروم رسـولا إلى « الملك الكامـل » ، يخـاطبه في الامتناع عن قصد حلب ، فأمر بالتبريز من دمشـق ، لقصـد حلب ، وأخرج الخيم والأعلام ، فمرض ، ومات بـدمشق ، في قلعتهـا ، في حادي وعشرين ، شهر رجب ، من سنة خمس وثلاثين وسـتمائة ، ووصل خبر موته ، فعمل له العزاء بحلب ، وحضره السلطان « الملك

الناصر » ، يومين ، وأمر العسكر في الحال ، بالخروج إلى معرة النعمان ، فخرج ، نازل معرة النعمان ، مع « الملك المعظم » ، ووصل رسول« الملك المظفر » - صاحب حماة - يتلطف الحال ، فلم يلتفت إليه ، ولم يستحضر . وسيرت المجانيق ، ونصبت على قلعة المعرة .

ووصل في أثناء ذلك ، رسول من السلطان « غياث الدين كيخسرو» يطلب الوصلة الى « الخاتون » ، بأن تزوجه بنت السلطان « الملك العزيز » ، أخت السلطان « الملك الناصر »، وأن يزوج السلطان الملك الناصر ، أخت السلطان « غياث الدين » ، واستقر الأمر على ذلك ، واجتمع الناس في دار السلطان ، بالقلعة ، وعقد عقد السلطان« غياث الدين » على الست » غازية خاتون » . وتوليت عقد النكاح ، على مذهب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - لصغر الزوجة ، على خمسين ألف دينار ،

وقبل النكاح ، عن السلطان « غياث الدين» الرسول الواصل من جهته ، « عز الدين » - قاضي دوقات (١٤) - حينئذ - ونثر الذهب ، عند الفراغ من العقد .

ووصل ، عند ذلك ، الخبر بفتح « معرة النعمان» ، في تلك الساعة ، على جناح طائر - وضربت البشائر للأمرين ، وذلك في تاسع شعبان (١٥) من سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وسار العسكر فنازل « حماة» ، وابتنى صاحبها سورا من اللبن على حاضرها ، من جهة القبلة ، ونهب عسكر حلب بلد « حماة» ورستاقها .

ووصل رسول من الملك « الصالح بن الملك الكامل » ، يشفع في صاحب حماة ، فلم يجب إلى سؤاله فيه ، واعتذر إليه بما بدا منه ، وطلب الرسول ، عن صاحبه ، الموافقة والمعاضدة ، وأن يسفروا في الصلح ، بينه وبين « ملك الروم » ، فأجيب جوابا ، لم يحصل منه على طائل .

ووردت الرسل من مصر ، من الملك العادل ، والملك الكامل ، يطلبون منه الموافقة ، بينه وبين صاحب حلب ، وأن يجروا منه ، على عادة أبيه ، في الصلح ، وإقامة الدعوة له بحلب ، فلم يجب الى شيء من ذلك ، ورجعت الرسل بغير طائل .

وفي هذه السنة ، قبض على « قنغر التركماني» ، وحبس بقلعة حلب ، ونهبت خيمه ودوابه .

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي ، وكان في عزم « كيخسرو » التوجه إلى ناحية « قونية » ، فتعوق بسببي ، وسير بولقا إلى « أقجا» دربند ، قبل وصولي « ابلستان » يستحثني على الوصول ، ويعرفني تعويقه بسببي ، ثم سير بولقا آخر ، فوصل إلى تحت « سمندو» يستحثني على الوصول .

فاسرعت السير ، حتي وصلت إلى « قيصرية » ، والسلطان في « الكيقبانية » ، فاستدعاني إليه ، ولم أنزل « بقيصرية » ، واجتمعت به ، عند وصولي ، يوم الثلاثاء ، سادس عشر شوال ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ووقعت الاجابة إلى عقد العقد • ووكل السلطان « كمال الدين كاميار » ، على عقد العقد معي ، على أخته « ملكة خاتون بنت كيقباذ» . ودخلنا في تلك الساعة إلى « قيصرية» ، وأحضر قاضي البلدة ، والشهود ، وعقدت العقد مع « كاميار » ، على خمسين ألف دينار سلطانية ، مثل صداق « كيخسرو» ، الذي كتب عليه لأخت السلطان « الملك الناصر » .

وأظهر في ذلك اليوم من التجمل ، وآلات الذهب ، والفضة ، مالا يمكن وصفه . ونثرت الدنانير الواصلة ، صحبتي ، وكانت ألف دينار ، ونثر في دار السلطان من الذهب ، والدراهم ، والثياب ، والسكر ، شيء كثير . وضربت البشائر في دار السلطان ، وأظهر من السرور والفرح ، مالايوصف .

وسيرت ، في الحال ، بعض أصحابي إلى حلب ، مبشرا بذلك

كله ، فضربت البشائر بحلب ، وأفيضت الخلع على المبشر ، وعدت إلى حلب ، فدخلتها يوم الخميس ، تاسع ذي العقدة ، والتقاني السلطان « الملك الناصر » - أعز الله نصره - يوم وصولي .

هذا كله ، والعسكر الحلبي محاصر « حماة » . وكان قبل هذا العقد ، سير السلطان « كيخسرو » الأمير « قمر الدين » الخادم - ويعرف بملك الأرمن - رسولا إلى حلب ، وعلى يده توقيع من السلطان « الملك الناصر » ، بالرها ، وسروج . واتفق الأمر معه ، على أن خطب له الملك « المظفر شهاب الدين غازي » - ابن الملك العادل - وأقطعه حران ، وأقطع « الملك المنصور» - صاحب ماردين - سنجار ، ونصيبين ، و« الملك المجاهد » - صاحب حمص - عانة ، وغربا من بلد الخابور ، وكانت هذه البلاد في يد « الملك الصالح بن الملك الكامل » . واتفق الأمر ، على أن يأخذ السلطان « كيخسرو » آمد ، وسميساط ، وأعمالها .

وكان « الخوارزمية » ، قد خرجوا على « الملك الكامل » ، واستولوا على البلاد ، وهرب « الملك الصالح » منهم . فأنعم على الرسول الواصل إلى حلب ، وأعطي عطاء وافرا ، وقبل التوقيع منه .

ولم تر الملكة « الخاتون » مضايقة ابن أخيها في البلاد ، ولم تتعرض لشيء منها . وبلغه ذلك فسير إليها ، وعرض عليها تلك البلاد ، وغيرها ، وقال :« البلاد كلها بحكمك ، وإن شئت إرسال نائب يتسلم هذه البلاد ، وغيرها ، فأرسليه لأسلم إليه ما تأمرين بتسليمه » . فشكرته ، وطيبت قلبه .

واتفق بعد ذلك مع « الخوارزمية » . وأقطعهم : حران ، والرها ، وغيرهما ، بعد أن كانوا اتفقوا مع « الملك المنصور » - صاحب ماردين - وقصدوا بلاد « الملك الصالح أيوب » ، وأغاروا عليها ، ونزلوا على حران ، وأجفل أهلها .

وخاف « الملك الصالح » ، فاختفى ، ثم ظهر « بسنجار » ؛ وحصره « بدر الدين لؤلؤ » ـ صاحب الموصل ـ وكان قد ترك ولده الملك « المغيث» « بقلعة حران » ، فخاف من الخوارزمية ، وسار مختفيا نحو « قلعة جعبر » ، فطلبوه ، ونهبوه ومن معه ، وأفلت في شرذمة من أصحابه ، ووصل إلى «منبج» مستجيرا بعمته . فسير إليه من حلب ، ورد عن الوصول إليها بوجه لطيف ، وقيل له : « نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ، ولايمكننا منعك منه » ، فعاد إلى حران ، ووصله كتاب أبيه يأمره بموافقة « الخوارزمية » والوصول إليه بهم لدفع « لؤلؤ » ، ففعل ذلك ؛ وسار«بالخوارزمية»، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا وأفرجوا عن سنجار ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي الملك الصالح بهم

ووصل عسكر « الروم » إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعض قلاعها ، وتوجه عسكر « الخوارزمية » ، إلى جهتهم ، فرحلوا عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

ووصل رسول « السلطان كيخسرو » عز الدين ـ قاضي دوقات ـ إلى حلب في هذه السنة ، وتحدث في إقامة الدعوة « للسلطان كيخسرو» ، وضرب السكة باسمه . وكان الأمراء والعسكر محاصرين « حماة » ، فتوقفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقته على ماطلب ، فأجابت وخطب له في يوم الجمعة «...» (١٦) من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الأمير « جمال الدولة إقبال » ، وصعد الرسول الى المنبر ، ونثر الدنانير عند إقامة الدعوة ، ونثر « جمال الدولة » دنانير ودراهم ، وخلع على الدعاء، وأظهر من السرور ، والاحتفال في ذلك اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ماأظهر «بقيصرية» من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

وطال الحصار على « حماة » ، ولم تكن « الملكة الخاتون » تـؤثر أخذها من ابن أختها ، وانما أرادت التضييق عليه ، لينزل عن طلب « معرة النعمـان » . وضـجر العسـكر ، فـاستدعي إلى حلب المحروسة ، فوصل اليها في « ....»(١٧) مـن سـنة سـت وثـلاثين وستمائة .

وكان الملك « الجواد يونس بن مودود بـن الملك العـادل » ، بعـد موت « الملك الكامـل » ، قـد اسـتولى على « دمشـق » ، وعلى الخزائن ، التي كانت في صحبة « الملك الكامل» ؛ وأظهـر الطـاعة « للملك العادل» وأرسل إلى حلب، رسـولا يطلب منهـم معـاضدته ، وانتماءه ، فلم يصـغوا إلى قـوله ، وامتنعـوا أن يدخلوا بينه وبين الملك العادل .

وخاف من « الملك العادل» ، فـراسل الملك « الصـالح أيوب ابـن الملك الكامل » ، واتفقا على أن يسلم إلى « الملك الصالح » دمشـق ، ويعوضه عنها « بـالرقة » « سـنجار » و« عانة » ، فسـار « الملك الصالح ، من الشرق، و« الخـوارزمية » في صـحبته ، في جمـادى الأولى . وتقدم الملك الصالح إلى دمشـق ، وتسـلمها مـن « الملك الجواد» ، في جمادى الآخرة من سنة ست وثـلاثين ، وأرسـل إلى عمته الى حلب ، يعرفها بذلك ، ويبـذل مـن نفسـه الموافقـة على ماتريده ، ويطلب المساعدة له ، والمعاضدة على أخذ مصر ، فأجابته بأنها : « لاتدخل بينه وبين أخيه ، وانكما ولدا أخي » ، ولم تجبه إلى ماا قترح .

وسار « الملك الجواد » إلى « الرقة» ، فأخرجه « الخـوارزمية » منها ، وسار إلى « سنجار » ، فأقام بها مدة ، وخرج إلى « عانة »، فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ، بعملية كانت له فيها ، فـاستولى عليها ، في شهر ربيع الأول ، من سنة سبع وثلاثين .

وأما الملك الصالح ، فإنه صـعد إلى «نابلس» ، وأقـام بهـا ،

وكاتب الأمراء المصريين ، وعثر الملك على قضيتهم ، فقبض الذين كاتبوه ، ولم يتفق للملك الصالح ماأراد .

وساق عمه « الملك الصالح اسماعيل » ، من بعلبك ، « والملك المجاهد» - صاحب حمص - منها ، ودخلا « دمشق » ، وملكها « الملك الصالح » ، وحصر القلعة يوما أو يومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الاول ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة . وقبض على « الملك المغيث» بن الملك الصالح ، وسجنه « بقلعة دمشق » .

وسمع الملك الصالح بن الكامل بذلك ، فتوجه نحو دمشق ، حتى وصل إلى « العقبة ، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه ، فعاد إلى «نابلس» ، فسير «الملك الناصر» - صاحب الكرك - وقبض عليه ، وحمله مقيدا الى «الكرك» وسجنه بها .

وتجددت الوحشة بين « الملك الناصر » ، وبين « الملك الصالح » عمه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمه الملك الصالح ، فاستوحش « الملك الناصر » من الملك العادل لذلك ، حتى آل الامر به إلى أن أخرج الملك الصالح بن الكامل من سجن « الكرك» ، وخرج معه ، وكاتب الأمراء بمصر ، فقبضوا على « الملك العادل» « ببلبيس » ، في ليلة الجمعة ، الثامن من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ووصل الملك الصالح أيوب ، فدخل « القاهرة ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وكنت إذ ذاك بالقاهرة ، رسولا الى « الملك العادل» ، أهنئه بكسر عسكره الافرنج على « غزة» ، وأطلب أن يسير عماته بنات « الملك العادل » ، معي إلى أختهن « الملكة » إلى حلب ، فاستحضرني « الملك الصالح أيوب » ، يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وقال لي : « تقبل الأرض بين يدي الستر العالي ، وتعرفها أنني مملوكها ، وانها عندي في محل « الملك الكامل» ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها ، وامتثال أمرها فيما تأمر به » ، وحملني مثل هذا القول إلى « السلطان الملك الناصر » .

ونزلت من مصر ، فاجتمعت بالملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ، في رابع محرم سنة ثمان وثلاثين ، وحملني رسالة الى « الملكة الخاتون» ، يطلب منها معاضدته ، ومساعدته ، على « الملك الصالح » - صاحب مصر - إن قصده ، فلم تجبه إلى ذلك في ذلك الوقت .

وكان « الخوارزمية » ، في سنة سبع وثلاثين ، قد وضعوا أيديهم على « أوشين » - من بلد البيرة - وطمعوا في أطراف بلد« البيرة»، واستولوا على على قلعة « حران » ، حين كان « الملك الصالح » محبوسا « بالكرك » ، وامتدت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثر تثقيلهم على الملك « الحافظ أرسلان بن الملك العادل » ، بناحية « قلعة جعبر » ، وهو يداريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعهم تشتد .

واتفق أنه فلج ، وخاف من ولده ، فأرسل إلى أخته « الملكة » بحلب يطلب منها أن تقايضه « بقلعة جعبر» و« بالس » إلى شيء تعمل له ، بمقدار « قلعة جعبر » «بالس» . فاتفق الأمر على أن تعويضه « بعزاز » ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسير من حلب من تسلم « قلعة جعبر» ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ووصل « الملك الحافظ » إلى حلب ، في هذا الشهر ، وصعد في المحفة إلى القلعة ، واجتمع بأخته«الملكة» ، وأنزل في الدار المعروفة «بصاحب عين تاب» - تحت القلعة - وسلمت إلى ذوابه «قلعة عزاز» .

فخرج الخوارزمية ، عند ذلك ، وأغاروا على بلد « قلعة جعبر » ، ووصلوا إلى « بالس » ، فأغاروا عليها ، ونهبوها ، ولم يسلم منها إلا من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج .

وفي هذا الشهر ، توفي القاضي « جمال الدين أبو عبد الله ، محمد ابن عبد الرحمن بن علوان » - قاضي حلب - وولي قضاءها بعده

نائبه ابن أخيه « كمال الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضي زين الدين أبي محمد » .

وخرج عسكر حلب إلى جهة « الخوارزمية » ، ومقدمهم « الملك المعظم توارنشاه» بن الملك الناصر ، فنزلوا « بالنقرة » ، ورحلوا منها إلى « منبج » ، وأقاموا بها مدة .

وتجمع « الخوارزمية » في حران ، والحلبيون غير محتفلين بأمرهم ، وعسكر حلب بعضه في نجدة « ملك الروم» في مقابلة « التتار » ، وبعضهم في « قلعة جعبر » ، وبعضهم مفرقون في القلاع ، مثل « شيزر » ، « وحارم » ، وغيرهما .

وسار الخوارزمية ، بجملتهم ، في جمع عظيم ، ومعهم « الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ ، و« الملك الصالح» بن الملك المجاهد - صاحب حمص - وكان جمعهم يزيد على اثني عشر ألفا ، وانضم اليهم الأمير « علي حديثة » في جموعه من العرب ، وكان استوحش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

وعبروا بجملتهم من « جسر الرقة» ، وساروا ، حتى وصلوا نهر « بوجبار» ، وسمع بهم من بمنبج ، من عسكر حلب ، فرحلوا من منبج ، ونزلوا في وادي « بزاعا » ، وأصبح كل واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لايزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبأ كل فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية - ومقدمهم « بركة خان » - ومعه « صاروخان » ، « بردى خان » و«كشلوخان» وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر « ماردين» نجدة معهم وعبروا « نهر الذهب » . والتقى الفريقان ، على البيرة» - قرية بالوادي - في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصدمهم عسكر حلب على قلته ، صدمة ، تزحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

وجاء « علي بن حديثة» ، وخرج من بين البساتين ، وجاء من وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و« الركابدارية » ، واحاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا وهم مطبقون عليهم ، وجعلوا طريقهم على « رصيف الملكة» ، الذي يأخذ من « بزاعا» إلى حلب ، حتى خرجوا فيما بين « ربانا » ، و«تلفيتا» . والخوارزمية في آثارهم يقتلون ، ويأسرون ، ونزلوا من جهة « الاعرابية » ، و« فرفارين» وهم في آثارهم ، فقبضوا على « الملك المعظم » ، بعد أن ثبت في المعركة ، وجرح جراحات مثخنة ، وعلى أخيه « نصرة الدين » ، وقبضوا على عامة الأمراء ، ولم يسلم من العسكر إلا القليل . وقتل في المعركة « الملك الصالح» بن الملك الأفضل ، وابن الملك الزاهر ، وجماعة كثيرة . واستولوا على ثقل العسكر ، ونهب الأحلاف من العرب أكثر ثقل العسكر ، وكانوا أشد ضررا على العسكر ، في انتهاب أموالهم من أعدائهم . ونزل « الخوارزمية » حول « حيلان»

وامتدوا على النهر ، إلى « فافين » ، وقطعوا على جماعة من العسكر أموالا أخذوها منهم ، وابتاعوا بها أنفسهم ، وشربوا تلك الليلة ، وقتلوا جماعة من الأسرى صبرا ، فخاف الباقون ، وقطعوا أموالا على أنفسهم ، وزنوها فمنهم من خلص ، ومنهم من أخذوا منه المال ، وغدروا به ، ولم يطلقوه .

واختبط بلد حلب ، وتقدم إلى مقدمي البلدة بحفظ الاسوار ، والأبواب ، وجفل أهل « الحاضر » ، ومن كان خارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم ، وبقي في البلد الاميران : « شمس الدين لؤلؤ» ، و «عز الدين ابن مجلى » ، في جماعة ، لاتبلغ مائتي فارس يركبون ، ويخرجون إلى ظاهر المدينة ، يتعرفون أخبارهم .

وبثوا سراياهم ، في أعمال حلب يشنون الغارة فيها ، فبلغت خيلهم إلى بلد «عزاز» ، و«تل باشر» و «برج الرصاص» ، و«جبل سمعان» ، و« بلد الحوار» وطرف العمق ، وجاؤوا أهل هذه النواحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومن أجفل منهم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والأمتعة ، والحرم ، والصبيان ، مالايحد ولايوصف ، وارتكبوا من الفاحشة مع المسلمين ، مالم يفعله أحد من الكفار ، إلا ماسمع عن القرامطة .

ثم رحلوا إلى « منبج» ، وقد استعصم أهلها بالسور ، ودربوا المواضع التي لا سور لها ، فهجموها بالسيف ، في يوم الخميس الحادي والعشرين ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، وخربوا دورها ، ونبشوها ، فعثروا فيها على أموال عظيمة ، وسبوا أولادهم ونساءهم ؛ وجاهروا الله تعالى بالمعاصي في حرمهم ، والتجأ لمة من النساء إلى « المسجدالجامع» ، فدخلوا عليهن ، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع ، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة ، وعلى صدرها ولدها الرضيع ، فيأخذه منها ، ويضرب به الأرض ، ويأخذها ، ويمضي .

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى « الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد» ، وقد عزم على الدخول إلى بلد « الفرنج » للغارة ، وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس ، فساق بمن معه من العسكر . ووصل إلى حلب في يوم السبت الثالث والعشرين ، من شهر ربيع الآخر . وخرج السلطان وأهل البلد ، والتقوه إلى « السعدي» ، ونزل « الهزاز » ، ثم أخليت له في ذلك اليوم دار « علم الدين قيصر الظاهري» . بمصلى العيد العتيق — خارج « بابا الرابية» — فأقام بها ، واستقر الأمر معه على أن يستقدم العساكر ، وتجمع ، ووقع التوثق منه ، وله ، بالأيمان والعهود .

وسيرت رسولا إلى الملك « الصالح اسماعيل بن الملك العادل » لتحليفه ، فسرت ، ووصلت إلى دمشق ، وحلفته في جمادى الآخرة من السنة ، وطلبت منه نجدة من عسكره ، زيادة على من كان منهم بحلب ، فسير نجدة أخرى ، وأطلق الأسرى « الداوية » ، الذين كانوا بحلب استكفاء لشرهم .

وحين سمع « الخوارزمية» تجمع العساكر بحلب ، عادوا من أقطاعاتهم ، وتجمعوا « بحران » ، وعزموا على العبور إلى جهة حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم ، وظنوا أنهم يبادرون إلى صلحهم

وكان «علي بن حديثة» ، قد انفصل عن « الخوارزمية » وظاهر ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأمر على سائر العرب ، وزوجته « الملكة الخاتون» بعض جواريها ، وأقطعته أقطاعا ترضيه .

فسار « الخوارزمية » ، من « حران » ، في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في الرحيل ، ووصلوا إلى « الرقة» ، وعبروا « الفرات » ، وبلغ خبرهم إلى حلب ، فبرز« الملك المنصور» خيمته ، وضربها شرقي حلب ، على أرض « النيرب» و«جبرين» وخرجت العساكر ، بخيمها حوله . ووصل « الخوارزمية»

ووصل «الخوارزمية » الى « الفايا» ثم إلى « دير حافر» ثم الى « الجبول» ، وامتدوا في أرض « الذقرة» . وأقام « الملك المنصور » ، والعسكر معه ، في الخيم ، ويزك الخوارزمية في « تل عرن» ، ويزك الملك المنصور على « بوشلا» ، والعربان يناوشون « الخوارزمية » .

وعاث الخوارزمية في البلد ، وأحرقوا الابواب التي في القرى ، وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرة ، أقل من المرة الاولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلا ما عجز أهله عن حمله ، وتأخر لقاء العسكر الخوارزمية ، لأنهم لم يتكملوا العدة ،

ورحل الخوارزمية ، فنزلوا بقرب « الصافية » ، ومضوا إلى « سرمين » ، ونهبوها ، ودخلوا « دار الدعوة» ، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظنا منهم أنهم لايجسرون على قربانها ، خوفا من « الاسماعيلية » ، فدخلوها قهرا ، ونهبوا جميع ماكان فيها ، ورحلوا الى « معرة النعمان» ، ونزل العسكر مع « الملك المنصور» على « تل السلطان» ثم رحلوا الى « الحيار ».

ورحل « الخوارزمية » إلى « كفرطاب » ، وجفل البلد بين أيديهم ، وأحرقوا « كفرطاب » ، وساروا إلى «شيزر» ، وتحيز أهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجموا الربض ، واحتمت المدينة التي تحت القلعة يوما ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ماأمكنهم نهبه .

وأرسل عليهم أهل القلعة الجروح ، والحجارة ، فقتلوا منهم جماعة وافرة ، وبلغهم استعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم ، للقائهم : فطلبوا ناحية «حماة » ، وجاوزوها إلى جهة القبلة .

فسارت العساكر الحلبية ، لقصدهم ، فقصدوا ناحية « سلمية» ، ثم توجهوا إلى ناحية « الرصافة» ، وبلغ خبرهم عسكر حلب ، فركبوا ، وطلبوا مقاطعتهم ، ووقع جمع من العرب بهم ، بقرب « الرصافة » ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقوة السير ، وقلة الزاد والعلف ، فألقوا أثقالهم كلها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلقا ممن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر وكفر طاب وساروا ، طالبي « الرقة » مجدين في السير ، واشتغل العرب ، ومن كان معهم من الجند ، بنهب ما ألقوه ، ووصل « الخوارزمية إلى الفرات ، مقابل « الرقة » - غربي البليل وشماليه - بكرة الاثنين خامس شعبان .

وأما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنهم وصلوا إلى « صفين » ،

وساقوا سوقا قويا ، ليسبقوا الخوارزمية إلى الماء ، ويحولوا بينهم وبين العبور إلى « الرقة ، فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في « بستان البليل » ، وأخذوا منهـا الأبواب ، وجعلوها ستائر عليهم ، وحفروا خندقا عليهم ، فقاتلوهم إلى بعد العشاء ، وأخذوا من الأغنام ، التي لهـم ، شـيئا كثيرا ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابهم ، ولازاد لأنفسهم ، فعـادوا في الليل الى منزلتهم « بصفين » ، ونام جماعة من الرجـالة في « البليل » ، فوقع عليهم « الخوارزمية » فقتلوهـم ؛ وعبـر الخـوارزمية إلى « الرقة» ، وقد هلكت دوابهم إلا القليل ، وأكثرهم رجالة ؛ وسروا إلى « حران » ، وأحضروا لهم دواب ركبوها ، وتوجهوا إلى « حران » .

وأراد « الملك المنصور » العبور مـن جسر « قلعـة جعبـر » ، فلم يمكنه لقلة العلوفة ، فسار بـالعساكر إلى « البيرة » ، وعبـر مـن عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتـى نزل مـابين « سروج » و « الرها» .

ووصل الخوارزمية ليكبسوا اليزك ، فعلموا بهـم ، وتـاهوا في الليل ، وركب العسـكر ، فعـادوا والعسـكر في آثارهم ، الى « سروج» ، ولم ينالوا زبدة ، ووصلوا إلى « حران ، وجمعوا جمعـا كثيرا ، حتى أخذوا عوام « حران» ، وألزموهم بـالخروج معهـم ، ليكثروا بهم السواد ، ووصلوا إلى قرب « الرها » إلى جبل يقال له « جلهمان» واجتمعوا عليه ، ورتبوا عسكرهم ، وكثـروا سـوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من القصب ، على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، مـن عسـكر « الروم » ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعـد حـط الخيم للرحيل ، فلم يتـوقفوا وسـاروا ، إلى أن وصـلوا إلى « الخـوارزمية » ، يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، والتقوا ، وكسر « الخوارزمية » ، واستبيح عسكرهم ،

وهربوا ، والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال الليل بينهم وبينهم ، فعاد العسكر ، ووصل الخوارزمية إلى « حران » ، وأخذوا نساءهم ، وهربوا ، ورتبوا في قلعة « حران » واليا من جهة « بركة خان » ، وساروا ، ووصل « الملك المنصور » والعساكر إليها ، فوكل بالقلعة من يحصرها ، وساروا خلف الخوارزمية إلى « الخابور» ، والخوارزمية منهزمون ، وألقوا أثقالهم ، وبعض أولادهم ، ونزلوا في طريقهم على « الفرات »، فجاءهم السيل في الليل ، فأغرق منهم جمعا كثيرا ، ودخلوا الى بلد « عانة » واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة .

وزينت مدينة حلب أياما لهذه البشرى. وضربت البشائر ، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم ، إلى حلب . واعتصمت القلعة « بحران » أياما ، ثم سلمت إلى الحلبيين ، وأخرج من كان بها من الأمراء ، من أمراء حلب وأقارب السلطان ،

وبادر « بدر الدين لؤلؤ» إلى « نصيبين» ، وإلى «دارا» فاستولى عليهما ، واستخلص من « دارا» عم السلطان الملك « المعظم تورانشاه» ، واستدعاه إلى الموصل ، وقدم له مراكب ، وثيابا ، وتحفا ، كثيرة ، وسيره إلى العسكر ، واستولى العسكر الحلبي ، على « حران » ، « وسروج» ، و«الرها» ، و«رأس عين» ، و«جملتين» و «الموزر » و« الرقة» ، وأعمال ذلك ، واستولى « الملك المنصور» على بلد « الخابور» و« قرقيسيا » .

واستولى نواب « صاحب الروم » على «السويداء» ، بعد استيلاء عسكر حلب عليها ، لكونها من أعمال « آمد» . ووصل نجدة ملك الروم ، بعد الكسرة ، فسيرت اليهم الخلع ، والنفقات ، وساروا إلى « آمد» ، والتقوا بعساكر الروم ، وحاصروها إلى أن اتفقوا مع صاحبها ولد « الملك الصالح» على أن أبقوا بيده « حصن كيفا »وأعماله ، وسلم اليهم « آمد» . وأقام « الخوارزمية » ببلاد الخليفة ، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وخرجوا إلى ناحية «الموصل» ، واتفقوا مع صاحبها ، إلى أن أظهر إليهم المسألة ، وسلم اليهم « نصيبين » ، واتفقوا مع الملك « المظفر شهاب الدين غازي» بن الملك العادل - صاحب ميافارقين - وسير إلى حلب ، وأعلمهم بذلك ، وطلب موافقته ، واليمين له ، على أنه إن قصده « سلطان الروم» دافعوا عنه ، وكان قد استشعر من جهته ، فلم يوافقه الحلبيون على ذلك ، ووصل اليه « الخوارزمية » واتفقوا على قصد « آمد» ، فبرزت العساكر من حلب ، ومقدمها الملك « المعظم تورانشاه» ، وخرجت إلى « حران » في صفر ، من سنة تسع وثلاثين ، وساروا بأجمعهم إلى آمد ، ودفعوا الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها الى « ميافارقين» ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخوارزمية بحاضرها ، خارج البلد .

ووصلت العساكر وأقامت قريبا من « ميافارقين» ، وجرت لهم معهم وقعات ، إلى أن تهادنوا ، على أن يقطع ملك « الروم» الخوارزمية ، ما كان أقطاعا لهم في بلاده ، وأنهم يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن الملكة « الخاتون» بحلب ، تعطي أخاها الملك المظفر ، ماتختاره ، من غير اشتراط عليها ، وعلى أن يكونوا و« شهاب الدين غازي » سلما ، لم هو داخل في هدنتهم - وكان صاحب ماردين قد حالف للملك الناصر - ، ورجع العسكر الحلبي ، فلم ينتظم من الأمر الذي قرروه شيء ، ووصل رسل الملك « المظفر» ، ورسل « الخوارزمية . وعادوا عن غير اتفاق . وأطلق أسرى « الخوارزمية » من حلب .

وخرج الملك المظفر والخوارزمية ، ووصلوا الى بلد « الموصل » . وعاد صاحب « ماردين » الى موافقتهم ، ونزلوا على « الموصل ، ونهبوا رستاقها ، واستاقوا مواسيها ، ثم توجهوا الى ناحية « الخابور » .

واتفق الأمر على أن ورد « الملك المنصور » - صاحب حمص -

إلى حلب . وخـرج السـلطان « الملك الناصر» ، وأكابـر المدينة ، والتقوه إلى « الوضـيحي » . ووصـل إلى ظـاهر حلب ، في « .....» (١٨) ، ونزل بدار « علم الدين قيصر» ، وجمع العساكر ، وتـوجه إلى بلاد « الجزيرة» .

ووصل « الملك المظفر» و « الخوارزمية » – بعد أن عبـر « الملك المنصور» الفرات – إلى « رأس عين» ، واعتصـم أهلهـا ، مـع العسكر الذي كان بها ، وكان معهـم جمـاعة ، مـن الرمـاة ، والجرخية ، من الفرنج ، فأمنوا أهلها ، ودخلوها ، وأخـذوا مـن كان بها من العسكر . ورحـل « الملك المنصـور » والعسـكر مـن « الفرات » الى «حـران » ، فعـاد الملك المظفـر والخـوارزمية إلى « ميارفارقين » ، وأطلقوا من كان بها ، في صحبتهم ، مـن العسـكر الذين أخذوهم مـن « رأس عين» ، ثـم تـوجه « الملك المنصـور » والعسكر إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بهـا مـن عسـكر الروم ، وأقاموا ينتظرون وصول عساكر « الروم» ، مـع الدهليز ، لمنازلة « ميافارقين » .

وتوفي « الملك الحافظ أرسلان شاه» ، ابن الملك العادل ، بقلعـة « عزاز » ، ونقل تـابوته إلى مـدينة حلب . وخـرج السـلطان « الملك الناصر » ، وأعيان البلدة ، وصلوا عليه ، ودفن في « الفردوس ». ، في المكان الذي أنشاته أخته « الملكة الخـاتون» . وتسـلم نواب « الملك الناصر» قلعة « عزاز» ، من نوابه من غير ممانعة ، وذلك كله ، في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

واتفق أن خرج « التتار إلى « أرزن الروم» ، واشـتغل « الروم » بهـم ، وأغاروا إلى بلد « خـرتبرت» ، وخـاف « الملك المنصـور» والعسكر ، من إقامتهم في تلك البلاد ، وأنهم لايأمنون من كبسـة تأتي من جهة « التتار» ، فعادوا إلى « رأس عين » ، فخـرج « الملك المظفر» ، « الخوارزمية » ، إلى « نثيسر ، فخرج « الملك المنصور » إلى « الجرجب» ، وساروا إلى جهتهم . فوصلهم الخبـر أنهـم قـد

نزلوا « الخابور» ، فساروا إلى جهتهم ، ونزلوا « المجدل» ، وكان قد انضاف إلى « الخوارزمية » جمع عظيم ، من « التركمان » ، يقدمهم أمير يقال له « ابن دودي» ، حتى بلغ من أمره أنه قال للملك المظفر : أنا أكسرهم بالجوابنة النين معي » . وكان عدتهم سبعين ألف « جوبان» غير الخيالة من التركمان .

ورحل « الملك المظفر» ، حتى نزل قريبا من « المجد » ، فعلم به « الملك المنصور » ، فأشار الأمير « شمس لؤلؤ الأميني » بمبادرتهم ، والرحيل اليهم في تلك الساعة ، فرحلوا ، ووافوهم ، وقد نزلوا ، في يوم الخميس ، الثالث والعشرين ، من صفر ، من سنة أربعين وستمائة ، فركبوا ، والتقى الصفان ، فما هو إلا أن التقوا ، وولى « الملك المظفر» منهزما ، « والخوارزمية » ، وحالت الخيم بينهم وبينهم ، فسلموا ، وقتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والخركاهات ، وبها الأقمشة والنساء ، فنهبوا جميع مافي العسكر ، وأخذوا النساء وجميع ماكان معهن من الأموال ، والحلي ، والذهب ، ولم يفلت من النساء أحد .

ونزل « الملك المنصور» ، في خيمة « الملك المظفر» ، واستولى على خزانته ، وعلى جميع ماكان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والالآت ، والأغنام ، مالايحصى ، وبلغت الاغنام المنهوبة إلى « الموصل » و«حلب» و«حماة» و«حمص» ، بحيث بيع الرأس من الغنم في العسكر ، بأبخس الاثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزينت أياما سبعة ، وتوجه « الملك المنصور » ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان « الملك الناصر » إلى « قلعة جعبر» . وتوجه إلى « منبج » للقائهم ، واجتمع بهم ، فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة .

وطلع « الخاتون الملكة» قرحة في مراق البطن ، وازداد ورمها ، وحدث لها حمى بسببها ، وسار « الملك المنصور » ليلة الجمعة ثالث

الشهر . وتوجه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية« طرابلس » ، وقوي مرض « الملكة الخاتون» ، إلى أن توفيت الى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز - رحمهما الله -

وكان مولدها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيها « الملك العادل» ، إما في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنه كان عنده ضيف ، فلما أخبر بولادتها ، سماها « ضيفة» لذلك . وأمر السلطان « الملك الناصر» في ملكه ، ونهى باشارة وزيره « جمال الدين الأكرم» والأمير « جمال الدولة اقبال الخاتوني » .

وعلم السلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير « جمال الدولة» نصف الملوحة ، والحصة الجارية ، في ملك بيت المال « بالناعورة» . وأقر على نفسه بالبلوغ ، وملك الوزير الحصة ، التي بأيدي ذواب بيت المال « تقيل » ورحاها ، وجعل يجلس في « دار العدل» ، في كل يوم اثنين وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم ، وخلع على أمرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير « جمال الدولة »«عزاز» وقلعتها وما كان في يد « الملك الحافظ» بن الملك العادل ، وجميع ما كان من الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جمادى الاولى من سنة أربعين وستمائة .

وعاثت « الخوارزمية »و « التركمان» على بلاد « الجزيرة» ، فخرج عسكر حلب ، ومقدمهم الأمير « جمال الدولة» في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في « رأس عين» . فتجمع الخوارزمية ، وانضووا إلى صاحب « ماردين » ، واحتموا بالجبل ،

فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخندقوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات ، وتضرر عسكر حلب ، بالمقام ، لقلة العلوفة ، إلى أن ورد « نائب المملكة بالروم» وهو « الأمير شمس الدين الأصبهاني» إلى « شهاب الدين غازي » - والى

صاحب ماردين — والخوارزمية ، وأصلح بينهم على أن يعطى صاحب « ماردين» «رأس عين» . وأرضى « ملك الروم » الخوارزمية « بخرتبرت » ، وشيء من البلاد ، والملك المظفر غازي « بخلاط» ،

وتوجهت العساكر ، — و« النائب الاصبهاني» ، في جملتها — وخرج السلطان « الملك الناصر» ، وتلقاهم إلى « منبج» ، ودخل « النائب» إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوال .

ودخل السلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوال ،وورد مع«النائب» أموال عظيمة ، لتستخدم بها العساكر للقاء « التتار» ، ويطلب نجدة من البلاد عليهم ، فسير من حلب نجدة ، ومقدمها « الناصح الفارسي» ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمائة ، فالتقاهم السلطان « غياث الدين » ، «بسيواس» أحسن لقاء ، وأعطاهم عطاء سنيا ، وفوض تدبير العسكر إلى « الناصح أبي المعالي الفارسي» ، وفرح أهل « بلاد الروم» وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار « السلطان من «سيواس» إلى «أقشهر»(١٩) ، ووصله الخبر بوصول « التتار »، فسير بعض أمرائه ، وعسكر حلب ، ليكشفوهم . فوصلوا إليهم ، ونشب القتال بينهم ، ووقعت بينهم حملات ، فانهزم «التتار» ، بين أيديهم ، ثم تكاثروا ، وحملوا عليهم ، فانكسر عسكر «الروم» وثبت الحلبيون ، وجرى بينهم كرات ، وخرج عليهم كمينان ، من اليمين واليسار فأحدقوا بهم ، فلم يسلم منهم إلا من حمل ، وخرج من بينهم ، وذلك ، في يوم الخميس ، الثالث عشر من المحرم ، سنة إحدى وأربعين وستمائة .

وانهزم ملك « الروم» في الليل ، ليلة الجمعة ، وأجفل أهل بلاد الروم ، إلى حلب وأعمالها ، وعاث « التركمان» في أطراف الروم ، ونهبوا من خرج إلى الشام . (٢٠)

تراجم من كتاب

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

أحمديل الكردي

أحمديل بن إبراهيم ، صاحب مراغة(١) ، قيل كان اقطاعه في كل سنة أربعمائة ألف دينار ، وجنده خمسة آلاف فارس .

سيره السلطان محمد بن ملكشاه إلى الشام مع سكمان القطبي ، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، في سنة خمس وخمسمائة ، في عسكر لقتال الفرنج ، واجتازوا على بالس ، ومضوا بالعساكر ، وافتتحوا حصونا كثيرة ، وقصدوا حلب ، فغلقت أبواب المدينة في وجوههم .

ومرض سكمان بن التورتكين ، وعاد فمات ببالس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد أحمديل إلى بغداد .

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان أحمديل في مجلس السلطان محمد ، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب ، وسأله أن يوصل قصته الى السلطان فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة ، فوثب عليه الأمير مودود فتركه تحته ، فجاء آخر فضرب مودودا ، وجاء ثالث فتممه .

وهذا ممدود(٢) ليس بابن التورتكين ، لأن ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى ...(١٦٨ ـ و) .

اسماعيل بن بوري بن طغتكين

أبو الفتح ، الملقب شمس الملوك بن تاج الملوك ، صاحب دمشق ، وليها بعد أبيه ، تاج الملوك بوري في سنة ست وعشرين وخمسمائة ، واستعاد بانياس(٣) من أيدي الفرنج بعد أن استولوا عليها ، ونازل حماة وشيزر في سنة سبع وعشرين ، وكان شجاعا ظالما .

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين في تاريخه : سنة سبع وعشرين وخمسمائة : نازل اسماعيل بن تاج الملوك ، الملقب بشمس الملوك حماة وشيزر .

وقرأت بخطه أيضا فيه قال في حوادث سنة تسع وعشرين : وفيها قتل شمس الملوك اسماعيل بن بوري ، قتلته أمه زمرد خاتون ، وأجلست شهاب الدين محمودا .

وقرأت أيضا بخط مرهف بن أسامة بن منقذ مثل ذلك .

أنبأنا أبو البركات الحسن بن محمد زين الامناء قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : اسماعيل بن بوري بن طغتكين ، أبو الفتح المعروف بشمس الملوك ، ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه بوري المعروف بتاج الملوك في العشر الأخير من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وكان شهما مقداما مهيبا ، استرد بانياس من أيدي الكفار في يومين ، وكانت قد سلمها إليهم الاسماعيلية ، وأسعر (٤) بلاد الكفار بالغارات ، ثم مد يده إلى أخذ الاموال ، وعزم على مصادرة المتصرفين والعمال .

ولم يزل أميرا على دمشق حتى كتب إلى قسيم الدولة زنكي بن آق سنقر يستدعيه ليسلم إليه دمشق ، فخافته أمه زمرد فرتبت له من قتله في قلعة دمشق في شهر ربيع الآخر (٧٠ ـ و) من سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ونصبت أخاه محمود بن بوري مكانه(٥) .

اسماعيل بن محمود بن زنكي بن آق سنقر

أبو الفتح الملك الصالح ، نور الدين بن الملك العادل نور الدين بن قسيم الدولة الشهيد بن قسيم الدولة التركي ، ملك حلب بعد موت أبيه في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وهو إذ ذاك صبي لم يبلغ الحلم ، وكان بدمشق مع والده .

فختنه في هذه السنة ، وسر بختانه ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للايتام ، ختن منهم جماعة وزين البلد ، وأظهر سرورا كثيرا ، وتوفي بعد ختانه بأيام في يوم الاربعاء حادي عشر شوال، فحلف أهل دمشق لولده الملك الصالح ، ووصل كتاب على جناح طائر الى حلب الى شاذبخت الخادم والي قلعة حلب بوفاة نور الدين ، فأمر في الحال بضرب الكوسات والدبادب والبوقات ، وكتم موته ، وأحضر المقدمين والاعيان والفقهاء والامراء ، وقال : هذا كتاب الطائر قد وصل يذكر فيه أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ، وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه ، فسروا بذلك ، وحمدوا الله سبحانه عليه ، ثم قال لهم : تحلفون لولده الملك الصالح كما أمر بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم كما كانت لأبيه ، فاستحلف الناس على ذلك على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في ذلك اليوم ، ولم يترك احدا منهم يزول من مكانه ، ثم قام شاذبخت الى مجلس آخر (١٨٨ ــ ط) ولبس الحداد ، وخرج اليهم وقال : يحسن عزاءكم في الملك العادل ، فإن الله سبحانه نقله الى جنات النعيم ، فأظهروا الحزن والكآبة والاسف والبكاء ، واستقر الملك للملك الصالح .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين الى حلب يوم الثلاثاء رابع والعشرين من شوال لاثبات ما في خزائن حلب وختمها بخاتم الملك الصالح رحمه الله .

وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة حلب مع شاذبخت وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الامـراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج الى الشام وطلب أن يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدبير ملكه وترتيبه ، ووقعت الفتنة بين السنة والشيعة بحلب ، ونهب الشيعة دار قطب الدين بن العجمي ، ودار بهاء الدين أبايعلى بن أمين الدولة ، ونزل أجناد القلعة من القلعة ، وأمرهم ابن الداية أن يزحفوا الى دار ابي الفضل بن الخشاب فزحفوا اليها ونهبوها ، فاختفى ابن الخشاب .

واقتضى الحال أن الاتفاق وقع على وصول الملك الصالح من دمشق الى حلب فسار فوصل ظاهر حلب في اليوم الثاني من المحرم سنة سبعين وخمسمائة ومعه سابق الدين عثمان بن الداية . فخرج بدر الدين حسن للقائه ، فقبض على سابق الدين ، وصعد الملك الصالح الى القلعة ، وظهر القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وركب في جمع عظيم الى القلعة ، وصعد إليها والحلبيون من اتباعه تحت القلعة ، فقتل في القلعة (١٨٩ ــ و) وتفرق من كان تحت القلعة منهم وقبض على شمس الدين علي ، وبدر الدين حسن ابني الداية ، وأودعا السجن مع أخيهم سابق الدين .

ووصل الملك الناصر من مصر الى دمشق ، فدخلها سلخ شهر ربيع الاخر وسار الى حمص وفتحها في جمادى الاولى ، فنزل الملك الصالح الى المدينة وقال لاهلها : أنا ولدكم ، وذكرهم بحقوق والده واستعان بهم على دفع الملك الناصر ، فبكى الحلبيون ودعوا له . ووعدوه من أنفسهم بكل ما يؤثره وبلغ سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل ماجرى ، فسير أخاه عز الدين مسعودا الى لقاء الملك الناصر ، فرحل عن حلب في مستهل شهر رجب ، وعاد الى حماه ووصل عز الدين الى حلب وأخذ من كان بها من العسكر ، وخرج الى لقاء الملك الناصر ، وتصاف العسكران عند قرون(٦) حماه في تاسع عشر شهر رمضان ، فكسر عز الدين ، وسار الملك

الناصر عقيب الكسرة ونزل على حلب ، فصولح على أن أخذ المعـرة وكفر طاب ، واخذ بارين(٧) .

وكان سـيف الدين غازي محـاصرا لأخيه عمـاد الدين زنكي ، فصالحه وسار عبر الفرات ، وراسل الملك الصـالح ، وسـعد الدين كمشتكين ، وخرج كمشتكين إليه واستقر اجتماع الملك الصالح به ، فوصل حلب وخرج الملك الصالح الى لقـائه فـالتقاه قـريب القلعـة واعتنقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بـالعود الى القلعـة ، فعـاد . وسار سيف الدين ونزل بعين المباركة(٨) ، وعسـكر حلب يخـرج (١٨٩ ـ ظ) الى خدمته في كل يوم ، وصعد سيف الدين الى قلعـة حلب جريدة ، ثم رحل الى تل السلطان(٩) ومعـه عسـكر كثيف ، وطلب الملك الناصر عسكر مصر ، وسار نحوهم والتقى العسكران في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وخمسـمائة ، فانكسر سيف الدين غازي ، وعاد الى حلب فأخذ منها خزانته وسار الى بلاده ، وسار الملك الناصر فتسلم منبج ، ونزل على قلعـة عزاز ففتحها ، وسـار الى حلب فنزل عليهـا في السـادس عشر مـن ذي القعدة فأقام عليها مدة ، وبذل الحلبيون جهدهم في القتال والمحاماة عن الملك الصالح .

وحكى لي والدي انهم كانوا يقاتلون عسـكر الملك الناصر حتـى يصلوا المخيم ، وانهم قبضوا على جماعة ، فكانوا يشرحون اسافل اقدامهم ليمنعهم ذلك عن المشيء ، فلا يردهم ذلك عن القتال ، فلما لم ينل من حلب ماأراد صالحهم ، وسار عنها فـأخرجوا إليه ابنة نور الدين اخت الملك الصالح ، وهي صغيرة . فقال لها : ما تشـتهين ؟ فقـــــــــالت : أريد أن تعيد الينا عزاز فـــــــــــــوهبها إياها ، وكان التدبير بحلب الى والدته ، والى شـاذبخت الخـادم ، وأمير لالا ، وخالد بن القيسراني .

ثم إن الملك الصالح رحمه الله مرض بالقولنج في تاسع شهر رجب من سنة سبع وسبعين ، فأخبرني قاضي القضاة أبو المحاسن يوسف

ابن رافع بن تميم قال : في ثالث وعشرين من رجب أغلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعي الامراء ، وأخذ واحد ، واحد واستحلفوا لعز الدين مسعود صاحب الموصل .

قال : وفي خامس وعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس . (١٩٠ ـ و) وكان الملك الصالح رحمه الله قد ربي أحسن تربية ، وكان دينا عفيفا ورعا ، كريما محبوبا الى قلوب الرعية لعدله وحسن طريقته ولين جانبه لهم .

قال لي والدي رحمه الله : إن اليوم الذي مات فيه انقلبت المدينة بالبكاء والضجيج ، ولم ير الا باك عليه ، مصاب به .

قال لي : ودفن بقلعة حلب ، ولم يزل قبره بها الى أن ملك الملك الناصر حلب وتسلم قلعتها فحول قبره الى الخانكاه التي أنشأتها والدته تحت القلعة(١٠) .

قال لي : ولما حول ، ظهر من الناس من البكاء والتأسف كيوم مات ، قال : ووجد من قبره عند نبشه شبيه برائحة المسك ، رحمه الله . وحكى لي ذلك أيضا غير والدي .

وكان رحمه الله على صغر سنه كثير الاتباع للسنة ، والنظر في العواقب ، وأخبرني والدي قال : حكى لي العفيف بن سكرة اليهودي الطبيب ، وكان يتولى معالجة الملك الصالح في مرضه الذي مات فيه ، وكان به قولنج ، قال : قلت له يوما : يامولانا والله شفاؤك في قدح من خمر ، وأنا أحمله اليك سرا ، ولاتعلم به والدتك ، ولا اللالا ، ولا شاذبخت ، فقال لي : ياحكيم كنت أظنك عاقلا . نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها » وتقول لي أنت هذا ، وما يؤمنني أن أشربه وأموت والقى الله تعالى ، وهو في جوفي ، والله لو جاءني جبريل وقال لي : شفاؤك فيه لما شربته ، وتوفي وله نحو من ثمانية عشر سنة .

سمعت شيخنا مـوفق الدين يعيش بـن علي بـن يعيش قـال : أخبرني(١٩٠ ـ ظ) الامير حسـام الدين محمـود بـن الختلو ، شحنة حلب ، قال : لما عزل محيي الدين بن الشهر زوري عن قضاء حلب وتوجه الى الموصـل جـاء الي الفقيه عالي الغـزنوي ، وكان يدرس بمدرسة الحدادين(١١) الى داري ، وكانت تحـت القلعـة ، فقال لي : قد تـوجه محيي الدين ابـن الشـهر زوري الى الموصـل ويحتاجون قاضيا ، فتأخذ لي قضاء حلب ، قال : فصعدت الى الملك الصالح وقلت له: هذا عالي الغزنوي فقيه جيد ، والمصـلحة أن يوليه المولى قضاء حلب ، فالتفت الي وقال : بالله وبحياتي هـو سـألك في هذا ؟ فقلت له : أي والله هـو جاء وسألني في ذلك ، فقال : والله مـا وقع في خاطري أن أولي قضاء حلب أحدا غيره ، ولكن حيث سأل هـو الولاية والله لا وليته إياه

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في هذه السنة ـ يعني سنة سبع وسبعين وخمسمائة ـ مات الملك الصـالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي صـاحب حلب ، وبلغني أن وفاته كانت في شهر رجب عن تسع عشرة سنة ، وكانت وفاته بقلعـة حلب .

وقرأت بخط عبد الرزاق بن أحمد الاطرابلسي الشاعر ، أن وفـاة الملك الصالح كانت في العشر الاخر من رجب من سنة سبع وسـبعين وخمسمائة .

آق سنقر بن عبد الله البرسقي

وقيل اسمه سنقر ، وكان مملوك الامير برسق مملوك السلطان ، فترقت به الحال إلى أن ولاه السلطان محمد بن محمد الموصل وولاه شحنكية بغداد ، وتقدمة عسكرها في أيام المسترشد ثم عزل عن شحنكية بغداد في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، فوصل الى الموصل ، واستدعاه الحلبيون الى حلب وقد حصرهم الفرنج وضاق بهم الأمر فوصل إليهم في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، ورحل الفرنج عنها وملك حلب وأحسن إلى اهلها ، وعدل فيهم ، وأزال المكوس والمظالم ، ووقع الي نسخة التوقيع الذي كتبه لأهل حلب بإزالة المكوس والضرائب وتعفية آثار الظلم والجور ، وكان رحمه الله على ما يحكى حسن الاحوال ، كثير الخير ، جميل النية ، كثير الصلاة والتهجد والعبادة والصوم ، وكان لايستعين في وضوءه بأحد ، وقتل رحمه الله شهيدا وهو صائم .

وكان من حديثه في ملك حلب واستيلائه عليها : أن بلك بن بهرام ابن ارتق لما قتل بمنبج ملك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق حلب ، فباع تمرتاش بغدوين ملك الفرنج وكان أسيرا في يد بلك ، فباعه نفسه ، وهادنه وأطلقه ومات شمس الدولة إيلغازي صاحب ماردين فتوجه تمرتاش إليها واشتغل بملك ماردين وبلاد أخيه ، فلما علم بغدوين بذلك غدر بالهدنة واتفق هو ودبيس بن صدقه ، وابراهيم بن الملك رضوان بن تتش على أن نازلوا حلب ، واتفقوا على أن تكون البلاد للمسلمين وأن حلب لابراهيم بن الملك رضوان لأنها كانت لأبيه ، وأن تكون الاموال للفرنج ، وطال حصار حلب واشرفت على الاستيلاء عليها ، وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض ، فحكى لي والدي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما نشطوا من عقال

وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه ، ومازالوا في هذه الشدة إلى أن أعانهم الله بقسيم الدولة آق سنقر البرسقي ، فأخلص النية لله في نصرتهم ، ووصل الى حلب في ذي الحجة من سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وأغاث أهلها ورحل العدو عنها ، وكانت رغبات الملوك فيها إذ ذاك قليلة ، لمجاورة الفرنج لها وخراب بلدها وقلة ريعه ، واحتياج من يكون مستوليا عليها إلى الخزائن والاموال والنفقة في الجند .

فاخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد ، وحديث أحدهما ربما يزيد على الاخر ، قالا : سمعنا – جدك يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله – يقول : لما اشتد الحصار على حلب، وقلت الاقوات بها وضاق الامر بهم ، اتفق رأيهم على أن يسيروا أبي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلى الى حسام الدين تمرتاش الى ماردين وكان هو المستولي على حلب وهي في أيدي نوابه ، وقد تركها ومضى الى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلى ليلا من البلد ، فلما أصبح الصباح صاح الفرنج الى اهل البلد : أين قاضيكم وأين شريفكم ؟ قال : فانقطعت ظهورنا وتشوشت قلوبنا ، وايقنا بأنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان آمن عليهم بالوصول ، فطابت قلوب أهل حلب لذلك .

قال عمي ووالدي : فسمعنا والدنا يقول : سمعت أبي أبا غانم يقول : لما وصلنا إلى ماردين ودخلنا على حسام الدين تمرتاش وذكرنا له ما حل بأهل حلب وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر وعدنا بالنصر وأنه يتوجه وهو يدافعنا من يوم الى يوم وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب عدت وأخذتها فقلنا في أنفسنا ما هذا إلا فرصه ، وقلنا له : لاتفعل ولاتسلم المسلمين الى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له

القاضي أبو غانم : وأيش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم .

قال القاضي أبو الفضل : فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الامر بهم الى اكل القطاط (٢٧٤ - و) والكلاب والميتة فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشق عليه وغضب وقال : انظروا الى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ بهم الامر الى هذه الحالة ، وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفا أن ننفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي الى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا عظيما اذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء ، والثلج كثيرا على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم الا غلامي ياقوت وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولاتنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لايأخذني نوم حتى كان وقت السحر فجاءني ياقوت غلامي بالدابة وقال (٢٧٤ - ظ): الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لاأعرف الطريق ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي

الذين سبقوني في مكان واحد وقد ساروا مـن أول الليل وسرت مـن آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصـبح وركبنا وحثثنا دوابنا وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ، فـوجدنا البرسقي مريضا قد أشفي وهو يسقى أمراق الفـراريج المدقـوقة ، فأعلم بمجيئنا ، فاذن لنا ، فدخلنا عليه ووجدناه مـريضا مـدنفا ، فشكونا اليه وطلبنا منه أن يغث المسلمين ، وذكرنا له ما حل بهم من الحصار والضيق وقلة الاقوات ، وما آل إليه أمرهم ، فقـال : كيف لي بالوصول الى ذلك ، وأنا على ما ترون ؟ فقلنا له : يجعـل المولى في نيته وعزمه إن خلصه الله من هـذا المرض أن ينصر المسـلمين ، فقال : أي والله ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم اني أشهدك على أنني ان عوفيت من مرضي هذا لأنصرنهم ، قال : فمـا اسـتتم ثلاثة أيام حتى فارقته الحمى واغتذى ، ونادى في عسكره الغـزاة ، وبرز خيمته وخرجت عساكره وعملوا أشغالهم ، وتوجه بهـم حتـى اتي حلب فلما قاربها وأشرفت عساكره من المرتب رحـل الفـرنج ، ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة ، وساق الى ان قـارب المدينة وخرج اهلها الى لقائه فقصد نحو الفـرنج وأهـل البلد مـع عسكره ، فانهزم الفرنج من يديه ، وهو يسير وراءهم على مهـل حتـى (٢٧٥ – و) أبعدوا عن البلد ، فأرسل الشاليشية وأمرهم برد العسكر .

قال : فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له : يامولانا ، لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فإنهم منهزمون ، فقال له : ياقاضي كن عاقلا أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري ، لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدو ؟ فقال : لا ، فقال : فمـا يؤمنا أن يكسرونا وندخل البلد ويقووا علينا ولاندفع أنفسنا ، والله تعالى قد دفع شرهم فنرجع إلى البلد ونقويه ، ونرتب أحـواله وبعـد ذلك نستعد لهم ويكون ما يقدره الله تعالى ونرجو إن شـاء الله تعـالى أننا نلقاهم ونكسرهم ، قال : ودخـل البلد ورتـب الأحـوال وجلب الغلال وأمن الناس واستقروا .

قال : وكان ذلك في آذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلونها بالماء ويزرعونها فاستغل الناس في تلك السنة مغلا صالحا . هذا معنى ما حدثني به والدي وعمي .

ونقلت من خط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة الحلبي : دخلت سنة تسع عشرة وخمس مائة ووصلت العساكر من الشرق ، ومقدمها آق سنقر البرسقي ، وكان الافرنج نزلوا على حلب في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وحاصروها وضيقوا على أهلها ومضى القاضي ابن العديم والأشراف ، وقوم من مقدمي أهلها مستصرخين لانه ما كان بقي من أخذها شيء ، فوصل البرسقي (٢٧٥ ـ ظ) معهم في محرم سنة تسع عشرة وخمسمائة ، ونزل بالس وكانت رسله مذ وصل الرحبة متواترة إلى حمص ودمشق يستدعي مالكها ، وسار الأمير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الأول ، فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقي بتل سلطان بعد انفصاله عن حلب ، وانهزم الافرنج عنها ، وكان سرى إليهم من بالس ، ووصل إلى حلب وخرج أهل حلب ونهبوا من خيام الافرنج مقدار المائة خيمة ، من على جبل جوشن ، وما بقي من هلاكهم شيء ، لكن الله أمسك أيدي الترك عنهم بمشيئته .

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في حوادث سنة ثمان عشرة وستمائة(١٢) : وفي ثاني عشري ذي حجتها دخل البرسقي الى حلب ، وفي غده رحل الفرنج عن حلب .
قلت : وبعد أن أقام البرسقي بحلب ورتب أحوالها ترك ولده بها وعاد إلى الموصل فقتله الاسماعيلية بها على ما نذكره .

قال لي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري : كان آق سنقر البرسقي خيرا ، عادلا ، لين الاخلاق حسن العشرة مع أصحابه .

قال لي : أخبرني أبي محمد بن عبد الكريم : حكى بعض الغلمان

الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبر صغيرة ، وبيده(٢٧٦ – و) ابريق نحاس ، وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، قال : فلما رأيته قمت إليه لآخذ الابريق من يده فمنعني ، وقال : يامسكين ارجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الابريق من يده ، فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ، ثم توضأ ووقف يصلي ، قال : وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء يطول ذكرها .

سمعت شيخنا الصاحب قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، يقول : كان البرسقي دينا عادلا قال : ومما يؤثر عنه أنه قال يوما لقاضي الموصل أظنه المرتضى بن الشهرزوري : أريد أن تساوي بين الرفيع والوضيع في مجلس الحكم ، وأن لايختص أولو الهيئات والمراتب بزيادة احترام في مجلس الحكم ، فقال له القاضي : وكيف لي بذلك ؟ فقال : ما لهذا طريق إلا أن ترتاد خصما يخاصمني في قضية ويدعوني الى مجلس الحكم ، وأحضر إليك وتلتزم معي ما تلتزمه مع خصمي ، وسوف أرسل إليك خصما لاتشك في أنه خصم لي ، ويدعي علي بدعوى فادعني حينئذ الى مجلس الحكم لاحضر إليك ، وجاء إلى زوجته الخاتون ابنة السلطان محمود – فيما أظن – وقال لها وكلي وكيلا يطالبني بصداقك فوكلت وكيلا ، ومضى الوكيل إلى مجلس الحكم وقال : لي خصومة مع قسيم الدولة البرسقي وأطلب حضوره إلى مجلس الحكم ، فسير القاضي إليه ودعاه فأجاب وحضر مجلس (٢٧٦ – ظ) الحكم ، فلم يقم له القاضي ، وساوى بينه وبين خصمه في ترك القيام والاحترام ، وأدعى عليه الوكيل وأثبت الوكالة ، واعترف البرسقي بالصداق ، فأمره القاضي بدفعه إليه فأخذه ، وقام إلى خزانته ودفع إليه الصداق ، ثم أنه أمر القاضي أن يتخذ مسمارا على باب داره يختم عليه بشمعة وعلى المسمار منقوش أجب داعي الله ، وأنه من كان له خصم حضر ، وختم

بشمعة على ذلك المسمار ويمضي بالشمعة المختومة الى خصمه كائنا من كان ، ولايجسر أحد على التخلف عن مجلس الحكم .

قرأت بخط الحافظ أبي الطاهر السلفي : وسنقر البرسقي ولي العراق سنين ، وبلغ مبلغا عظيمـا ، ثـم ولي ديار مضر ودار ملكه الموصل ، ثم حلب ، وكثيرا من مدن الشام ، وجاهد الافـرنج ، ثـم قتله بعض الملاحدة ، لعنهم الله ، وكان سيفا عليهم ، قلمـا يرى في جيشه مثله ، رحمه الله ورضي عنه ، رأيته بالعراق في حال ولايتـه ، وبالشام قبل أن وليها .

قال لي عز الدين أبـو الحسـن بـن الاثير : في سـنة عشرين وخمسمائة ، وقتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعـد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية ، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا بـه ، فقتـل بعضـها ونال منه الباقون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج مـن داره عدة أيام ، فقال : لاأترك الجمعة لشيء أبدا وكان يشـهدها في الجامع مع العامة فحضر الجامع على عادته ، فثار به من البـاطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله .

قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ، ووقع إلي منه أوراق نقلت منهـا في حـوادث سـنة عشرين وخمسمائة أن البـرسقي سـلم حلب وتـدبيرها الى ولده الأمير عز الدين مسعود فدخل (٢٧٧ ـ و) حلب ، وأجمـل السـيرة وتحلى بفعل الخير ، وسار أبوه إلى الموصل والجزيرتين ، و ما هـو جار من مملكته حتى دخل شهر ذي القعدة من السنة ، فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع بالموصل ليصلي جماعة ، ويسمع الخاطب كما جرت عادته في أكثر الجمع ، فدخل الجامع وقصد المنبـر فلمـا قرب منه وثب عليه ثمانية نفـر في زي الزهـاد فـاخترطوا خناجـر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى اثخنوه وجرحوا قوما من حفظته وقتل الحفظة منهم قـوما وقبضـوا قـوما وحمـل

البرسقي بآخر رمقه الى بيته ، وهرب كل من في الجامع ، وبطلت صلاة الجمعة ومات الرجل من يومه وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية ، ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفر ناصح ، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب .

قال حمدان فيما نقلته من خطه : وحدثني رجل منها : أنه كان له والدة عجوز لما سمعت بفتكة البرسقي ، وكانت تعرف أن ولدها من جملة من ندب لقتله فرحت واكتحلت ، وجلست مسرورة كأنه عندها يوم عيد ، وبعد أيام وصلها سالما ، فأحزنها ذلك ، وقامت جزت شعرها وسودت وجهها (٢٧٩ ـ ظ).

ألب أرسلان بن رضوان بن تتش

ألب أرسلان ، ويسمى محمد أيضا ، بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق ، أبو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الأخرس ، وألب أرسلان الذي قدمنا ذكره جد أبيه .

ملك حلب حين مات أبوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير أمره خادم أبيض كان من خدم أبيه اسمه لؤلؤ(٢٨٨ ـ ظ) ويعرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلمانه بالمركز من قلعة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان الثغ لايحسن الكلام فدعي بالاخرس لذلك ، وكان مهورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تاج الدولة الاخرس بن رضوان جماعة من الأمراء والاجناد ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب أو المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم : ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم كلكم ها هنا ، فتضرعوا إليه ، وأيقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبحكمك ، وخضعوا له حتى أخرجهم ، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الامراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خوفا على نفسه .

قال : ومضى أكثر الأمراء من حلب من خدمته إلى أن قتل ، عمل عليه لؤلؤ الخادم مملوك أبيه مع جماعة من الأمراء ، فقتلوه .

قال : ثم إن لؤلؤ خاف فأخذ الأموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد الشرق ، فلما وصل الى دير حافر ، قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ، ويأخذ الأموال ، ويمضي ! فصاح بالتركية ـ يعني ـ الأرنب الارنب ، فضربوه بالسهام فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ ـ و) أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان ، هكذا قال لي ، ولؤلؤ ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل أخيه ، وبقي سنة وثمانية أشهر يدير دولته .

وقرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وولي بعده ـ يعني رضوان ـ أبو شجاع محمد بن رضوان ، وكان لايحسن أن يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة ، وقتل خلقا من أصحاب أبيه ، فاغتاله خادم كان خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة ، وكان ملكه بحلب سنة واحدة .

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني أن تاج الدولة الأخرس خرج يوما إلى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، وأخذ معه أربعين جارية ، ووطئهن كلهن في ذلك اليوم .

أنبأنا أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : ألب أرسلان بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان التركي ولي إمرة حلب بعد موت أبيه رضوان في جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي عمره ست عشر سنة ، وتولي تدبير أمره خادم لأبيه اسمه لؤلؤ ، ورفع عن أهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل أخويه ملك شاه وميريجا(١٣) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت

دعوتهم قد ظهرت في حلب أيام أبيه ، ثم كاتب (٢٨٩ - ظ) طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين إلى ذلك ، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم ألب أرسلان في هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين وأهل دمشق في أحسن زي ، وأنزله في قلعة دمشق ، وبالغ في إكرامه ، فأقام بها أياما ، ثم عاد إلى حلب في أول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلما وصل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد إلى دمشق .

وساءت سيرة ألب أرسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعة حلب في الثامن من شهر ربيع الاخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب اخا له طفلا عمره ست سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب إلى أن قتل في آخر سنة عشر وخمسمائة(١٤) .

قرأت في مدرج ، وقع إلي بخط العضد مرهف بن أسامة بن منقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها - يعني سنة ثمان وخمسمائة - قتل الاخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل أريب أن رضوان لما ملك حلب قتل أخوين كانا له ، فقوبل في عقبه ، فلما ولي ألب أرسلان قتل أخويه ابني رضوان .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليمن الكندي عنه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك ألب أرسلان ، وصار أتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام أمرهم ، وقبض على أخوته ، وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضوان أخوته ملك شاه وابراهيم صبيين أحسن الناس صورا ، وقتل خادم أبيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فألب عليه خادمه أتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمسمائة ، فيهـا : قتـل تـاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير أتـابكه لؤلؤ ، وأجلسوا موضعه أخاه الملك سلطان شاه بن رضوان(١٥) .

كذا قال العظيمي : « ملك شاه وابراهيم » ، وهـو وهـم وإنما هـو ميريجا ، وأما ابراهيم فإنه آخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبـق من ذرية رضوان إلا عقبه إلى يومنا هذا .(٢٩٠ ـ و) .

ألب أرسلان بن محمود

ابن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغري بك التركي كان هو وأخوه فرخشاه المعروف بالخفاجي في كفالة زنكي بن آق سنقر ، وكان فرخشاه بالموصل ، وكان أبوهما السلطان محمود قد كتب لزنكي توقيعا بالشام ، فاتفق أن فرخشاه بلغ وأدرك وتأسد ، وكانت زوجة زنكي الاسكمانية تربيه ففهدته ، وحدثته نفسه بالملك ، وكان نصر الدين جغر نائب زنكي بالموصل ، وكان ظالما ، فركب في بعض الايام ، ودخل الى دار الملك للتسليم عليه فقتل في الدهليز ، وأركبوا الملك ، ودخل القلعة فقتل بها ، وكان أخوه ألب أرسلان معتقلا بسنجار فسار زنكي الى الموصل وأخرج ألب أرسلان من معتقله بسنجار وعطف عليه وأوهمه أنه كان في حبس أخيه فرخشاه وعاد زنكي الى حلب واستصحب معه ألب أرسلان ، ثم جاء الى حصار قلعة جعبر وألب أرسلان معه ، وحصرها الى ان قتل بها على ما هو مشروح في ترجمته وافترقت عساكره ، فمضى نور الدين محمود بن زنكي الى حلب ، واستمال جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الملك ألب أرسلان ، وأطمعه في المملكة .

وكاتب زين الدين على كوجك على أن يستدعي (١٠٥ ـ ظ) سيف الدين غازي بن زنكي ، وكان في خدمة السلطان مسعود بأمر والده زنكي ليأمن غائلة السلطان ومكائده ، فاتفق وصول الخبر اليه وهو بشهر زور(١٦) فدخل الموصل ، ثم دخل جمال الدين والعسكر ، وبقي الملك الب أرسلان منفردا فاستوحش ، وطلب صوب الجزيرة ، فسيروا في طلبه من داهنه وأظهر له الطاعة والعبودية عن غازي ، وأنه اذا فارقه زالت عنه سمة الأتابكية ، فلا تشمت به أعداءه ، وأنه سيأخذ البلاد باسمك ، فأجابهم ودخل الموصل في أبهة جميلة واستقبال ونثار ، ودخل الدار فخنقوه ،

- ٧٤٠٤ -

واتفق غازي مـع نواب أبيه : زين الدين وجمـال الدين والدبيسي ، وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

حسان بن كمشتكين التركي

صاحب منبج وأعمالها ، كان أميرا مذكورا شجاعا ، له صدقة ومعروف ، وابتنى بمنبج مدرسة وقفها على أصحاب الامام (١٣٠ ـ ظ) أبي حنيفة رضي الله عنه ، ووقف عليها أوقافا حسنة ، وكان قد بلغ بلك بن بهرام بن أرتق عنه كلام أوجب تغيره عليه ، فسير ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق بقطعة من عسكره ، وأمره بالمرور بمنبج والتقدم الى حسان بالمسير معهم الى تل(١٧) باشر ، فاذا خرج قبضوه فتوجه تمرتاش اليه في صفر من سنة ثمان عشر وخمسمائة ، وفعل ما أمره به ، وقبض على حسان ، ودخلوا منبج ، وعصى عليه الحصن فلم يسلم إليه ، وسيره الى (١٨) خرتبرت ، وحبسه في جب ، ودام على حصر منبج ، ووصل بلك بنفسه ، فضربه سهم من الحصن فقتله ، وأخرج حسان من الجب وعاد الى منبج ، ودام في ولايتها الى أن توفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقد ذكرنا قصة حسان مع بلك مستقصاة في ترجمة بلك من هذا الكتاب .

قرأت بخط مرهف بن أسامة بن منقذ في مدرج علق فيه شيئا من التاريخ ، قال : فيها قبض بلك على حسان البعلبكي ، ونزل على قلعة منبج ، وكان فيها عيسى أخو حسان ، وعذب حسان أنواع العذاب ليسلم اليه منبج ، فلم يفعل أخوه عيسى وأنفذ الى جوسلين واطمعه بتسليم منبج اليه ، فجمع جمعا كثيرا ، وجاء فنصر الله بلكا عليه ، فكسره ، وعاد الى حصار منبج فأصابه سهم في ترقوته فمات ، وكان قد جعل سجن حسان في قلعة(١٩) بالو ، فلما قتل بلك نزل ابن عمه داود بن سكمان على بالو فأخذها وأفرج عن حسان ، وقيل ان ذلك كان في ربيع الاول (٢٠)

جناح الدولة حسين

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تتش ألب أرسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تتش ، وكان متوجها إلى أبيه عاد إلى حلب ، فسلمها إليه ، وتسلمها رضوان منه ، ومن وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

انبانا أبو نصر القاضي قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال : كان بدمشق ، يعني رضوان بن تتش عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله ، فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم وكان المستولي على أمرها باقي الدولة (١٩٧ ـ ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

هكذا ذكر الحافظ الدمشقي(٢١) ، وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص أتابك رضوان بن تتش ومدبره ، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة آق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص إلى جناح الدولة حسين ، وجعله أتابك(٢٢) عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر أمر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى إلى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله إلى حمص كبس عسكر رضوان على سرمين ، وأسر أرباب دولته وديوانه ووزيره أبا الفضل ابن الموصول ، ومات صاحب الرحبة زوج آمنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة إليها ليأخذها ، فوجد دقاق قد سبقه إليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل نقرة بني أسد ، وخرج إليه رضوان إلى النقرة ، واصطلحا وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

واقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه ، وسار جناح الدولة حسين الى حمص واقام بها إلى أن نزل يوما لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه ، وكان ذلك بتدبير أبي طاهر الصائغ رئيس الاسماعيلية ، تقربا إلى الملك رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الوحشة ، وكان حسين رجلا شجاعا باسلا ذا رأي سديد وفيه دين وخير .

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ قال : وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص ـ يعني من خلف بن ملاعب وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وهو أتابك عسكر ولده الملك رضوان ، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه ، ووصل إلى حمص فنزل من القلعة إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة ، فلما وصل مصلاه أتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ ـ ظ) الباطنية في زي الصوفية يستميحونه ، فوعدهم ، فهجموا عليه بسكاكينهم ، فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من أصحابه ، وقتلوا وقتل نفر كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم أبرياء ، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين وأربعمائة ، واختبط البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شمس الملوك(٢٣) ، يلتمسون منه إنفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل أن يخرج إليها ويتسلمها من الافرنج من تمتد أطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها ، وتسلمها ، وأحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فأقر عليهم إقطاع أبيهم .

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ ، وفيها ، يعني سنة ست وتسعين وأربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من

تدبير أبي طاهر الصائغ ، وخدمة الملك رضوان ، واستولى بعده قراجا على حمص .

قرأت في مدرج وقع إلي بالقاهرة بخط العضد مرهف بن أسامة ابن مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعات ذكرها على وجه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين - يعني وأربعمائة - فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة .

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه أبي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيمي ، ونقلته من خطه قال : سنة ست وتسعين وأربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر(٢٤) ، أحدهم يعرف من أهل سرمين .

وفيها مات الحكيم العجمي الباطني بحلب (١٩٨ - و) .

حمدان بن عبد الرحيم بن حمدان بن علي

ابن خلف بن هلال بن نعمان بن داود ، أبو الفوارس بن أبي الموفق التميمي الأثاربي ، ثم الحلبي ، من ولد حاجب بن زرارة التميمي . أصله من قرية من قرى حلب يقال لها معرا ثا الأثارب ، وكانت جارية في ملكه ومن أولاده انتقلت الى ملاكها الآن ، ثم انتقل هو وأبوه الى الأثارب فسكناها ، وكان أكثر مقامه بالجزر (٢٥) يتردد في الدولتين الاسلامية والفرنجية ، وولي في الجزر أعمالا الديوان في دولة أتابك زنكي بن آق سنقر .

وحكى لي الصدر بهاء الدين أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الخشاب أنه لما كان الجزر في أيدي الفرنج ولوا حمدان بن عبد الرحيم فيه أعمالا وصادروه بعد ذلك .

وحكى لي حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم أن عم أبيه حمدان بن عبد الرحيم تولى ديوان معرة النعمان في بعض السنين ، ووهبه صاحب الاثارب الفرنجي قرية تعرف بمعربونية من ناحية معرة مصرين ودامت في يده بعد أخذ المسلمين البلاد من أيدي الفرنج ، وسنذكر سبب تمليك القرية إياه في أثناء هذه الترجمة ، ومازالت معربونية في أيدي أهله الى زمننا .

قلت : وسكن حمدان حلب وسير رسولا الى الفرنج ، وسير الى مصر إلى الآمر الفاطمي ، وسير أيضا إلى دمشق رسولا الى طغتكين أتابك ، ودخل بغداد .

وكان هذا حمدان بن عبد الرحيم خليعا ، كثير الانهماك في الشرب في قرى الجزر ونواحيها (٢٧٦ ـ و) والديرة والمنتزهات في جبل سمعان والجبل الأعلى ، وكان قد شذا(٢٦) طرفا من الادب

واطلع على التواريخ وأيام العرب وحصل قطعة صالحة من معرفة النجوم والطب ، وصنف كتابا في أخبار بني تميم وأيامهم جمع فيه فوائد كثيرة وأشعارا حسنة وضمنه ذكر مآثرهم وأخبارهم ووقائعهم وأشعارهم ، وانتسب فيه الى بني تميم ، ووسمه بالمصباح ووضع كتابا في تاريخ حلب من سنة تسعين وأربعمائة ضمنه أخبار الفرنج وأيامهم وخروجهم الى الشام من السنة المذكورة وما بعدها وسماه « المفوف »(٢٧) ، وله شعر حسن لطيف الالفاظ عذب المجاجة ، وربما يقع فيه ألفاظ ملحونة ، وقع الى ديوان شعره بخطه وقد سقط منه شيء ، وكان مولده في حدود الستين والاربعمائة .

وقرأ الأدب على الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة ، وروى عن أبي نصر بن الخيشي وعن أبيه عبد الرحيم ، روى عنه أبو عبد الله محمد بن الحسن الملحي ، وابن أخيه عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم وسعيد ابن أخت نعمان رئيس معرة النعمان .

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي بدمشق ، قال : أخبرنا أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن أحمد الملحي لفظا قال : حمدان بن عبد الرحيم الطبيب الاثاربي (٢٧٦ ـ ظ) وصل الى دمشق رسولا الى أتابك طغتكين ، وكان رجلا وسيما متشبثا بأهداب الأدب في طلب العلم ، كثير الدؤوب ، كريم النفس ، له بجميع من يمر به من الادباء صحبة وأنس ، إجتاز به في بعض السنين الأمير مهند الدولة أبو نصر الخيشي ، فأنزله بداره في الاثارب وأقام عنده أشهرا فأنشدني ما عمله الخيشي وقد وافى هلال شهر رمضان .

اله من قمر رآني معرضا
عنه واعراضي حذار وشاته

طلع الهلال فقمت أعمل حيله
في قبلة تجني جنا وجناته
فمضى وقال تصد عن قمر الهوى
لترى الهلال أرقا إلى درجاته
فأنا وحق هواك أبعد مرتقى
منه وتأثيري كتأثيراته
انا كامل أبدا وذلك ناقص
فاعزم بوصفي جاهدا وصفاته(٢٨)

قرأت في بعض تعليقاتي من الفوائد أن حمدان مضى الى بغداد في سنة أربعين وخمسمائة وعمل بها وأظنني نقلتهما من خطه :

ان بغداد لمن أبصرها ورآ
ها طرفة بين البلاد
فتأملها تراها عجبا نعم
بيض على قوم سواد

لو قال : تجدها ، كان أجود .

سمعت بعض بني عبد الرحيم يقول لي : إن حمدان كان سير من حلب رسولا الى مصر في أيام الآمر بن المستعلي ، وكان من عادة الرسل أنهم يجتمعون بالآمر ويجلسون بين يديه فلم يستحضر(٢٧٧ ـ و) حمدان لأنه نقل اليه انه حشيشي(٢٩) فكتب اليه أبيات يطلب الحضور وتنصل مما قرف به عنده ، فأذن له الآمر فلما مثل بين يديه ارتجل وقال :

سلام ورضوان وروح ورحمة
على الآمر الطهر الذكي المناسب
إمام إذا جاد الحجاب لنابه
أثرنا ثرى أقدامه بالحواجب

أخبرنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سـعيد بـن عبـد الرحيم قال : حدثني والدي عبد الرحيم بن سـعيد قـال : حـدثني والدي عبد الرحيم بن سعيد قال : كان عمي الرئيس أبو الفـوارس حمدان قد قرأ على الشيخ أبي الحسن بن أبي جرادة النحو واللغـة وعلم الهندسة والنجوم وغير ذلك ، واتفق له أن خـرج الى معـراثا الاثارب ، وهي ملكه وكانت في يد الفرنج اذا ذاك فمـرض صـاحب الاثارب سير مذويل ، وهو ابن أخت صاحب أنطـاكية ، فـدخل اليه وعالجه حتى برأ ، فلما أبل من مرضه سير سير مذويل الى حمـدان وقال له :تمن ، فطلب منه قرية ، فأعطاه معربونية ، فسكن فيها مدة ثلاثين سنة وعمرها واتخذها منزلا ، فأرسل اليه الشيخ أبو الحسن ابن أبي جراده يعتبه على مقامه تحت أيدي الفرنج ويلومـه على ذلك فكتب اليه :

وقائل عائب إذ رأى شغفي بقرية
ليس سكناها من الشرف
ماذا دعاك الى هذا فقلت له
صروف دهر وصرف الدهر غير خفي
بخل الوفي وإعراض الرضي وتقـ
ـصير الصفي وظلم المشرف الحنفي
فإن أقمت بها فالمسك موطنه
في جلدة ومقر الدر في الصدف (٢٧٧ - ظ)

قال : فهجرته زوجته بنت المعمم وامتنعت من الخـروج إليه الى القرية ، فكتب الى ابن أخيه المنتجب أبي سالم بن أبي الحسن بـن عبد الرحيم :

ياأبا سالم سلمت على مـ
ـر الليالي وزادك الله قدرا
وأرتني فيك الأماني وفي صنـ
ـويك ما أبرق الغمام ودرا

خذ حديثي واعرفه لا تعدم
حرفا حرفا وسطرا سطرا
أنا شيخ هم وقد أكل الدهـ
ـر شبابي واعتضت باليسير عمرا
ساكن في خرابة بين قوم
دأبهم كلهم حراث الصحرا
لا أراهم ولا يروني إلا
مثل غمر الأجباب بالجفن دمرا
واذا ما جلست فيهم فما أسـ
ـمع منهم إلا كلاما هجرا
قاس زرعي وخاس قطني
وقد أعنب ثوري ومشفني قد تفرا

هذه ألفاظ يستعملها الفلاحون فيما بينهم
ثم أنتم كنتم جواري وسما
ري فبنتم لسوء حظي طرا
والتي كانت القرينة من خمسين
عاما أبدت فراقا وهجرا
تركتني أدور في الدار كالحيـ
ـران وحدي أكابد العيش ضرا
أكنس الدار أضرم النار أجلو
القدر اطهي أدق للقدر بزرا
واقتراحي عليك أيدك اللـ
ـه بفخر منه وزادك فخرا (٢٧٨ ـ و)
أن تقضي حوائجي قبل أقضي
وتداري ماأربى قبل أدرا
وإذا أنت نمت عنها وما أعددت
الخطب قبل يسرك يسرا
هات قل لي فمن لها غيركم عو
نا حلا الدهر في فمي أو أمرا

فاشتروا لي وصيفة أو غلاما
أو فردوا قرينة العمر قسرا
وكأني بكم وأنتم تقولو
ن ترى عمنا يحاول أمرا
بعد عمرين عاد يهوى التصابي
ويرجي لبقله له أن يطرا
ذهب الاطيبان هيهات أن
يشمخ مهرا من كان برذون كسرا

وكانت هذه القرية معربونية حين وهبه إياها صاحب الاثارب في أواخر سنة احدى وعشرين وخمسمائة داثرة موحشة الصوى ، فنزلها وأحضر إليها أهله وعمر بها دارا وأحضر اليها فلاحين وأكرة ، وعمر غامرها وزرعه واستغله .

وسير إلي الصدر أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الخشاب كراريس من شعر حمدان بن عبد الرحيم بخطه فقرأت فيها أبياتا كتبها بعد خروجه من معربونية الى جيرانه بها وهي :

اسكان عرشين القصور عليكم
سلامي ما هبت صبا وقبول
الا هل إلى حث المطايا إليكم
وشم خزامي حربنوش سبيل
وهل غفلات العيش في دير
مرقس تعود وظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم
تلاقى عليها زفرة وعويل (٢٧٨ ـ ظ)
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني
أميل مع الأقدار حيث تميل

-٧٤١٥-

أنشدنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بـن عبـد الرحيم قال : أنشدني والدي أبو الموفق عبد الرحيم بن سعيد قـال : أنشدني عمي حمدان بن عبد الرحيم لنفسه :

دير عمان ودير سابان هجـ
ـن غرامي وزدن أشجاني
إذا تذكرت فيهما زمنا
قضيته في عرام ريعاني
يالهف نفسي مما أكابده
إن لاح برق من دير حشيان
وإن بدت نفحة من الجانب
الغربي فاضت غروب أجفاني
وما سمعت الحمام في فنن
إلا وخلت الحمام فاجاني
ما اعتضت مذ غبت بدلا حاشى
وكلا ما الغدر من شاني
كيف ساوي أرضا نعمت بها
أم كيف أنسى أهلي واخواني(٣٠)
لاجلاق(٣١) رقن لي معالمها
ولا أطبتني أنهار بطنان

ولا ازدهتني في منبج فرص
راقت لغيري من آل حمدان

يعني أبا فراس بن حمدان وكان يتشوق منازله بمنبج في شعره :

لكن زماني بالجزر أذكرني
طيب زماني به فأبكاني
ياحبذا الجزر كم نعمت به
بين جنان ذوات أفنان

بين جنان قطوفها ذاك
والظل واف وطلعها دان(٢٧٩ ـ و)

قلت : وهذان الديران دير عمان ودير سابان هما خربان وفيهما بناء عجيب وصور مشرقة ، وبينهما قرية تعرف بترمانين(٣٢) من قرى جبل سمعان،أحد الديرين من قبلي القرية والاخر من شماليها ، وقد ذكر الخالديان : أبو بكر وأبو عثمان ، وأبو الحسن الشمشاطي في كتابي الديرة دير رمانين فقالوا : ويقال له دير سابان ، وذكروا قصة جرت فيه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجاهلية سنذكرها في ترجمة عمر رضي الله عنه ان شاء الله تعالى ، وقد غير اسم القرية لطول الزمان ودير سابان ودير عمان باللسان السرياني ومعنى دير عمان باللسان السرياني : دير الجماعة ، ودير سابان معناه دير الشيخ ، فعربا فقيل : سابان وعمان .

أخبرني أبو الفوارس بن أبي الموفق بن سعيد الحلبي قال : أخبرني سعيد بن أخت نعمان رئيس المعرة بقلعة حلب قال : قدم الرئيس حمدان بن عبد الرحيم معرة النعمان فجلس هو والرئيس نعمان رئيس المعرة خالي ، وجماعة من أهل المعرة على مجلس لهو وشرب بمعرة النعمان ، وكان عندهم مغنية تدعى ست النظر ، فافترقوا بعد هزيع من الليل وقام حمدان بن عبد الرحيم سكران وفرش له فراش بقبة الامير أبي الفتح بن أبي حصينة(٣٣) بمعرة النعمان ، وكانت قبة عالية ، ونام وقام ليقضي حاجة وهو في سكره ، فسقط من أعلى القبة الى الدار فعلم به الرئيس نعمان وأصحابه فبادروا اليه وحملوه ، وأقسم نعمان على أصحابه أن لايعلموه ، (٢٧٩ ـ ظ) بما جرى ، ووضعوه على فراشه وسكنوه ساعة ، ثم أرسلوا خلف ست النظر المغنية واحضروها فجلست عند رأسه وغنت فهب من رقدته وجلس واستطاب وقته ، فسألوه أن ينظم في ذلك شيئا فعمل :

أيا صاح قد صاح ديك الصباح
وهبت تغنيك ست النظر
بلفظ هو السحر سحر الحلال
ووجه حوى الحسن مثل القمر
وتشدوك قم وتنبه لها
وباكر صبوحك قبل البكر
أفق كم تنام وهات المدام
ورقرق لنا الجام وقيت شر
أما تنظر الفجر خلف الظلام
محثا وأعلامه قد نشر
وقد سامحتك صروف الزمان
وكفت أكف القضاء والقدر
فما العذر في ترك شرب المدام
ونهب الاباريق كرا وفر
فحث الشمول بخفق الطبول
ونفخ الزنامي وقرع الوتر
فما رونق الدهر باق عليك
فخذ ما صفا واجتنب ما كدر

قال سعيد : فبقي حمدان مدة لايعلم بما جرى الى أن خطر لي أن قلت له : ما تقول يامولاي فيمن سقط من هذا المكان الى أسفل ؟ فقال : ما يجمع الله به شملا ، فقلت : أما تذكر ليلة « أيا صاح قد صاح ديك الصباح » ؟ فقال : ما جرى ؟ فقصصت عليه القصة ، فقال : لهذا تؤلمني أعضائي من ذلك اليوم ، ثم ألقى نفسه مريضا فبقي على الفراش مطروحا شهرين(٢٨٠ ـ و) .

أخبرني حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم أن عم أبيه حمدان بن عبد الرحيم توفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وقد جاوز الثمانين .

وبعد ذلك بأيام يسيرة وصـــل الى حلب غلام الســلطان محمــود واسمه ختلغ أبه بتوقيع عز الدين مسعود بحلب ، وصــحبته عمــدة الدين

وبعد ذلك بأيام يسيرة وصل إلى حلب غلام السلطان محمود واسمه ختلغ أبه بتوقيع عز الدين مســعود بحلب ، وصــحبته عمــدة الدين سنقر الطويل صاحب حران المعروف بــدراز ، وســلم التــوقيع الى تومان بتسليم الموضع الى خلطابا ، فلم يقبل واحتــج بعــلامة بينه وبين عز الدين لم يتضمنها التوقيع واعترف بالخط حســب ، وكانت العــلامة بينهمــا صــورة غزال ، لأن عز الدين كان أحســن الناس نقوشا وتصاوير ، وكان من الذكاء على أمر عظيم ، وطال الامر على خطلبا ، وأشــاروا عليه بــالعودة فعــاد ، وكان عز الدين محــاصر الرحبة وفيها قراقش الأمير حسين ، رجل فارسي الأصل ، فاستأمن ونزل ، ونزل الموضع غيره : فمات عز الدين ، فوصل في خمسة أيام فوجد مسعودا قد مات ، وهو مطروح على قطعة بســاط والعســكر مشغولون عن دفنه قد نهب بعضهم بعضا ، فعاد خــطلبا الى حلب في ثلاثة أيام ، وعرف الناس بموته ، فأدخله ابــن بــديع المدينة إلى (١٣٣ ــ و) واستنزلوا تومان من القلعــة عندما صــح عنده وفــاة صاحبه فصانعهم على ألف دينار ، وسلم القلعة ، وملكهــا خــطلبا واســـــــــــــــــــــــــــــــتحافه الحلبيون ،

واستوثقوا منه ، وطلع المركز بتاريخ الخميس لست بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة والقمــر في الجــوزاء على قــران المريخ ، ولما صعد وبقي أياما ظهر أنه من أهــل الشر والظلم ، فتشــوشت قلوب الرعية وحمله قوم من أهل السوء على الطمع فتغير وبــدل مــا حاف عليه ، وصار يختم على تركة مــن يمــوت ، ويرفــــع مــــاله إليه ، ولايكشف هل له وارث أم لا ، وصح هــذا عند الأمير بــدر الدولة ، والرئيس فضائل بن بديع ، وأنه قد عول على قبضــهما ، فتحــالفا عليه ، واتفق معهما أحداث (٣٦) حلب ، فقاموا عليه ليلة الثــلاثاء ثاني شوال ليلا ، والقمر في القوس في ست درج على تسديس زحل ،

خذلغ أبه

ويقال قتلغ أبه ، وهو اسم تركي ، ويعرب فيقال : خطلبا ، وهو من مماليك السلطان محمود بن ملكشاه ، ملك حلب سنة إحدى وعشرين وخمسمائة سلمها إليه بتوقيع الى نائبه مسعود بن أق سنقر البرسقي فأقام بها ستة أشهر ومد يده في ظلم الرعية ، واجتياح أموالهم والطمع فيها ، واتهم أبا طالب عبد الرحمن بن العجمي بأن المجن بركات الفوعي أودعه وديعة ، وسجنه وسجن عمه أبا عبد الله بن العجمي ، وضيق على أبي طالب وعذبه وثقب كعبه ، وكان بدر الدولة بديع رئيس حلب معه ، واتفقوا على أن حصروا خذلغ أبه ، وقبضوا على أصحابه ووصل إليهم الى حلب إبراهيم بن الملك رضوان بن تتش ، وكان بدر الدولة زوج أخت ابراهيم ، فكانا يجبيان دخل حلب بينهما ، وطال الحصار بخذلغ أبه الى نصف ذي الحجة ، واتفق الامر بينهم على أن استدعوا أتابك زنكي ، فوصل وتسلم حلب وأخذ خذلغ أبه وكحله (٣٤) ، وانتقم الله منه لأهل حلب .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن نزار التنوخي المعروف بابن العظيمي الحلبي في كتابه « الموصل على الأصل الموصل » وهو التذكرة من سير الاسلام ، وأخبرنا بذلك أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ـ إجازة ـ (١٣٢ ـ ظ) قال : أجاز لنا أبو عبد الله بن العظيمي ، وقال : سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، ولما شرق عز الدين مسعود البرسقي ولى بحلب والقلعة الامير تومان ، فلما استقامت أموره بالشرق نفذ سرية مع أمراء منهم : ينال ، وسنقر دراز وغيره ، فلما وصلوا الى حلب لم يدخل تومان في الطاعة ، فخالفه رئيس حلب فضائل بن بديع وادخلهم الى حلب وانزلهم قلعة الشريف (٣٥) ، ووقع بين الوالي واهل حلب .

وكان غلمان خطلبا وحجابه وأصحابه في قلة ، وكلهـم يشربـون في البلد لانه عشية عيد الفطر عند أصـدقائهم ومعـارفهم ، فقبضـهم الحلبيون وملأوا بهم الحبوس والمساجد ، ودار ابـن الاقـريطشي ، وقيدوهـم وأصبحوا معتقلين ، وزحف الناس كافة إلى باب القلعـة ، وحصروا القلعة ، فقاتلهم النهار أجمع ، ولما كان الليل نزل أحـرق القصر الذي لم يكن في البلاد مثله ، وأتلف فيه من السقوف والابواب والاخشاب والرخام ، ودار النهـب حتـى تـواقع بعضـه على (١٣٣ ـ ظ) بعض ، وهجم الناس صبيحة تلك الليلة فنهبـوا منه كلما قدروا عليه ، وقتل من الناس جماعة ، ووصـل إلى بـاب حلب الأميران حسان بن كمشتكين البعلبكي وأخوه حسن صاحبا منبـج وبزاعة بتاريخ السبت سابع شوال ، وساماه الخروج معهما فـأبى ذلك على أن يسلم حلب إلى بياض البلد وابن مالك ويتسـكع ، فلمـا أبى طال الحصار .

وصل بعد ذلك جوسلين(٣٨) الى بـاب حلب في مـائتي فـارس ونزل بابلا (٣٨) وتقدم الى باذقوسا(٣٩) ، ونفذ رسوله الى حلب بتاريخ الأحد ثامن شوال ، وطلب خدمة فصانعوه ودفعوه .

وفي آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضـوان ، فـأدخلوه إلى حلب ، فأكرموه ونادوا بشعاره ، وخرج صـاحب أنطـاكية البيمند ونزل صلدع(٤٠) بتاريخ الأربعاء حادي عشر شوال ، والمراسـلة تعمـل ، وركبـوا بـكرة ذلك اليوم ، وضـايقوا حلب ، وركب الملك إبراهيم بن رضوان ، وبدر الدولة ، وذفـر الحلبيون والرئيس ابـن بديع في خلق عظيم وتراسلوا ، فاستوت الهدنة ، ووقعت الأيمـان على المدة المعلومة ، وحمل إليه ما اقترحه يوم الخميس ثـاني عشر شوال ، بعد أن أشرف الناس على الخطر العظيم ، ودخـل رسـول الافرنج قبض مـن حلب ألف دينار ، وقـرر ألفـا أخـرى وعاد إلى أنطاكية ، وصار كلما غاب من الحلبيين رجل قـد قتـل أو صـلب ، وطال الامر على خطلبا ، وحفروا خندقا حول القلعة ، فـكلما خرج منها رجل أو دخل إليها أخـذ إلى نصـف ذي الحجـة وصـل

(١٣٤ ـ و) الامير سنقر دراز والامير حسن قـرا قش وجمـاعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب ، واتفق الامر على أن يسير بـدر الدولةوخطلبا الى باب الموصل الى المولى الاصفهسلار (٤١) الملك عماد الدين قسـيم الدولة زنكي ابـن قسـيم الدولة أق سـنقر إلى الموصـــــــــــــل ، فلمـــــــــــــــن ولى عاد

الى منصبه ، فأقام بحلب الامير حسن قراقش ، والرئيس فضـائل ابن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما ، وطمع بملك البلد وسير سرية إلى حلب مع الامير الحـاجب صـلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة واليا من قبله ، ورتب الامور ، وجرت على يده على السداد .

وقال ابن العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، في جمـادى الآخرة ، وصل قسيم الدولة أبـو سـعيد زنكي إلى حلب ، وملكهـا وصعد القلعة ، وبات بها ، وعاد إلى نقـرة بني أسـد وقبض على خطلبا وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوه ابن بديع فكحلوه بـداره في النصف من رجب(٤٢) .

خلف بن ملاعب

خلف بن ملاعب الاشهبي الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وافامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكو إليه خلف بن ملاعب ، فكتب إلى أخيه تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وإلى قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ ـ ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغي سغان صاحب أنطاكية ، يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تتش ، وحبس ابن ملاعب ، وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الافضل أمير الجيوش جماعة من أهل أفامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب .

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ، ودخل أفامية وملكها ، وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ ، أظنه أبا المرهف نصر بن علي ابن منقذ ، وكان قسيم الدولة آق سنقر حين فتح أفامية جعله بها ، واتصلت غارات ابن ملاعب على شيزر ، وكفر طاب ، والجسر ،

وزحف ابن منقذ إليه ومعه خلق ورجالة ، فظفر بهم ابن ملاعب ، وكان في نفر يسير ، فقتل جماعة وأسر جماعة ، وباعهم أنفسهم ، واستقرت الحال بينهم بعد ذلك .

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ الذي ذيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ، قال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها : كتب ولاة الشام إلى السلطان ملك شاه يشكون ما يلقونه من خلف بن ملاعب (٢٢١ - و) بحمص من قطع الطريق ، وإخافة السبيل ، فأمر السلطان أن يسير بزان فنزل قريبا من حمص فكتمه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، ودخل إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حصر بزان المدينة ، واجتمع عليها كل من في الشام فافتتحت وكل من الأمراء المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا إلى السلطان فأنعم بها على أخيه تاج الدولة ، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد إلى قلعة أصبهان ، فحمل وحبس بها حتى مات السلطان .

وقال : سنة أربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة آق سنقر على أفامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرهف نصر بن سديد الملك ، وذلك في شعبان .

أنبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال : كتب إلينا أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قال : كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم ، واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج أمر السلطان إلى أمراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة صاحب حلب ، وبزان بن ألب صاحب الرها ، ويغي سغان صاحب أنطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سَيف الدولة خلف بن ملاعب (٢٢١ - ظ) وتسييره إليه ، فنزلوا على

حمص وحاصروه ، وأخذوه إلى السلطان فأقام سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فأطلقته خاتون امرأة السلطان ، وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة : قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، وسلم حمص إلى جناح الدولة حسين .

أنبأنا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسيان وتاج الدولة ، ونزلوا على حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد إلى عند السلطان فلما هلك السلطان خلص ابن ملاعب وصعد إلى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل .

وقال : سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة أفامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد إلى حلب في العاشر من رجب(٤٣) .

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، قال : « وعاد منها ، يعني من مصر ، تسلم قلعة أفامية سبعة عشر سنة » ، وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوده من مصر فيها ، وإن كان أراد ولايته الاولى ، فالكلام غير مستقيم لأنه أخبر (٢٢٢ ـ و) أنه تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ، فبقيت خارجة عن يده قبل قتله أربع سنين وثلاثة أشهر ، وكانت أفامية في يد ابن ملاعب مع حمص في أيام أبي المكارم مسلم بن قريش ، فإنني قرأت في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب(٤٤) .

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد الذي نيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من أهل أفامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة ، فسيره معهم ووصل أفامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة ....

قرأت بخط عمر بن محمد العليمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، وأخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة ، وذكر العظيمي أنه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق وكان عالما بالتأريخ ، قال : وقدم إلى أفامية ، يعني خلف بن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، لأن أهل أفامية ، مضوا إلى مصر (٢٢٢ ـ ظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة ودخلها وملكها .

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ، قتلته جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من أهل سرمين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القنج أصله من سرمين ، وأقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من أفرنج لقوهم في الطريق ، فأعلموه أنهم جاءوا بنية الغزو إلى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن إلى الليل ، وأدخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجدونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن أخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائح على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى أولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، وأخذ أكثرهم فيما بين أفامية وشيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصبح ، ووصل إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ مدة ، وأطلقه .

ودخل طنكلي إلى أفامية عقيب هذا الحادث طمعا في الحصن ومعه أخ لهذا ابن القنج من سرمين (٢٢٣ ـ و) كان مأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض أولاد ابن ملاعب الذين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بها ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فأقام إلى آخر السنة ، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة ، وأسر ابن القنج والصايغ ، وعاقب ابن القنج وقتله ، وأطلق بعض أهل أفامية .

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفذكي ، قال : أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه أن قوما من أهل أفامية من الاسماعيلية عملوا على مالكها وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصانا وبغلة وعددا أفرنجية وتراسا وأردية ، وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب ـ وكان رجلا كريما شجاعا ـ جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارسا من الافرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين إلى ليلة الأحد الرابع والشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن أفامية .

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ : سنة تسع وتسعين وأربعمائة (٢٢٣ ـ ظ) فيها قفز أهل أفامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه ، وأنبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وفيها : عمل الباطنية على قلعة أفامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها إلى أن أخذوها(٤٥) .

دبيس بن صدقة

ابن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد بن مرثد بن زنجي بن ريان بن عدني بن عذور وقيل ريان عذور بن عدي بن جلد بن حي بن عمرو بن أبي المظفار مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن سعد بن سواءة بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن ذودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، الأمير أبو الأغر بن الأمير سند الدولة علي الأسدي صاحب الحلة المزيدية ، هكذا ذكر نسبه أبو السعادات محمد بن عبد الرحمن فيما أخبرنا به أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان الأسدي - إجازه عنه - ذكره في شرح المقامات .

وذكر الأبيوردي أنه أبو الأغر دبيس ملك العرب بن سيف الدولة صدقه بن منصور بهاء الدولة بن دبيس نور الدولة بن علي الأمير بن مزيد الأمير بن مرشد الأمير بن الريان بن عدني بن خالد بن مالك بن حي بن عبادة بن مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد معاوية بن كسر ابن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد ابن خزيمة ، قدم حلب ونزل على ظاهرها في نصف شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة وحاصرها مع ابراهيم بن الملك رضوان ومع الملك بغدوين الرويس الفرنجي فطال حصارهم لها ، واجتمع عليها ثلاث رايات لهؤلاء الملوك الثلاث الى أن تداركها الله (٣٠٦ - و) بأق سنقر البرسقي فوصل الى حلب ورحلوا (٤٦) عنها وقدم دبيس مرة ثانية الى حلب حين أسر بنواحي صرخد أسره ابن طغتكين فباعه على زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار(٤٧) وخاف من زنكي فلما وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه واحترمه وأنزله في دار لاجين بحلب وأعطاه مائة ألف دينار وخلع عليه خلعا سنية .

فأما منازلة دبيس حلب فكان سببها أن دبيسا نهب بلد بغداد في سنة أربع عشرة وخمسمائة وسار بنفسه إلى بغداد وضرب خيمته بازاء دار الخليفة المسترشد ، وأظهر ما في نفسه منه وتهدد المسترشد ، وذكر له أنه طيف برأس أبيه صدقه ، فأنفذ المسترشد إليه شيخ الشيوخ اسماعيل برسالة ضمن فيها أن يصلح بينه وبين السلطان محمود فكف عن الأذى ، وسار إلى الحلة في رجب ووصل السلطان محمود إلى بغداد ، فأنفذ دبيس زوجته بنت عميد الدولة بن جهير ومعها أموال عظيمة وهدايا سنية ، وسأل العفو فأجابه السلطان إلى ذلك على قاعدة لم يرض بها ، ولم يجب إليها ، ثم أنه نهب جشير(٤٨)السلطان ، فسار السلطان الى الحلة لمحاربته فأرسل دبيس نساءه وأمواله على البطائح ، وسار إلى إيلغازي بن أرتق والتجأ إليه وأقام إلى سنة خمس عشرة وخمسمائة ووصل السلطان الى الحلة ولم ير بها أحدا ، فعاد وعاد دبيس من مستقره عند إيلغازي إلى الحلة ودخلها وملكها . وسير دبيس إلى المسترشد والسلطان يعتذر إليهما فلم يقبلا عذره ، وسيرا عسكرا عظيما إليه ، ففارق الحلة وقصد الأزيز(٤٩) ، فوصل العسكر الحلة ، وحفظوا الطريق على دبيس فسير الى مقدم العسكر ، برنقش يستعطفه وشرط أن ينفذ أخاه منصورا على سبيل الرهن ويدخل في الطاعة (٣٠٦ ـ ظ) فأجابه ، وعاد بالعسكر في سنة ست عشرة ، وكان دبيس قد تزوج بنت ايلغازي بماردين حين كان بها ، وحملها إلى الحلة فسير المسترشد إلى ايلغازي يأمره بفسخ نكاح ابنته من دبيس ، وذكر أنه كان لها زوج من السلجوقية ، وقد دخل بها فقبض عليه السلطان واعتقله ، وكان الرسول إلى إيلغازي القاضي الهيتي فعرفه أن النكاح فاسد فأجاب بجواب أرضاه ، وأما دبيس فكاتب المسترشد يستميله ، فعلم أن ذلك خديعة وكان السلطان ببغداد فحثه المسترشد على قتال دبيس فسير إليه جيشا فأحرق دار أبيه بالحلة ، وخرج منها إلى النيل فأخذ ما فيها من الميرة ، ودخل الازيز فدخل العسكر الحلة ، فرأوها خالية فقصدوه إلى الأزيز وحصروه . فسير أخاه منصور إلى خدمة السلطان ، وخرج بعسكره ووقف بإزاء العسكر وتحالف العسكران ، وعاد عسكر بغداد ومعهم منصور ، ثم

إن دبيس واقع آق سنقر البرسقي على الفرات وتبعه إلى بغداد ، وسال المسترشد الأمان وأن يكون على الطاعة بشرط القبض على الوزير أبي علي بن صدقة ، فقبض عليه ، وسمع السلطان محمود بالوقعة مع البرسقي فقبض على منصور وولده وحبسهما ببعض القلاع فجز دبيس شعره ولبس السواد ، وآذى الرعية ، ونهب البلاد وأغار على كل ما كان للمسترشد فأمر المسترشد العسكر بالخروج ، وخرج بنفسه وعبأ البرسقي عسكر بغداد ، ووقف المسترشد وراءه وبين يديه الدعاة والمقرؤون وبين يدي دبيس الاماء والمخانيث بالدفوف والملاهي(٣٠٧ – و) فحمل العسكر الدبيسي على عسكر الخليفة

فكشفه مرتين ، فحمل زنكي بن آق سنقر فهزم عسكر دبيس وأسر أميرين من عسكره ، وانهزم دبيس بعسكره وألقوا أنفسهم في الماء ، وكان ما نذكره ، ودخل المسترشد ظافرا يوم عاشوراء ، وطلب دبيس غزيه والمنتفق(٥٠) واتفق معهم ، وتوجه إلى البصرة فدخلها وقتل أميرها ، ثم خاف فخرج عنها وسار على البرية وحمل ما قدر عليه من أمواله ، ووفد على مالك بن سالم بن مالك بقلعة جعبر فاستجار به فأجاره وقبله ، وأغضب المسترشد والسلطان ، ثم إن دبيسا صادق جوسلين وبغدوين الفرنجيين ، وصافاهما بوساطة مالك له معهما ، واتفق مع الفرنج على حصار حلب

وكاتب قوما من أهل حلب وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها إليه فكشف ذلك رئيسهما أبو الفضائل بن بديع ، فأطلع عليه تمرتاش بن إيلغازي صاحب حلب ، فأخذهم وعذبهم كل عذاب أمكنه ، وشنق بعضهم وصادر بعضا وأحرق بعضا ، وطمع دبيس بحلب لغيبة تمرتاش بماردين واشتغاله بمملكتها بعد أن خرج تمرتاش من حلب في الخامس والعشرين من رجب سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخرج بغدوين من السجن وقرر عليه ثمانين ألف دينار وأن يسلم قلعة عزاز إليه وحلفه على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج إثني عشر نفسا أحدهم ابن الجوسلين ، وعجل من المال عشرين ألف دينار ، فلما أن خرج غدر ونكث وعزم على قصد حلب

وحصارها ورحل إلى نهر قويق وأفسد كلما عليه ، وضـايق حلب ، وكان دبيس قد مضى إلى تل باشر إلى الجوسلين ، فبـرزا مـن تـل باشر وقصدا ناحية الوادي وأفسدا ما فيه بما قيمته (٣٠٧ - ظ) مائة ألف دينار .

وأخبرني والدي رحمه الله عن أبيه أن دبيس بـن صـدقة عاهـد الفرنج على أنهم يحاصرون حلب وتكون الأنفس والأمـوال للفـرنج والبلاد لدبيس .

قال لي والدي عن أبيه : ولما طال الحصار بهـم وقلت أزوادهـم وقع فيهم المرض فـكان يمـر المار في الأسـواق فيجـد المرضى على الدكاكين ، فإذا قارب الفرنج والعسكر البلد للقتال ووقـع الصـائح قام المرضى مع شدة مرضهم وقاتلوا أشد قتال وردوا العدو .

قال لي والدي : وبلغني أن عوام حلب كانوا يصـعدون أسـوار المدينة عند حصار دبيس ويضربـون بـطبل صـغير ويصـيحون : يادبيس يانحيس .

وتوجه جد أبي القاضي أبـو غانم والشريف النقيب وابـن الجلي يستغيثون إلى تمرتاش فما أغاثهم ، فهربوا إلى الموصل من ماردين وحضروا عند البرسقي وطلبوا معونتهم فـأجابهم ووصـل إلى حلب ورحلهم عنها ، وقد ذكرنا ذلك في ترجمة البرسقي . ثـم إن دبيسـا مضى إلى سنجر السلطان فسلمه سنجر إلى السلطان محمود في سنة ثلاث وعشرين ، وأوصاه فأخذه صحبته فأخذ دبيس ولده في السـنة المذكورة حين مرض السلطان محمـود وسـار إلى العـراق ، وكان مجاهد الدين قد أقطع الحلة مضافة إلى شحنكية بغداد ، فلما سمع بهروز نائبه بحركة دبيس هـرب عن الحلة فـدخلها دبيس في شـهر رمضان وقصد عسكر المسترشد ، وسار محمود إلى العـراق وقـد عوفي لأجل قتال دبيس ففارق دبيس العـراق وقصـد البصرة ومعـه جمع كثير فـاستولى على البصرة فـأنفذ (٣٠٨ - و) السـلطان محمود إليه عسكرا ففارق البصرة وطلب البرية ووصل بعـد ذلك إلى

الشام خوفا من أن يسلموه إلى المسترشد فوصل إلى أرض سرمين هاربا على نجائب في نفر يسير ، فالتجأ إلى الفرنج فأكرموه وانقلب إلى عزاز ، واجتمع بجوسلين وكان صديقه فأكرمه ودفعه عند هربه إلى قلعة ابن مالك ، وسيرت صاحبة قلعة صلخد بعد فقد زوجها إلى الامير دبيس تطلبه لتتزوجه فسار نحو حلة مرى بن ربيعة ، ثم إنها تـزوجت أمين الدولة صـاحب بصرى ، وسـار دبيس للامـر الذي طلبته ، فوجد الأمر بخلاف ذلك فنزل بحلة أخي مرى ، وكان بدمشق عند تاج الملوك فوصل إليه رسول نائبه بـالحلة يخبـره بـدبيس ، وكانت الحلة نازلة بموضع اسمه قصم ، فسأله تاج الملوك فأعلمه ، فقال : تخرج إليه الساعة وتشغله عن المسـير بحجـة الضـيافة ، فخرج إليه وشغله بالضيافة ، ووصل عسكر دمشق فقبضـوه وكل من مـعه ، فسير زنكي وطلبه ، فسير إليه إلى حلب .

وقرأت بخط الوزير جمال الدين عبد الواحـد بـن مسـعود بـن الحصين وأنبأنا به ــ إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن محمود بـن النجار ــ قال : في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وجـد دبيس بـن صدقة ضالا بحلة حسان بن مكتوم بأعمال صرخـد ، فـأسره ابـن طغتدكين صاحب دمشق وباعه على زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار ، وكان زنكي عدوه فما شـك دبيس أنه ابتـاعه لهلاكه فلمـا حصـل دبيس في قبضـة زنكي أكرمـه (٣٠٨ ــ ظ) وخوله وأطلقه وروسل زنكي من دار الخلافة بتسـليم دبيس فقبض على الرسول وهو سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري كاتـب الانشاء .

وقيل بأن زنكي اشتراه بمائة ألف دينار ، على مـا سـنذكره إن شاء الله تعالى .

اخبرنا أبو اليمن الكندي ــ إجازة ــ عن الاستاذ محمـد بـن علي العظيمي ، ونقلته من خط العظيمي قال : وفي هذه السنة يعني سنة أربع وخمسمائة أظهر العصيان دبيس بن صدقة الاسدي ملك العرب على الخليفة المسترشد بالله ببغداد ، وعلى السلطان محمود ، فسار

إليه محمود وكسره ونهب الحلة ، وهرب دبيس إلى الشام فأجاره شهاب الدين بن مالك بالدوسريه(٥١) وأكرمه وسيره إلى نجم الدين بن أرتق إلى ماردين ، فأكرمه وصارت بينهما زيجة وأعاده إلى الحلة .

وقال : وفي جمادى الأولى - يعني - من سنة خمس عشرة كانت كسرة المسلمين ببلاد الكرج ، وذلك أن داود ملك الكرج كان قد ظهر على الملك طغرل من الدروب فاستنجد بنجم الدين بن أرتق وجموع التركمان وصحبتهم دبيس بن صدقة بن مزيد فانكفت الكرج في الدروب الضيقة وتبعهم خلق من المسلمين فأخذ الكرج عليهم الدروب ورضخوهم بالصخر فانكسروا .

وقال العظيمي : وفي يوم الاربعاء سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني - من سنة ثماني عشرة وخمسمائةعبر الامير دبيس بن صدقة بن مزيد من قلعة منبج ونزل بظاهر منبج وكان له عمل في حلب ومكاتبه فانكشفت على يد فضائل (٣٠٩ - و) بن صاعد بن بديع ، وقتل بعض القوم ، ونفي بعضا وكان بها التمرتاش حسام الدين بن نجم الدين إيلغازي بن أرتق .

قال : وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب كان خلاص البغدوين - يعني ملك الفرنج من شيزر ، وكان استقر عليه ثمانون ألف دينار وقلعة عزاز ، وحلف على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج اثني عشر نفسا أحدهم ابن اجوسلين ، وعجل من المال عشرين ألف دينار فما هو الا أن خرج حتى غدر ونكث ونفذ يعتذر إلى الأمير حسام الدين بن نجم الدين بأن البطريرك لم يوافقه على تسليم عزاز ، وأن خطيئة اليمين تلزمه وترددت الرسل بينهم إلى يوم الاحد ثامن عشر شعبان ، وعادت بنقض الهدنة ، وخرج الملك إلى أرتاح وعزمه على حلب ، فخرج التمرتاش من حلب بتاريخ الخامس والعشرين من رجب نحو ماردين ووعد بجمع العساكر ، ورحل بغدوين من أرتاح إلى نهر قويق وأفسد كلما عليه ، وضايق حلب

واجتمع على باب حلب ثلاثة ألوية : لواء الملك ابراهيم بن رضوان ، ولواء الامير دبيس بن صدقه ، ولواء الملك بغدوين ، وكان الجوسلين ودبيس قد برزا من تل باشر ، وقصدوا ناحية الوادي ، وأفسدوا كلما فيه ما قيمته مائة ألف دينار ، ثم نزلا على باب حلب ، وكان نزولهم على حلب على مضي ساعة وكسر من نهار يوم الاثنين سادس عشر من شعبان ، والطالع من العقرب عشر درج والمريخ في الطالع في درجة واحدة ، وقبل نزولهم بساعتين عند اتساع الفجر انفتح من السماء من نحو المشرق باب من نور (٣٠٩ - ظ) ودام حتى هال الناس ولما كان في اليوم الثاني في ذلك الوقت عاد انفتح ذلك الباب ، ولكن كان أضيق من الأول ، وخرج من شيء كاللسان ، ينعطف ويتطوق ، ونزل الفرنج غربي البلد ، وغربي قويق ومعهم علي بن سالم بن مالك ، وصاحب بالس أخو بدر الدولة فقطعوا الشجر ، وأخربوا المشاهد الظاهرة ، وكان عدد الخيم ثلاثمائة خيمة مائة للمسلمين ، ونبش الفرنج القبور وأخرجوا الموتى باكفانهم ، وعمدوا إلى من كان طريا فشدوا الحبال في أرجلهم وسحبوهم مقابل المسلمين (٥٢) .

أخبرني القاضي عز الدين أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي قال : حدثني والدي قال : أخبرني الشيخ أبو سعد بن النعماني قال : كان المسترشد قد جمع أرباب دولته وسيرهم في الصلح بينه وبين دبيس ، واتفق ان ابن أبي العودي الشاعر دخل على دبيس في ذلك اليوم وكنت حاضرا المجلس فأنشده قصيدة أولها :

« جدك ياتاج الملوك قد علا » حتى بلغ إلى قوله :

دونك صفين فهذي قد أتت
آل زياد والحقوق تقتضى

قال : فتغيرت وجوه الجماعة أصحاب المسترشد ، وتغير وجه دبيس وأمر بصفعه فصفع وأخرج من بين يديه وحبس وأمر

بالجماعة فأنزلوا في الدور ، وأكرموا غاية الاكرام ، وحمل إليهم كلما يحتاجون إليه ، فلما أتى الليل أخرجه من الحبس خلوة وقال له : ويحك أنا قد اجتهدت حتى ينتظم الصلح بيني وبين (٣١٠ ـ و) الخليفة وقد أرسل أرباب دولته لاتمام هذا الامر فجئت أنت وقلت ما قلت لتفسد الحال فأنشده :

هم زرعوا العداوة لا لجرم
فدونك واصطلمهم بالحصاد
ولاترهب قعاقعهم فليست
قعاقعهم سوى لبس السواد
إذا لي تشف في الدنيا غليلا
فتنخره إلى يوم المعاد

فقال : أنشدني بقية القصيدة فأنشده :

فهذه ياذا الفخار دول
ينزعها الله إلى حيث يشا
فانتهز العزيمة قبل فوتها
وناد بالثأر فقد آن الندا
ولاتكن في النائبات هلعا
ولا جبانا ذرعا يخشى الوغى
إما يقال أدرك العز الذي
ما مثله أو خانه صرف الردى
فالداء لو يحسمه صاحبه
إذا بدا أغناء عن شرب الدوا
فهل ترى السلطان إلا رجلا
يدركه الموت ويرديه البلا
لحم وعظم ودم مركب
في صورة كبعض أبناء الورى

تنته العرقة(٥٣) او تؤله
في قرصها البقة شاء أو أبى
لايستطيع مع حمى سلطانه
دفع الأذى عنه إذا حم القضا
فهو وإن عز حمى سلطانه
يخشى المنايا في الصباح والمسا

قال : فأمر له بمائة دينار وصرفه في تلك الليلة إلى بلدة النيل وجرت بين (٣١٠ ـ ظ) دبيس والرسل أرباب دولة المسترشد مقاولات واحتجوا بمراجعة الخليفة في ذلك ومضوا ولم تقض لهم حاجة .

وخرج المسترشد بعد ذلك لقتال دبيس في سنة ست عشرة ، ولم ينتظم بينه وبين دبيس صلح ، وخرج دبيس بأصحابه إلى لقائه ، فنزل على شط النيل تحت مطير أباذ ، وأتاه الخليفة من جانب البرية وأقام المصاف، فكانت الكسرة على أصحاب دبيس ، وما نجا منهم إلا القليل ، وقتل البعض وغرق الباقون في الماء ، ونجا بحشاشة نفسه ، ووصل إلى فوق مطير أباذ إلى قرية يقال لها قرية أم الأمين ، وكانت أم الأمين المذكورة فوق سطح من أسطحة القرية ، فقالت له حين رأته : دبير جئت ؟ فقال لها : ويلك دبير من لم يجيء ، أين المخاض ؟ فقالت : هاهنا فخاض وعبر ووقف يشق خفه حتى نزل منه الماء ، وقد تبعه مماليك المسترشد إلى ذلك الموضع ، فسألوا العجوز فضيعتهم عنه إلى موضع آخر فلم يقدروا عليه ، وانحدر إلى أن لحق بالعرب والتف بهم ، وظهر بالبصرة بعد سنة فدخلها وهرب أمير البصرة ، ودخل دار الامارة وحكم وقال : أتدرون من نصحني والله ما نصحني غير ابن العودي الشاعر فإني لو قبلت منه ذلك اليوم وقتلت الذين سيرهم المسترشد الصلح لبقي المسترشد مدة حتى يحصل رجالا مثل أولئك يعتضد بهم ، ولما رجع دبيس إلى العراق ملك العجوز أم الأمين القرية وهي تعرف (٣١١ ـ و) الآن بها .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الشريف الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال : دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي أبو الأغر من ملوك العرب ، وكان فاضلا مهيبا كريم الأخلاق ، ولعل ما أنجبت عرب البادية بعده بمثله ، وقد ترامت به الأسفار إلى أكناف الأمصار ، وتقلبت به الأحوال إلى ارتكاب الأهوال ، ورد بلاد خراسان ، وجال في أطرافها مدة في ظل السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكانت خاتمة أمره أن فتك به في قصر السلطان ، وختم به شرف بيته .

قلت : هذا قول أبي سعد السمعاني ، ولعله رحمه الله لم يبلغه خبر دبيس واتفاقه مع الفرنج على حصار حلب ، وبذله أموال المسلمين وأنفسهم لأعداء الدين على ما ذكرناه وبيناه ، ولو بلغه هذا الفعل المستهجن القبيح الذي لايصدر عن من خلص إيمانه ، وإن جرى بلفظ الشهادة لسانه ، ولايقع إلا من سخيف الرأي سيء التدبير ، لما قال : ولعل ما أنجبت عرب البادية بعده بمثله ، وقال : وختم به شرف بيته ، هذا مع علم دبيس أن البغدوين ملك الفرنج كان مأسورا في حبس بلك بن أرتق ، وأن تمرتاش أطلقه من الأسر وهادنه على أن لايخرج عليه فغدر بالهدنة مع تمرتاش والمسلمين ، ولم يف له بما استقر معه في اليمين ، ولعل البغدوين لو تسلط على حلب لما وفى لدبيس بما كان قرره معه من ملك المدينة ، ولعمري لقد محا دبيس شرف أبيه صدقه ، ومكارمه المحققة ومآثر آبائه(٥٤) (٣١١ ـ ظ) وأجداده المذكورون ومناقبهم المشهورة المسطورة بهذه الفعلة الدنيئة التي فعلها والقصة الشنعاء التي سطرها المؤرخ ، ونقلها ، ومن قبيح فعله خروجه على الامام المسترشد وجمع العرب لمحاربته ومطاولته مع قيامه بأعباء الخلافة ومساجلته .

ومن قبيح أفعاله وعدم وفائه ما أخبرنا به شيخنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا الامام أبو

سعد عبد الكريم بن محمد المروزي قال : كتبت من « كتاب سر السرور »(٥٥) لأبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنه قال : لما قام المسترشد بأعباء الخلافة واستتب أمره خالفه أبو الحسن علي بن أحمد الملقب بالذخيرة ، أخو المسترشد بالله وانحدر إلى واسط ثم اتصل بدبيس بن صدقة ، ولم تطل الأيام حتى خاس بعهده وأخفر ذمته على ما قيل ، ومكن أخاه من ربقته فعند ذلك كتب إليه :

أأشمت أعدائي وأذهبت قوتي
وهضت(٥٦) جناحا أنبتته يد الفخر
وما أنت عندي بالملوم وإنما
لي الذنب هذا سوء حظي من الدهر

فأين فعله هذا من فعل الأمير أبي العز مالك بن سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر معه وقد وفد عليه دبيس هذا منهزما من المسترشد إلى قلعة جعبر ، فأجاره منه ، فكاتبه المسترشد في معناه ليسلمه إليه فمنعه منه ولم يخفر ذمته .

وسمعت الأمير شرف الدولة بدران بن حسين بن مالك (٣١٢ - و) يقول : سمعت أبي يقول نقل إلى دبيس وهو عند أبي بقلعة جعبر أن أبي يريد أن يسلمه إلى المسترشد وانه قد كاتبه في معناه لتسليمه إليه ، قال فجلسا يوما ، فبكى دبيس ، فقال له أبي : أيها الأخ ما يبكيك ؟ فقال : بلغني كذا وكذا ، قال : فأمر غلامه فأحضر له خريطة فيها كتب المسترشد إليه وأحضر إليه نسخ الكتب التي كتبها في جوابه ، وهو يقول : أنا والله لا أسلمه أبدا ، فطاب قلب دبيس عند ذلك وأطمأن .

وقد ذكر الفقيه معدان بن كثير البالسي فعل مالك بن سالم في قصيدة مدحه بها قرأتها بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله ابن أبي جرادة . أخبرنا بها شيخنا أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي إجازة عن أبي الحسن المذكور قال : أنشدني الفقيه الأديب

- ٧٤٣٩ -

أبو المجد معدان بن كثير في الأمير أبي العز مالك بن سالم بن مــالك يذكر وفود الأمير ملك العرب دبيس بن صدقة بن مزيد عليه أولها :

سلخت بالغيل آجال
الليوث الغيل تغتال

قال فيها :

ودبيس حين مال به
دهره والدهر ميال
واشمأز الناس قاطبة
منه أجواد وبخال
غير قيل أروع ندس(٥٦)
لم يرعه القيل والقال
بل تفداه وقال له :
ادن ولينعم لك البال
ثم لما أن تكنفه
واسع الارجاء محلال
أهل بالعز فاء له
منه اكرام واجلال
وحباه بالصفا أخ
حافظ للود وصال
فلأدنى ما تكنفه
رغبة في وده المال
وإذا نفس الفتى بذلت
سهلت خيل وآبال
فترى عوف وأخوتها
بالذي أوليت جهال
ولقد نبئت أنهم
شكروا والقوم قفال

وتألى(٥٨) من بني أسد
أسد غلب وأشبال
إنه ما أن يزال لهم
أبدا بالشكر إهلال
ولنعم الفاعلون هم
ما علمناهم لما قالوا

وأخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك قال : حكى لي والدي قال : لما قدم دبيس على والدي إلى قلعة جعبر منهزما من المسترشد أجازه وأقام عنده فكاتبه المسترشد في تسييره إليه فمنعه منه . قال : وقدم مع دبيس أربعمائة ألف دينار عينا ومثلها جواهر ، ومثلها عروض وأنفق في حاشية والدي حتى بيع الدينار بثلاثين قرطيسا(٥٩) . قال : فقال له والدي : ياأيها الملك أرخصت علينا الذهب .

قلت : وقد كان دبيس مع ما ذكر من أفعاله المستقبحة على غاية من الجود ، وله خلال محمودة مستملحة فمن ذلك ما أخبرني (٣١٣ ـ و) به بدران بن حسين بن مالك قال : لما قبض على دبيس بنواحي دمشق وقيد وسير إلى أتابك زنكي إلى حلب ، وكان اشتراه بمائة ألف دينار جاءه بعض الشعراء وامتدحه في طريقه وهو مقبوض عليه مكبل ، ولم يكن معه شيء فكتب له في رقعة هذين البيتين ودفعهما إليه وهما :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
فكيف يفعل من بالقرض يحتال
خذ هاك خطي إلى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب آمال

قال : فلما قدم حلب على أتابك زنكي أكرمه واحترمه وأنزله دار لاجين بحلب وأعطاه مائة ألف دينار وخلع عليه خلعا سنية فخرج

دبيس ذات يوم إلى ميدان الحصا يسير فعرض له ذلك الشاعر وقال له : يا أمير لي عليك دين ، فقال : والله ما أعرف لأحد علي دينا فقال : بلى وشاهده منك وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه قال : أي والله دين وأي دين ، وأمره أن يأتي إليه اذا نزل فجاءه فأعطاه ألف دينار والخلعة التي خلعها عليه أتابك زنكي وكانت جبة أطلس وعمامة شرب .

أخبرني أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : أسر دبيس بناحية الشام فافتداه أتابك الشهيد بمال جزيل ، ولما حصل دبيس عند السلطان مسعود كتب السلطان يستدعي أتابك الشهيد ليفتك به ، واطلع دبيس على شيء من ذلك فكتب كتابا إلى أتابك يحذره فيه من المجيء إليه فامتنع من ذلك فعلم به السلطان مسعود فكان ذلك سبب قتل دبيس . (٣١٣ ـ ظ) .

قال لي أبو علي النيلي : وأخبرني بعض أحفاد أتابك الشهيد قال : كان جدي يقول : فديناه بالمال وفدانا بالروح .

أخبرنا الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعيد السمعاني قال : ذكر صديقنا أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة في « كتاب سر السرور » قال : حدثني من صحب ملك العرب أبا الأغر دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي أن هجيراه كان إنشاد هذين البيتين :

إن الليالي للأنام مناهل
تطوى وتبسط بينها الاعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار

انبأنا أبو محمد عبد الرحمن وأبو العباس أحمد ابنا عبد الله بن علوان الأسديان قالا : أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن

محمد الفنجديهي : في كتابه قال : سـمعت بعض الفضـلاء ببغـداد يقول : لما سمع الأمير دبيس أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته وأورد فيها بعض صفاته يعني قوله : « خيل لي أن القـرني أويس أو الأمير دبيس »(٦٠) ، نفـذ إليه مـن الخلع السـنية والجوائز الهنية بما عجز عنه الوصف وكل عنه الطرف واقتضاه علو همته وسمو قدرته .

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي الحلبـي قـال : أخبـرنا عبـد الكريم بن أبي بكر المروزي قال : قرأت ببلخ في « كتاب وشـاح دمية القصر » كتب الملك بدران بن صدقة إلى أخوانه منهم الملك دبيس : (٣١٤ - و) .

ألا قل لمنصور وقل لمسيب
وقل لدبيس انني لغريب
هنيئا لكم ماء الفرات وطيبه
إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فأجابه دبيس :

ألا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يخيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأماني بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللارض من كأس الكرام نصيب

ومما وقع إلي من شعر دبيس بن صدقة ما قرأته بخط عمـر بـن الربيب في مجموع :

الا إن أخواني النين عهدتهم
أفاعي رمال لاتقصر في لسعي

ظننت بهم خيرا فلما بلوتهم
حللت بواد منهم غير ذي ذرع

سمعت بعض الأدباء من أهل الموصل يحكي أن أبا الفوارس الحيص بيص خرج من بغداد سرا إلى الحلة، وامتدح دبيس بن صدقة وعاد وقد أجازه بألف دينار فبلغ المسترشد ذلك، وعلم الحيص بيص فخاف على نفسه فابتدى وعمل هذين البيتين:

وما دبيس إلا كجيفة ميت
والضرورات الجأتني إليه
ومن اضطر غير باغ ولا عاد
فلا اثم في الكتاب عليه

فبلغت المسترشد فسير له خمسين دينارا وزاد في معلومه وقبل عذره.

أنبأنا أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان عن أبي سعيد محمد بن عبد الرحمن (٣١٤ - ظ) بن محمد البندهي قال: قتل الأمير دبيس بن صدقه بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها نسبت إليه، وكان دبيس قد عصى على الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله، وسعى في إراقة دمه، وجمع العسكر وحشد وقصد بغداد في عسكر عظيم، وعاث في أطرافها وأفسد في أكنافها فخرج الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة، واجتمعت إليه الأجناد وظهر إليه وحمل عليه فهزم دبيسا وعسكره وتم إلى الحلة المزيدية وذلك في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة، وانهزم دبيس من العراق في خواص أصحابه وغلمانه خوفا من الخليفة وهرب نحو الشام.

قرأت في تاريخ أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي بخطه في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وأنبأنا به عنه المؤيد بن محمد النيسابوري وغيره قال : تواقع على مراغة السلطان مسعود والمسترشد بالله ، فانكسر المسترشد وأسر فوثب عليه قوم بالسكاكين فقتلوه واضطرب العسكر فأوجب التدبير أن قتل دبيس بن صدقة بحضرة السلطان مسعود(٦١) .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعد السمعاني قال : قرأت بخط الامام أبي نصر محمد بن محمد السره مرد الشجاعي على جلد كتاب السنن (٣١٥ - و) لأبي داوود : قتل دبيس بالمراغة(٦٢) يوم الاربعاء الرابع عشر من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

نقلت من تاريخ جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وقع إلي بماردين ، قال في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة : وفيها قتل دبيس بن صدقة في ذي الحجة حدثني فراش كان يقال له حسن التمري ، قال : كان الأمير المذكور قد استشعر الأمر الرديء من قبل السلطان وكان في تلك الليلة تقدم إلى خواصه أن ارحلوا فرحلوا وتركوا الخيام بآلاتها ، وسار(٦٣) مقدر ثلاث فراسخ ، فرده القدر الذي لابد منه ، وقال لصحبه : قد ضجرت من الشتات في أقطار الجهات وما قضاه الله فقد أمضاه ، وعاد ولم يشعر به غير من كان معه ، فلما أصبح ركب مع السلطان على عادته ، ونزل السلطان في النوبتيه والامراء معه على العادة المألوفة وحضر الطعام فأكلوا وأخذ الناس في الانصراف ، وكان السلطان قد دخل إلى خركاه في جانب النوبتية فأراد الأمير دبيس الانصراف ، فتقدم إليه رجل معمم بزي الكتاب وقال له : السلطان يقول لك قد ورد علينا كتب ونشتهي تسمعها ، فجلس واستدعى مني خلالا ، وجعل يتخلل والكاتب بين يديه فرأيت تركيا قد خرج من الخركاه وبيده صمصامة مجردة فمشى حتى صار على رأس الأمير فلم يلتفت

إليه ، وعاد دخل الخركاه وليس في الذوبتية جالس غيره والكاتب بين يديه (٣١٥ ـ ظ) ثم عاد الغلام التركي خرج حتى حاذى الأمير وضربه على رقبته فرأيت رأسه معلقا بجلدة رقبته ، فهربت من ساعتي وكان بباب خوي(٦٤) ، وحمل بعد ذلك ودفن بالمشهد بماردين.قلت : شاهدت المشهد المدفون به دبيس ، وهو من غربي مدينة ماردين وقبليها داخل البلد بنته بنت إيلغازي بن أرتق زوج دبيس ونقلته من خوي فدفنته به .

رضوان بن تتش

رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دقاق أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، نشأ في دمشق في حجر أبيه ، وكانت أمه أم ولد ، فزوجها أبوه من جناح الدولة حسين ، وجعله أبوه أتابكا له ومربيا ، ولما توجه أبوه تتش لمحاربة بركيارق ووصل إلى همذان كتب إلى ولده رضوان في دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه إليه من دمشق ، وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه ، وخرج من دمشق بالعسكر متوجها إلى أبيه ، ووصل إلى عانة وقيل إلى الانبار ، فبلغه مقتل أبيه تتش ، فحط خيمته وسار مجدا عائدا ، فوصل إلى حلب وتسلمها من وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه .

ووصل أخوه دقاق إلى حلب ، ومضى سرا من رضوان إلى دمشق فملكها وقدم يغي سغان ، ويوسف بن آبق بعسكرهما من أنطاكية إلى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ ـ و) معه إلى الرها ليستلمها من ذواب والده ، فأرادا القبض على حسين ليذفردا بتدبير رضوان ، فبلغ حسين ذلك ، فهرب إلى حلب ، وتبعه رضوان إليها واستوحش رضوان منهما ، فرجعا إلى انطاكية .

وسار رضوان إلى دمشق ليأخذها من أخيه دقاق ، ونزل جناح الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكمان بن أرتق ، فلما وصل رضوان إلى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين إيلغازي بن أرتق ولم يستتب لرضوان أمر دمشق ، فرجع إلى حلب ، وتوجه سكمان الى البيت المقدس ، وتسلمه من ذواب أخيه إيلغازي .

ووصل يوسف بن آبق إلى رضوان حلب وسكنها فخاف منه رضوان وحسين فتقدما إلى المجن الفوعي(٦٦) فهجم عليه فقتله .

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيح الدير من ذواب يغي سغان ، وأغارا على بلد أنطاكية ، ثم توجها إلى دمشق وسار يغي سغان إليها منجدا دقاق ، فضعفت نفس رضوان عن دمشق ، فسار إلى البيت المقدس فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ، وأشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية إلى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين إلى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان ابن إيلغازي صاحب سميساط ، فوصل إلى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سغان إلى أنطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب إلى حمص ، ومعه زوجته أم رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ ـ ظ) إلى أنطاكية ، ووصل يغي سغان إلى الملك رضوان إلى حلب إلى خدمة رضوان ، وتزوج رضوان بابنته خاتون جيجك ، ونزل الفرنج على أنطاكية ، وشنوا الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان إلى حلب مستنجدا على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون إلى حارم ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها ، وعاد سكمان بن أرتق مفارقا رضوان ، وصار مع دقاق .

واستولى الفرنج على أنطاكية ، وضعف أمر رضوان ، واستمال الباطنية وظهر مذهبهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في أمرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من أملاك بيت المال عدة مواضع

الحلبيين ، وقصد بذلك استمالتهم ، وأن يتعلقوا بحلب بسبب أملاكهم فيها حتى أنه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من أهلها وكتب بها كتاب واحد ، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمنها ، وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال ، ولاتسمح نفسه باخراجه ، حتى أن أمراءه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبه ، وذلك هو الذي أضعف أمره ، وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية ، وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (٩٠ - و) للحلبيين حتى بلغني أنه مر يوما راكبا ليخرج من باب العراق ، فلما وصل إلى المرمى ، وهو داخل السور بالقرب من باب العراق ، سمع امرأة تنادي أخرى يازليخا تعالي أبصري الملك ، فأمسك فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير أحدا ، فقال : أين هي زليخا ، قولوا لها تأتي تبصرنا أو نمشي ، وهذا من أبلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : أخبرني أبي قال : وقع بين والدي أبي غانم وبين القاضي أبي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي أقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وآل الأمر إلى مواحشة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : أنا أخرج بنفسي وأقف معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما ، وقال لأحدهما : إلى أين تدعي ؟ فقال : إلى ها هنا ، وقال للآخر : إلى أين تدعي ؟ فقال : إلى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : أريد أن تهب لي نصف ما تدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا إلى ذلك وأصلح بينهما على أن نزل كل واحد عن نصف المدعى به ، وجعل بينهما تخما اتفقا عليه ، ورجع إلى المدينة ، وهذا أيضا من المآثر التي ينبغي أن تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرأت بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني ، قال الشيخ أبو الحسن بن الموصول ، وأملانيه بدار الشريف أمين

الدين أبي طالب أحمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (٩٠ ـ ظ) أسلافه ، قال : وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة وصل إلى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها أحمال أصناف التجارات ، وكان شديدا على الاسماعيلية مسعدا لمن يقصدهم ، مبالغا في بابهم ، أنفق في المجاهدين لهم بسببهم أموالا جليلة ، فقام في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد أصحب من خراسان باطنيا يقال له أحمد بن نصر الرازي ، وكان أخوه قتله رجال هذا الخجندي ، فدخل إلى حلب ، واستدل على أبي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد إلى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه أبي حرب ، وأطمعه في ماله ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه إذ كان معروفا بعداوة الملاحدة ، فطمع رضوان وانتهز الفرصة فيه ، وطار فرحا ، فبعث بغلمان له يتوكلون به .

فبرز إلى أبي حرب عيس الفقيه أحمد بن نصر الرازي

وهجم عليه ، فقال لغلمانه وأصحابه : أليس هذا رفيقنا ؟ فقالوا : هو هو ، فوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من أصحاب أبي الفتح الباطني الحلبي على أبي حرب فقتلوا عن آخرهم ، ثم قال أبو حرب : الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا وجئنا إلى (٩١ ـ و) الأمنة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا إلى رضوان ، فأخبروه بما قال ، فأبلس ، وصار السنة والشيعة إلى هذا الرجل ، وأظهروا إنكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوهم ، وأنهي ذلك إلى الملك رضوان فلم يتجاسر على انكاره ، وأقام الرجل بحلب ، وكاتب ظهير الدين (٦٧) وغيره من ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم يذكرون عليه ماجاء في بابه ، فأنكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل ، فخيروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد

الى بلده ، ومكث الناس يتحدوث بما جرى على الرجل ، ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

أنبأنا زيد بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في حوادث سنة إحدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم ، وحفظ جانبهم ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر أمر أبا الغنائم بن أخي أبي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن معه ، فانسل القوم بعد أن تخطف جانبهم ، وقتل منهم أفرادا (٦٨) .

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل أخوين له كانا من أبيه ، فلما مات رضوان وملك ابنه الب أرسلان قتل أخوين له كانا من أحسن الناس صورة فأنظر (٩١ - ظ) إلى هذه المؤاخذة العجيبة .

أنبأنا المؤيد بن محمد علي الطوسي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي قال : وفيها - يعني سنة تسعين وأربعمائة - عصى المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه ، واختفى ، فقبض عليه الملك رضوان ، وعلى ذويه وبنيه ، واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذبهم بأنواع العذاب ، ثم قتله بعد ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسول مصر إلى الملك رضوان ، يعني من المستعلي ، بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شهرا ، ثم عاد عن ذلك(٦٩) .

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضوان على موضع يقال له كلا ، وكان المسلمون في خلق وكان الافرنج في مائة فارس ، فقتلوا خلقا من الناس ، وأسروا خلقا ، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان(٧٠) .

وقال : سنة ثمان وتسعين وأربعمائة . فيها كسر الفرنج للملك رضوان على عين تسيلو من أرض أرتاح . وكان سبب ذلك حصن أرتاح ، خرجوا إليه ليأخذوه . وجمع الملك رضوان الخلق العظيم ، وخرج لنجدة الحصن ، ومعه من الرجالة الخلق العظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، وأسلموا الرجالة ، فقتل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله ، وانهزم أكثر من به(٧١) .

قلت : وبلغني أنه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ ـ و) من بأرتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج بلد حلب ، فأجفل أهله ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ، واضطربت أحوال بلد حلب من جبل ليلون إلى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون وهرب أهل الجزر وليلون إلى حلب ، فأدركتهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الأولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل أعذى من عمل ليلون وأخذه ، وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه ، وليس في يده من الاعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة .

وضاق الأمر بأهل حلب ، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل وأحمديل الكردي ، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله إلى حلب ، ووصلت العساكر إلى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم ، وأخذ إلى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها ، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ، وضبر(٧٢) انسان من السور(٩٢ ـ ظ) فأمر به فضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه

إلى أخر ، فأمر به فألقي من السور إلى أسفل ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة .

وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون مايقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان . فأطلق العوام ألسنتهم بسببه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له ، ورحل العسكر إلى معرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في آخر صفر من سنة خمس وخمسمائة وأقاموا عليها ، وقدم عليهم أتابك طغتكين ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينهم ، وظهر لأتابك طغتكين منهم الوحشية ، فصار في جملة ممدود(٧٣) ، وثبت له ممدود ، ووفى له ، وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ، وسار أحمديل وبرسق بن برسق ، وعسكر سكمان إلى الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة إلى العاصي ، فنزلا على الجلالي ، ونزل الفرنج أفامية : بغدوين ، وطنكريد ، وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر (٩٣ ـ و) بأهله وعسكره ، واجتمعوا بمودود وأتابك ، وساروا إلى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد فأصبحوا هاربين سائرين يحمي بعضهم بعضا .

ونزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين الف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين أتابك إليه ، فاستدعاه إلى حلب ، فوصل إليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال ، واستقر الأمر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود إلى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتأخرت إلى أن اتفق للمسلمين وقعة

استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقيبها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس ، وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأنكر أتابك ذلك وتقدم بابطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

أنبأنا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق التركي كان بدمشق (٩٣ - ظ) عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ،فلما كان بالأنبار بلغه قتلته ، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم ، وكان المستولي على أمرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت أخيه دقاق ، فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب ، وأقام بها ، وجرت منه أمور غير محمودة في قتال الفرنج ، وظهر منه الميل إلى الباطنية ، واستعان بهم بحلب ، ثم استدعى طغتكين أتابك إلى حلب ولاطفه ، وأراد استصلاحه ، وقرر بينهما أمورا وأقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فأبطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل أخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (٧٤) .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان أخويه ملك شاه وابراهيم صبيين أحسن الناس صورا (٧٥) .

كذا وجدته ، وابراهيم بقي زمانا ، ورأيت ولده بحلب ، وأظنه مبارك والله أعلم .

وقرأت في كتاب تاريخ وقع (٩٤ - و) إلي بماردين جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته بخطه ، وقال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تتش بحلب ، وتولى ولده الأخرس .

وقرأت في بعض ما علقته من الفوائد ، مرض رضوان بحلب مرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفاته ، وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل إنه خلف في خزانته من العين ، والآلات ، والعروض ، والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

قرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وملكها ، يعني حلب بعده - يعني بعد قتل أبيه تتش - في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة أبو المظفر رضوان بن تتش تسع عشرة سنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء آخر يوم من جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وخلف عينا وعروضا تقارب ألف ألف دينار .

زنكي بن آق سنقر

أبو المظفر التركي ، وقيل آق سنقر بن ألترغال من قبيلة ساب يو ، وقيل أن آق سنقر كان مملوكا للسلطان ملك شاه وقد ذكرنا ذلك في ترجمته ، ويعرف زنكي بأتابك بن قسيم الدولة ، لأنه كان عنده ولدان للسلطان محمود بالموصل يربيهما وكان مولده بحلب في أيام ولاية أبيه في سنة ثمانين وأربعمائة ، وربي بها ، وكان في أول أمره مضافا إلى آق سنقر البرسقي ، والبرسقي شحنة بغداد ، وولاه البصرة ، فلما عزل البرسقي عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وكان ختلغ أبه بحلب وأساء السيرة مع أهليها ، فحصروه ، وبالمدينة بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق ، فأجمع رأي ختلغ أبه وسليمان على أن سارا إلى أتابك زنكي ويحكماه فيما يفعل ، فلم يوقع لواحد منهما بحلب ، وتوجه إليها فقدمها ، وكان له أتراب بحلب من الحلبيين ، وقد تربى بينهم ، فكانوا يميلون إليه لذلك فسلموا إلى نائبه حلب في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وتوجه إليها فتسلمها في سنة إثنتي وعشرين وخمسمائة ، في جمادى الآخرة وتوجه بعد ذلك إلى السلطان محمود ، وعاد في سنة ثلاث وعشرين ومعه توقيع مجدد لولاية الجزيرتين والشام وحلب والشط ، وملك حمص وحماه وبعلبك والرقة ودارا وحران ورأس عين ، واشتغل بمحاربة الفرنج ، ففتح من أيديهم معرة النعمان وكفر طاب وبارين والأثارب وزردنا وتل اعذا وبزاعا وسروج والرها ، وكان له أثر عظيم في نصرة الاسلام ، وكف عادية الفرنج ومهد لمن بعده فتح البلاد بعد أن كان الفرنج قد ضايقوا مدينة حلب واستولوا على حصونها ، وأخذوا المناصفة من المسلمين إلى بابها ، فأغاثهم الله بزنكي وبولده من بعده ، وكان زنكي ملكا عظيما وشجاعا جبارا كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع وينقاد

إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله خاف من ذلك ، وتصاغر في نفسه ، فأظهر الله تعالى سره المحمود في ولده محمود .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن الاستاذ أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي - ونقلته من خط العظيمي - قال في حوادث سنة إحدى وعشرين وخمسمائة قال ، بعد ذكر حصار الحلبيين وبدر الدولة بن أرتق وإبراهيم بن الملك رضوان ختلغ آبه غلام السلطان محمود : وطال الأمر على ختلغ آبه وحفروا خندقا حول القلعة ، فكلما خرج منها رجل أو دخل إليها أخذ ، إلى نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز ، والأمير حذش قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وختلغ آبه إلى باب الموصل إلى عماد الدين قسيم الدولة بن قسيم الدولة زنكي بن آق سنقر ، والرئيس ابن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لأحد منهما وطمع بملك البلد وسير سرية إلى حلب مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة واليا من قبله ، ورتب الأمور ، وجرت على يده على السداد ، وهو الذي تولى إنزاله وإليه إطمأن .

وقال العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة : في جمادى الآخرة منها وصل الأمير عماد الدين قسيم الدولة أبو سعيد زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة إلى حلب وملكها ، وصعد القلعة ، وبات بها وعاد إلى نقرة بني أسد ، وقبض على ختلغ آبه ، وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوه ابن بديع ، فكحلوه بداره في النصف من رجب .

وقال العظيمي : وفي جمادى الآخرة - يعني - من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة عاد الأمير عماد الدين قسيم الدولة زنكي من عند السلطان إلى الموصل ومعه طغراء بتجديد الجزيرتين والشام وحلب والشط وما اتصل بذلك بعدما خرج عن يده بالدركاه مائة وعشرون ألف دينار .

قال : وفي مستهل رجب ـ يعني ـ من سنة أربع وعشرين ، وصل عماد الدين زنكي بن آق سنقر إلى أكناف الفرات وفتح قلعة السن ، وسير سرية تقدمت مع الثقل إلى باب حلب ، ونهضت الخيل أغارت على بلد عزاز ، وعاثوا في بلد جوسلين مقابلة له على قديم قبيحه في غيبة الأمير قسيم الدولة ، ثم عبر الأمير قسيم الدولة بتاريخ الأحد ثامن عشرين رجب ، فخيم بظاهر حلب ، وتكررت الرسل في الصلح ، فاصطلحوا مدة سنة ، وكان الأمير قد رعى زرع الرها في طريقه ، وظفر بالتركمان أيضا وكسرهم ·

قال : وفي هذه المدة تزوج أتابك قسيم الدولة بخاتون بنت الملك رضوان ، ودخل بها ليلة الاثنين في عشرين من شعبان .

قال : وفي يوم الاثنين عاشر شوال تسلم أتابك عماد الدين حماه ، وقبض على خير خان صاحب حمص ، وأنهب عسكره وخف إلى حمص ، فنزل ربضها ، وطلب من أولاد خير خان التسليم ، فامتنعوا وشبت الحرب بينهم وشنع على الأمير أطسيس بن ترك فقتلوه ، ورمي برأسه ، ونقبوا القلعة فبطل النقب ونصبت المجانيق فبطلت ، وطال الشرح ، فهجم الشتاء ، فعاد العسكر إلى حلب ثاني ذي الحجة .

وقال فيها ـ يعني ـ سنة خمس وعشرين وخمسمائة في المحرم ، وسار أتابك عماد الدين مشرقا يوم الخميس عشرية ، وكان السلطان محمود شتى ببغداد ، فلما كان في ثالث عشر ربيع الآخر شرق نحو أصبهان وبلغه أن أخاه باين بالعداوة ، فرد أمر العراق إلى عماد الدين قسيم الدولة زنكي مضافا إلى ما كان في يده من الجزيرة والشام ، كذا كله ودبيس مقيم بفم البرية يتواعد بغداد بالخراب ، وبلغ أتابك عماد الدين وفاة السلطان محمود بن تبر ، وهو على القريتين ، فسار نحو الموصل ليلة الخميس سادس عشر شوال ومعه دبيس ، وكان لهذا السلطان عند الأمير ولدان أحدهما الذي كانت أمه عند سنقر البرسقي وماتت اسمه ألب أرسلان أبو

طالب ، والآخر الذي كان عند دبيس فبعث عماد الدين يسوم المسترشد أن يخطب لأبي طالب ولد السلطان ، فاعتذر المسترشد إليه بأنه صبي ، وأن المنقول رسم لولده داوود وهو بأصبهان ، وقد وصلت رسل البلاد كلها تقول : اخطب لداوود فنحن له طائعون وأنا منتظر جواب كتاب سنجر عم القوم ، وكان أتابك عماد الدين قد أخذ خبر عودة ابن الأنباري رسول الخليفة من دمشق ، كان المسترشد نفذه في معنى دبيس إلى تاج الملوك فوجده قد صار إلى عماد الدين ، فعاد وكانت في صحبته قافلة عظيمة فيها أموال ، فبعث عماد الدين إليه سرية للقبض عليه ، فقبضوا عليه ونهبوا القافلة في كياد الخليفة وفك القيود عن دبيس وخلع عليه ، وحمل له من المال والجوهر والخيل والعدد مالا حد عليه ، وخرج من الدار التي كان يشرب فيها وسلمها إليه بآلاتها وكل ما فيها .

قلت : وبعد ذلك وصل داوود بن محمود بن محمد بن ملكشاه إلى زنكي فأخذه وسار به إلى بغداد وأنزله في دار السلطنةببغداد ، وزنكي في الجانب الغربي والخليفة إذ ذاك الراشد بعد قتل المسترشد ، فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم زنكي غيبته ، وسار إلى الموصل وسار داوود إلى مراغة ، وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ، فعاد فهرب الراشد ولحق أتابك زنكي بالموصل ، ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمدا المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السلطان وبقيت الخطبة بالشام والموصل على حالها إلى أن اتفق زنكي والسلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود ، وفارق الراشد إذ ذاك زنكي وسار عن الموصل إلى خراسان ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة .

قرأت بخط القاضي علاء الدين أبي محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب في تاريخ مختصر عمله أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب الفرضي البغدادي المعروف بابن الدهان ، وذكر : أنه نقله من خطه ،

قال في حوادث سنة إحدى وعشرين : واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وخطليا إلى باب الموصل إلى عماد الدين زنكي ، فلما ولي عاد إلى منصبه وأقام بحلب الأمير قراقش والرئيس فضائل بن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لأحد منهما ، وسير سرية إلى حلب صحبة الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب وطلع إلى القلعة ، وأقام فيها واليا من جانبه .

وقال : وفي هذه السنة - يعني - سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة دخل عماد الدين زنكي بن آق سنقر إلى حلب في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة والطالع السنبلة أربع عشرة درجة ، وطالعه الأصلي الميزان ، كذا حكى لي البرهان ، وقبض على خطليا وسلمه إلى ابن بديع فكحله في منتصف رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، قال : وانحاز قاضي القضاة الزينبي إلى الموصل في ولاية الراشد والآن عاد وسمع البينة في خلع الراشد وانضاف إلى الراشد لما أصعد إلى الموصل أبو الفتوح الواعظ الاسفرائيني وجلال الدين بن صدقة الذي كان وزيره ، وقوام الدين ابن صدقة وأكابر بيت صدقه ، وحصل الجماعة عند زنكي بالموصل ، ولما اتفقت الكلمة على المقتفي لأمر الله وعلى السلطان مسعود استشعر الراشد من زنكي ، وطلب منه أن يعبر إلى الجانب الغربي ليمضي إلى همذان ، فمشى بين يديه إلى أن حصل في الشبارة وعبر وتخلف عند زنكي جلال الدولة ابن صدقة وجماعة من بيته ، وسمعت قوام الدين ابن صدقة يحكي أن الراشد لما حصل على شاطيء دجلة بالموصل يريد العبور وزنكي بين يديه ، قال لأبي الرضا بن صدقة : أريد أقتل زنكي ، فقال أبو الرضا لابن عمه قوام الدين قل لزنكي يسرع خطوه بحيث يبعد عن الراشد ففعل ، وعرف زنكي ذلك لأبي الرضا ، فاستوزره ، ومضى الراشد الى أصفهان وصحبته أبو الفتوح الاسفرائيني وأقام عليها الى أن قتل .

وقال :في خامس عشر جمادى الآخرة - يعني - سنة تسع وثلاثين

وخمسمائة ، فتح زنكي الرها ، كان نازلا على آمد فكتب إليه رئيس حران يخبره أن صاحب الرها قد تـوجه إلى الشـام ، فـأغذ زنكي السير حتى نزل على الرها ، وحال بينها وبين صاحبها ، وحاصرها أشد الحصار ، وفتحها بالسيف فغنم المسلمون منها .

قرأت في تاريخ أبي المحاسن بن سلامة بـن الحـراني لحـران ، دفعه إلي الخطيب سيف الدين أبو محمد عبد الغني ابن شيخنا فخر الدين أبي عبد الله محمد بن الخضر بن تيمية ، وذكر لي أنه نقله من خط شيخه المؤلف أبي المحاسن ، قال : وفي سـنة تسـع وثـلاثين وخمسمائة نزل - يعني - أتابك زنكي على الرها وفيها الافـرنج ، فحصرها وأخذها بـالسيف يوم السـبت السـادس عشر جمـادى الاخرة ، وكانت أيام الشتاء والبرد قال الشاعر :

إذا كانت جمادى في جمادى
فذاك القر والبرد الشديد

ولما فتحها أوصى بأهلها خيرا ولم يسـب أهلهـا ، وذوى عمـارتها ووجدوا على عضادة المحراب مكتوبا :

أصبحت صفرا من بني الاصفر
اختال بالاعلام والمنبر

دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمنكر

مظهر الرحب على أنني
لولا جمال الدين لم أطهر

فبلغ ذلك رئيس حران جمال الدين فضل الله أبا المعالي فقـال : امحوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين ، فبلغ ذلك أتابك عماد الدين

فقال : صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها ، وأمر عماله إذا جاءت جائحة في الغلة أن يأخذوا الخراج على قدرها فكانوا يأخذون خراجا ، وتارة نصف خراج ، وتارة ثلث خراج ، وتارة ربع خراج ، وتارة لايأخذون شيئا إذا محلت البلاد ، وقسم الماء الذي لحران ثلاث أقسام : قسما للسلطان ، وقسما للشتايات وقسما لآبار حران ولخندق القلعة ، فلما أخذ الرها نزل على البيرة ، وفيها الافرنج وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها وسار حتى دخل الموصل وأخذ فرخانشاه ابن السلطان الذي قتل نصير الدين جقر بن يعقوب فقتله بدم نصير الدين .

سمعت شيخنا قاضي القضاة أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قاضي حلب رحمه الله يقول : كان عندنا بالموصل رجل يقال له موسى يؤذن بالمدرسة ، وكان أشقر شكله شكل الأرمن ، وكان جهوري الصوت ، وكان له قرية ملكه إياها أتابك زنكي ، فسألته عن السبب في تمليكه القرية ، فقال : إني كنت مع أتابك لما نزل محاصرا الرها ، فنزلت إلى السوق واشتريت لباسا من لباس الأرمن ، وتزييت في زيهم ، ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله ، فجئت إلى الجامع فدخلته ورأيت المنارة ، فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة وأؤذن وحتى يجري ما جرى ، فصعدت وناديت : الله أكبر الله أكبر ، وأذنت والكفار على الأسوار ، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الاخرى ، فترك الكفار القتال ونزلوا عن السور فصعد المسلمون وهجموا المدينة ، فأعطاني أتابك هذه القرية لذلك .

قرأت في تاريخ حران جمع أبي المحاسن بن سلامة الحراني ، قال : حدثني أبي رحمه الله قال : كان أتابك زنكي قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولايجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر احد من

الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخـط مـن الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد عليه صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعـد خرابها وأحسن الى اهل مملكته ، وكان لايبقـي على مفسـد وأوصى ولاته بأهل حران وعمـاله ، ونهـى عن الكلف والمغـارم والسـخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده رضي الله عنه ، هذا مـا حكاه أبو المحاسن عنه

وسمعت من جماعة من فلاحي حلب أنه كان عليهم منه جور وظلم في أيام ولايته ، وأكثر ما كان عنه من الظلم ما يلزم الناس بـه مـن جمع الرجالة القتال والحصار ، فإن كان ذلك في جهاد الكفار ، فقـد كان يجب عليهم ذلك ، وله الزامهم بـه ، وبلغني أنه كان لايتجـاسر أحد من رعيته كائنا من كان أن يظلم أحدا من خلق الله ، ويقـول : لايتفق ظالمان يعني نفسه وغيره .

وبلغني أن أتابك زنكي تزوج بنت الملك رضوان وبني بهـا في دير الزبيب خارج مدينة حلب ، وكان إذ ذاك فيه بقايا عمارة ودامت معه بحلب إلى أن دخل يوما إلى الخزانة بحلب ليعتبر ما فيهـا ، فـرأى الكير الذي كان على أبيه آق سنقر حين أسره تاج الدولة تتش وقتله بين يديه صبرا ، وهـو ملوث بالدم فقيل له : هذا كير أبيك الذي قتـل فيه ، فـانزعج لذلك وأخـذه بيده ، ودخـل على زوجتـه بنت الملك رضوان ، وألقى الكير بين يديها وهـو مضمخ بالدم وقال لها : أمـا هذا فعل من لا رحمه الله ، يعني جدها تاج الدولة تتش ، ثم هجرها من ذلك اليوم ، وانقطع عن الدخول إليها ، ودام على ذلك .

فحدثني عمي أبو غانم عن أبيه أبي الفضـل قـال : كان أتـابك زنكي متزوجا بنت الملك رضوان فهجرها ، وبقي مهاجرا لها مدة من الزمان ، فجاءت إلى والدي القاضي أبـي غانم وهـو قـاضي إذ ذاك وقالت له : أيها القاضي قد جـئتك متمسـكة بـذيلك ، ومسـتجيرة بالشريعة المطهرة ، فإني مع أتابك لا أعلم حالي معـه ، أمـطلقة أم

معلقة ، وأنا مهجورة من مدة طويلة ، فوعدها الاجتماع به في ذلك ، ثم صعد إليه إلى القلعة ولقيه ، وهو راكب على الباب فقال له : يامولاي ، قد جاءت إلي خاتون وذكرت لي كذا وكذا قال : فساق أتابك فرسه ولم يجب بشيء ، قال : فأمسك والدي لجام الدابة ومنعه من المسير ، وقال : يامولاي هذه الشريعة المطهرة لاينبغي الخروج عنها ، فقال أتابك : اشهد على أنها طالق ، قال فأرسل والدي حينئذ لجام الدابة من يده ، وقال : أما الساعة فنعم .

وسمعت عمي أبا غانم يقول : قال لي والدي أبو الفضل : لما مات أبي القاضي أبو غانم ولاني أتابك زنكي القضاء بعده على أهل حلب وأعمالها وأحضرني مجلسه ، وقال لي : ياقاضي هذا أمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه فانظر كيف تكون واتق الله ساوي بين الخصمين هكذا ، وجمع بين سبابته ووسطاه ، ولاتمل على أحد الخصمين ولاتحاب أحدا ومن امتنع عليك فها أنا من ورائك .

أخبرني أبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن أبي الكرم بن المعلى السنجاري قال : أخبرني أبي قال : كان بالموصل رجل من أهل الصلاح يذكر المنكر أين رآه ، فإن رأى خمرا أراقه أو رأى جنكا أو عودا كسره ، فيضرب على ذلك ، فيجلس في بيته ويداوي أثر الضرب ، ثم يخرج ، فإن رأى منكرا أنكره على عادته ، فيضرب ضربا عنيفا ، فيجلس في البيت على العادة ويداوي نفسه إلى أن يبرىء ويخرج ويذكر على عادته ، فاتفق يوما من الايام أن خرج فنظر إلى دجلة ، وزنكي بن آق سنقر راكب في شبارة وعنده مغنية تغني ، وهو يشرب ، وعنده جماعة فنزع ذلك الرجل ثيابه وسبح وجاء إلى الشبارة التي فيها زنكي ، فعلق يده فيها ليصعد ، فقال بعض من مع زنكي : أأضرب يده بالسيف ؟ فقال : لا اتركه ، فتعلق وصعد فجلس فأشار ذلك الشخص إلى زنكي أأضربه ؟ فقال : لا اتركه فقعد في الشبارة وأخذ الجنك وقطع أوتاره ، ثم أخذ الاقداح وصبها في دجلة وغسلها بالماء وتركها في الشبارة ، وألقى جميع ما ثم من الخمر في الماء ، وغسل الآنية وتركها ، ثم مد يده إلى إزار

المغنية فأخذه وسترها به ، ثم ألقى بنفسه في دجلة وسبح وعبر ، ولم يكلمه زنكي كلمة ، وأما زنكي فإنه لما سبح ذلك الرجل وعبر قال : نرجع وندخل إلى دورنا فليس لنا في هذا اليوم اشتغال بما كنا فيه وأمر الملاحين فأتوا بالشبارة إلى داره فنزل فيها .

قال : وأما الرجل الذي كان يذكر ، فكان بعد ذلك إذا أنكر المنكر لايتجاسر أحد على ضربه ، وإذا رأوه مقبلا ليذكر عليهم انهزموا منه ، واختفوا من طريقه ، ولما مات غلقت أسواق الموصل لحضور جنازته رحمه الله .

أنبأنا أبو المحاسن سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي المعروف بابن قسيم الدولة ، دخل دمشق في صحبة الأمير ممدود صاحب الموصل ، الذي قتل بدمشق ، وكان من خواصه ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك الموصل وحلب وحماة وحمص ، وحصر دمشق ثم استقرت الحال على أن يخطب له على منبرها ، وملك بعلبك وغيرها من بلاد الشام والجزيرة ، واسترجع عدة من حصون الفرنج وبلادهم ، مثل : المعرة وكفر طاب وتل بارين وفتح مدينة الرها ، وكان له أثر حسن في مقاومة متملك الروم لما حصر شيزر ، وأسر عدة من أبطال العدو ، وكان شهما صارما قتل وهو محاصر لقلعة ابن مالك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بالرقة رحمه الله .

قرأت في تاريخ أبي شجاع محمد بن علي بن الدهان الفرضي في حوادث سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قال : وفي هذه السنة قتل عماد الدين زنكي ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر على قلعة جعبر قتله خادم له اسمه يرنقش ، وانهزم إلى قلعة جعبر .

قلت : وفي تعليقي من الفوائد أن أتابك زنكي سار من الرها ، ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثالث

ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة فأقام عليهـا إلى ليلة الأحـد سادس شهر ربيع الآخر نصـف الليل مـن سـنة إحـدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم ، كان تهدده في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه وقيل إنه شرب ونام فـانتبه فـوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابـه ، فتـوعدهم ونام فأجمعوا على قتله ، فقتله يرنقش المذكور .

سمعت والدي رحمه الله يقول : أن حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين :

يا راقد الليل مسرورا بأوله
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجج النارا

قرأته في تاريخ حران تأليف أبي المحاسن بن سـلامة الحـراني قال : فلما كان في سنة أربعين وخمسـمائة نزل ـ يعني ـ أتـابك زنكي على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثـالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس ربيع الآخـر نصـف الليل من سنة أربعين وخمسمائة ، فقتله يرنقش الخادم كان تهـدده في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه ، وجاء إلى تحت القلعة فنادى أهل القلعة شيلوني ، فقد قتلت السلطان فقالوا له : إذهـب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله ، وافترقت العساكر فأخذ اولاد الداية نور الدين محمود الملك العـادل بـن عمـاد الدين زنكي وطلبوا حلب والشام فملكها ، وسار أجناد بسـيف الدين غازي إلى الموصل وأعمالها فملكها وملك الجزيرة ، وبقي عمـاد الدين أتـابك زنكي وحده فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على باب مشهد الامام علي عليه السلام في جوار الشهداء من الصحابة ، وبنى بنوه عليه قبة فهي باقية إلى الآن .

كذا قال أبو المحاسن ، وإنما دفن أولا داخل مشهد علي رضي الله عنه قريبا من الباب ، ثم نقل من ذلك الموضع إلى جوار الشهداء لما نذكره بعد هذا ، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطا يقصر عن القامة ولم يبن عليه قبة .

أخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم ابن مالك العقيلي قال لما طال حصار أتابك زنكي لعمي علي بن مالك على قلعة جعبر تقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى عمي ، وقال له : من تحت القلعة ياأمير على ايش بقي يخلصك من أتابك ؟ فقال له يا عاقل يخلصني الذي خلصك من جب خرتبرت ، فذبح أتابك في تلك الليلة ، وكان حسان قد قبض عليه بلك بن بهرام بن أرتق ، وطلب منه أن يسلم إليه منبج فلم يفعل ، فسيره إلى خرتبرت وحبسه في جب بها وحاصر منبج ، فجاءه سهم فقتله عليها ، وخلص حسان وعاد الى منبج .

وقال لي بدران : ومن عجيب ما اتفق في حصار القلعة ما حكاه لي جماعة من عندنا وشيوخ أصحابنا أن أتابك زنكي لما قصد القلعة وحاصرها ، وبها عمي علي أقام مضايقا لها حتى عدموا الماء فبذل عمي ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها فأجابه إلى ذلك ، ونزل رسول عمي إليه وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان عماتي على ما حكى لي المشايخ .

قال : فلما نزل الرسول إليه قال لبعض خواصه امض بفرسه وقدمه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني ، قال : فمضى به إلى قدر اليخني وجعل مرقة اليخني بين يديه فشربها الفرس ، فأخبره بذلك ، فقال إن الماء عندهم قليل جدا ، فقال للرسول : ارجع اليهم فلا سبيل إلى الصلح إلا على القلعة ، فقال له الرسول : لاتفعل ، فقال : قد فعلت وأنتم فما بقي عندكم ماء يكفيكم ، قال : فصعد الرسول إلى القلعة وأخبر عمي بذلك فأسقط في يده ، قال : وكان في القلعة بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش فصعدت درجة المئذنة حتى

علت عليها ورفعت رأسها إلى السماء وصاحت صيحة عظيمة مـلأت الوادي ، قال : فأرسل الله سبحانه سحابة ظللت القلعـة وامـطروا حتى رووا ، ولما كان عشية ذلك اليوم باتوا تلك الليلة فقتل أتـابك في جوف الليل ، وفرج الله عنهم .

قلت : وكان القاضي أبو مسلم قاضي الرقة هـو الذي خرج مـن الرقة مع جماعة من أهلهـا ، وتـولى تجهيز زنكي ونقله إلى الرقـة ودفنه ، فكان ثوابه من نور الدين محمـود بـن زنكي أن وقـف عليه وعلى ذريته من بعده قرية عامرة ببلدة حلب .

أخبرني شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبـي مسـلم قاضي الرقة ، بالرقة ، قال : كان أتابك زنكي حين قتـل وحمـل إلى الرقة قد دفن في مشهد علي بن أبي طالب عليه السلام داخـل البـاب عن يمين الداخـل والمكان معـروف وأرانيه حين حـكى لي هـذه الحكاية ، قال : وكان بـالمشهد قيم أعجمـي يقـال له ببنار ، وكان رجلا صالحا فاتفق ليلة النصف مـن شـعبان أن رأى في المنام كأنه خرج من البلد وجاء إلى المشهد فرأيت ثـلاثة رجـال ، فقلت : مـن أنتم ؟ فقال أحدهم : أنا علي بن أبـي طـالب وهـذان الحسـن والحسين ، ثم سألني عن القبر فقلت هذا قبر سلطان عظيم ، فقـال لي : مه السلطان العظيم هـو الله ، فقلت هـذا قبـر أتـابك زنكي الشهيد ، فقال لي : تمضي إلى ولده محمود وتقول له : نحـن جعلنا هذا المكان معبدا لم نجعله مدفنا ، فقل له : ينقله من هاهنا ، قال : ثم مشـوا إلى المكان الذي يقـال فيه الكف ، ودعوا ثـم قـال لي : ياببنار أنت ما تقول له ، نحن نقول له قال : فأصبح ببنار ودخل إلى جدي القاضي موفق الدين أبي مسلم فحكى له ما رأى وعنده جماعة ، فأخذ جدي وكتب كتابا إلى نور الدين محمـود يخبـره فيه بصـورة المنام قال : فلم يصل إليه الكتاب حتى سير نور الدين محمود كتـابا إلى القاضي أبي مسلم يقول له : إني رأيت ليلة نصف شـعبان علي ابن أبي طالب وولديه الحسن والحسين عليهم السلام ، وقـالوا لي : تنقل أباك من المشهد فنحن جعلناه معبدا لم نجعله مدفنا وقد سيرت

إليك أربعة آلاف قراطيس ، تبني له تربة مثل ترب الفقراء والمساكين لا مثل ترب الملوك والسلاطين وتنقله إليها ، قال : فبنى له حظيرة مختصرة بالقرب من باب المشهد ، ونقله إليها ، ورأيتها بالرقة وهي قصيرة البنيان .

سمعت قاضي القضاة أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم يقول : قد رؤي أتابك زنكي بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بفتحي الرها .

زنكي بن مودود بن آق سنقر

أبو سعيد الملقب عماد الدين صاحب سنجار وهو حفيد المقدم ذكره .
ويلقب الملك العادل .

وكان عادلا يميل الى الدين وأهله ، وكان أخوه عز الدين مسعود ابن مودود بعد موت الملك الصالح ابن عمه قد ملك حلب فسير إليه عماد الدين زنكي وقال :

كيف تختص أنت ببلاد عمي وابنه وأمواله ، وأنا لا أصبر على ذلك وطلب منه حلب ، ويدفع إليه سنجار عوضا عنها ، فأجابه إلى ذلك ، وأخذ جميع ما كان بحلب من الأموال والذخائر ، واتفقا على تسليم حلب إلى زنكي وتسليم سنجار إلى عز الدين ، فسير عماد الدين زنكي ولده قطب الدين الى حلب فتسلمها ، ثم ورد بعده بأهله وأمواله وزوجته بنت عمه نور الدين وأجناده ، ووصل إلى حلب على البرية من جهة الأحص والتقاه أكابر الحلبيين ، وصعد إلى قلعة حلب في ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله ، ووصل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب إلى حلب ونزل عليها ثلاثة أيام ، فقال له زنكي : مر إلى سنجار وافتحها وادفعها إلي أدفع اليك حلب فرحل الملك الناصر عن حلب ومضى الى الموصل ، ثم رحل (٢١٦ ـ و) عنها إلى سنجار وفتحها في ثاني عشر شعبان من السنة وعاد عنها وعزم على منازلة حلب ، وبلغ عماد الدين زنكي ذلك فخرب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالس ، وحصن كفر لاثا بعد أخذه من بكمش ، وأخذ رهائن الحلبيين خوفا من تسليم البلد ، ونزل الملك الناصر على حلب وقت الضحى من يوم السبت لأربع بقين من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة وأقام عليها شهرا يجد في القتال ، فرأى عماد الدين

زنكي أنه لا طاقة له به وان أخاه عز الدين قد جعلها خالية من الأموال والذخائر ، فأحضر اليه الأمير طمان واتفق معه على أن يخرج في السر ليلا ، ويتحدث في تقرير الأمر بينهما على تسليم حلب وأعمالها إلى الملك الناصر وأن يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، وأن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي ، وكتم ذلك عن الحلبيين والاجناد ، وكان يخرج الى اصطبله وداره بالحاضر ويظهر أنه يخرج لحفظ أخشابه بهما ، ويجتمع بالسلطان إلى أن قرر ما قرره ، ولم يشعر أحد من الجانبين إلا وأعلامه قد رفعت على قلعة حلب ، واستقر الأمر على إجراء الأمراء وأعيان المدينة على عادتهم في معايشهم وأملاكهم ، وكان الحلبيون يجدون في قتال عسكر الملك ويخرج منهم في كل يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر يجدون في القتال ، فخافوا على أنفسهم لما تكررمنهم في قتال الملك الناصر مرة بعد أخرى في أيام الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وفي ايام عماد الدين (٢١٦ ظ) زنكي وصرخ العوام بسبه ، ونزل عماد الدين من قلعة حلب يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ورتب فيها طمان إلى أن يتسلم نواب عماد الدين ما اعتاض به عن حلب واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا ونزل عماد الدين في ذلك اليوم إلى السلطان الملك الناصر ،وعمل الملك له وليمةواحتفل ، وقدم لعماد الدين أشياء فاخرة من الخيل والعدد والمتاع الفاخر ، وسار عماد الدين نحو بلاده حتى نزل مرج قراحصار ، وسار الملك الناصر وشيعه ورجع .

سمعت عمي أبا المعالي عبد الصمد بن هبة الله بن أبي جرادة قال : نقل عز الدين صاحب الموصل من حلب حين ملكها جميع ما في قلعة حلب من الذخائر والسلاح والاموال إلى الرقة ، وصانع عماد الدين على أن يأخذ منه سنجار وأعطاه حلب ، فقدم عماد الدين إلى حلب مجدا في السير على البرية .

قال لي عمي : فخــرجت أنا ووالدك والتقيناه وقــدم مــن ناحية الاحص ، ودخل حلب وأقام بها فلم يجــد في قلعتهــا مــن الذخــائر والأموال إلا القليل ، فبلغ الملك الناصر فقــال : أخــذنا والله حلب ، وكان لما بلغه تسلم عز الدين حلب قال : خــرجت حلب مــن أيدينا ، فقيل له : كيف ؟ قلت في عز الدين لما أخــــذها خــــــرجت حلب عن ايدينا ، وقلت في عماد الدين أخذنا حلب ، فقــال : لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال (٢١٧ ـ و) وعماد الدين لارجــال ولامــال ، وجاء الملك الناصر ونازل حلب فقال له عماد الدين امض الى سنجار وخذها وأنا أدفع إليك حلب وتعطيني ســنجار ، فــرحل عنهــا الملك الناصر بعساكره ونازل سنجار وفتحهــا ، وعاد الملك الناصر ونزل على حلب وبها الأمراء الياروقية في قوتهم وعدتهم ، فســعى الأمير طمان بين عماد الدين والملك الناصر وصالحه على أن يعطيه سنجار ويأخذ حلب ، ولم يعلم أحد من الامراء وأهــل البلد إلا وأعلام الملك الناصر على قلعة حلب ، فشق عليهم ذلك وجرى على الياروقية أمــر عظيم وخافوا على أخبازهم ، وكذلك على أهل البلد لأن الملك الناصر كان قد حاصرها في أيام الملك الصالح ورأى من قتــالهم ونصــحهم مالم يشاهده مــن غيرهــم ، وصــعد الرئيس(٧٦) بحلب مقــدم الاحداث إلى عماد الدين ووبخه على ذلك ، فقال له وهو في القلعــة : لم نخرج منها بعد فما فــات شيء فــاستهزأ بــه الرئيس وجمــع له الحلبيون الأجناد إجانات الغسالين إلى تحت القلعةيشيرون بــذلك الى أنه يغسل فيها كالمخانيث ، وعمل عوام حلب فيه شعرا ملحــونا من نظم العامة الجهال ، وكانوا يغنون بها ويدقون على طبــل لهــم منها :

ياحباب قلبي لاتلوموني هذا عماد الدين مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب وزاده المولى نصيبين
(٢١٧ ـ ظ)

قال : وضرب آخر من العوام السفلة على طبله وقال مشــيرا الى عماد الدين :

وبعت بسنجار قلعة حلب عدمتك من بايع مشتري
خربت على حلب خربة نسخت بها خربة الأشعري

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين - فيما كتبه بخطه - عن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي في دستوره الذي جعله تاريخا للماجريات في كل يوم بعضه بخط الفاضل وبعضه بخط ابن الحصين قال:يوم الجمعة سابع عشر صفر- يعني - من سنة تسع وسبعين وخمسمائة في ليلة خرج الحسام طمان ، واجتمع بالسلطان وتقرر الأمر في تسليم حلب إلى السلطان وقلعتها ، وأخذ العوض عنها سنجار ، ونصيبين ، والخابور والرقة ، وسروج وعقد المصافاة مع العماد على المساعدة في الغزو بعسكر سروج والرقة متى استدعوا للجهاد ، وأن يساعد بنفسه وباقي رجاله متى خف ركابه لذلك ، وأن يتابع السلطان في حالتي سلمه وحربه ، ويخلص في طاعته في بعده وقربه ، وحررت من الجانبين نسخة يمين يستحلف باحديهما العماد ويحلف هو بالأخرى .

وقال : خرج في آخر نهار هذا اليوم حسام الدين طمان وجورديك وجماعة من أمراء الياروقية ، وحضروا خدمة السلطان الملك الناصر ، ولخصوا من نسخة اليمن فصولا مختصرة استوفوا أقسام الحلف بها على السلطان ، وباتوا تلك الليلة بالمعسكر التقوي(٧٧) خوفا من تشغيب (٢١٨ - و) العوام .

وقال : يوم السبت ثامن عشر صفر خرج الامراء الحلبيون من الياروقية والمماليك النورية وحضروا خدمة السلطان ، وجاء أعيان المدينة وبياضها ، وشملهم انعام السلطان في رد الأملاك على أربابها واقرار الاجناد على معائشهم واقطاعاتهم واجراء الرعايا على عوائدهم .

وقال - يعني في هذا اليوم - أعلن أهل حلب بسب عماد الدين زنكي بن مودود ، وذمه وتسخيف رأيه ، ووصف ذله وجبنه فيما

اعتمده من السلم والتسليم حتى حملوا الى باب القلعة مغزلا وقطنا وأجانة ، يعنون أنك شأنك شأن النساء من الغزل والغسل .

وقال : يوم الاحد تاسع عشر صفر خرج في أوله الأمراء الحلبيون إلى الخدمة باسرهم ، وساروا في الخدمة الى الميدان الاخضر وفتحت أبواب حلب باسرها وجلس أهلها في معايشهم .

وقال : - يعني في هذا اليوم - أنعم السلطان على ابنة نور الدين محمود بن زنكي زوجة عماد الدين زنكي بن مودود باقطاع من أعمال حلب وعبرته في كل سنة عشرون ألف دينار .

وقال : يوم الخميس ثالث عشري صفر خرج عماد الدين زنكي بن مودود من قلعة حلب وركب السلطان فتلقاه واعتنقا راكبين ، وتسايرا ، فلما قاربا مخيم السلطان تقدم عماد الدين أمامه فترجل عن فرسه قريب اطناب الدهليز حيث ينزل الأمراء في خدمة السلطان ، فأمسك السلطان رأس فرسه حتى دخل عماد الدين الى دهليز سرادقه(٢١٨ - ظ) ثم سار السلطان فنزل حيث جرت عادته ، ودخل وفرش تحت قدمي عماد الدين عدة ثياب أطلس ، ودخل السلطان فجلسا معا ، وجلس الامراء الحلبيون كلهم على مراتبهم ومد الخوان ، ولم يزل السلطان يبسط العماد ويؤانسه ويشغل الوقت بالأخبار المصرية والغزوات وغيرها ، والعماد ملازم للصمت والتثاقل حتى حضر سليمان بن جندر بحكم التحجب عن السلطان ، وخدم عماد الدين وقدم بين يديه ما حمل من الخزانة الناصرية في عشرين بوقجة : مائة ثوب وسكين بنصاب ناب ، وأصناف الثياب أطلس ورومي ، وخوارزمي وأنطالي وخطاي ، وسقلاطون ، وعتابي ، وغير ذلك ، وقدم له الملك العزيز عثمان تسعة أثواب خونجي ومشجر وآمدي وسكين ومنديل ، وقدم له الملك الظاهر غازي مثل ذلك ، وقدم له من اصطبل السلطان عشرة أرس (٧٨) خيلا عرابا ، وخمس حجور ، وخمسة أحصنة ، وقدم له الملك العزيز عثمان ثلاثة أحصنة ، والملك الظاهر مثل ذلك ،

ونهض عماد الدين وخدم وانفصل ، وسار على حاله الى منزل يعرف بقراحصار وهو على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق ، ويقال قراحصا .

أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال : رحل عز الدين – يعني – مسعود بن مودود من قلعة حلب في سادس عشر شوال – يعني من سنة سبع وسبعين وخمسمائة طالبا للرقة وسار حتى أتى الرقة (٢١٩ – و) ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما واستقر مقايضه حلب بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشرين شوال ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى قلعة حلب .

وقال : وسار – يعني – السلطان الملك الناصر طالبا حلب ، فنزل عليها في سادس عشرين محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا ، وباب الجنان غدوة وعشية ، ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، وكان قد ضرس من إفراخ (٧٩) الأمراء عليه وجبههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان رحمه الله أن يسفر له مع السلطان قدس الله روحه في اعادة بلاده وتسليم حلب إليه .

واستقرت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر وانحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم . وأذن لهم في تدبير أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن الرعية جورديك النوري وبيلك الياروقي فقعدوا عنه الى الليل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في سابع عشر صفر سنة تسع وسبعين ، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان

(٢١٩ ـ ظ) الاخضر ومقـــدموا حلب ، وخلع عليهـــم ، وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشـــغاله وينقــل أقمشـــته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر الى يوم الخميس ثـــالث عشر صفر ، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وســـير معـــه بالميدان الاخضر وتقرر بينهما قواعد ، وأنزله عنده في الخيمة وقــدم له تقدمة سنية وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه ، وسار عماد الدين من يومه الى قــراحصا ســـائرا الى ســـنجار ، فـــأقام السلطان بالمخيم بعـــد مســـير عمـــاد الدين الى يوم الاثنين ســـابع وعشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم صعد قدس الله روحـــه قلعـــة حلب مسرورا منصورا (٨٠) .

أنشدت لزنكي بن مودود صاحب سنجار دوبيت :

السكر صار كاسدا من شفتيه
والبدر تراه ساجدا بين يديه
والحسن عليه كل شيء وافر
إلا فمه فانه ضاق عليه

توفي عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار ، ودفن بالمدرسة التـــي أنشأها ظاهر مدينة سنجار رحمه الله .

سمعت تاج الدين محمـــد بـــن خير الله الذنيعـــي الفقيه الحنفـــي بسنجار يقول لي : رأيت عمـــاد الدين زنكي بـــن مـــودود بـــن زنكي صاحب سنجار في النوم وهو في هيئة حسنة وثياب جميلة وهو راكب خارج سنجار نحو القبلة فقلت له إلى أين ؟ فقال : الى الغزاة .

قال لي ابـــن خير الله : وكان له غزوات متعـــددة (٢٢٠ ـ و) رحمه الله ، وكان قد جمع الغبار الذي صـــار على درعه في غزواتـــه وادخرها لتجعل في أكفانه ، فجعلت في أكفانه حين مات رحمه الله .

قال : وكان كثير الخير والمعروف ، وبنى بسنجار مدرسة ، هـــو

مدفون بها وبيمارستانا ، وبنى بنصيبين مــدرسة لأصــحاب أبــي حنيفة ، ووقف على ذلك وقوفا كثيرة (٢٢٠ ـ ظ) .

حواشي زبدة الحلب

١ - شكل مصرع مسلم بن قريش - كما رأينا - نقطة تحول في تاريخ حلب، ولذلك بدأت بالحوادث التي تلته لارتباطها بالمقدمات المباشرة لعصر الحروب الصليبية.
٢ - أي القبائل البدوية العربية، وكانت حلب محكومة من قبل المرداسيين الكلابيين ثم بعدهم من قبل العقيليين.
٣ - زيادة اقتضاها السياق.
٤ - بينها وبين حلب ثلاثة اميال. معجم البلدان.
٥ - دابق قرية قرب حلب من اعمال عزاز بينها وبين حلب اربعة فراسخ، وعندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان، وبه قبر سليمان بن عبد الملك. معجم البلدان.
٦ - أنظر ترجمة سالم في بغية الطلب ص ٤١٥٧ - ٤١٥٩. وكنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠٥ - ٤٠٧.
٧ - نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب. انظر بغية الطلب ص ١٩٧٤.
٨ - هو فيلاريتوس براخاموس، كان بالاصل أرمنيا من قادة الامبراطور رومانوس دايجينس. انظر كتاب «الرها المدينة المباركة» ترجمة عربية، ط. حلب ١٩٨٨ ص ٢٧٣.
٩ - ميناء مدينة انطاكية على شاطىء البحر المتوسط.
١٠ - انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٦٩ - ٢٧٧.
١١ - الاثارب قلعة معروفة بين حلب وانطاكية، تبعد عن حلب ثلاثة فراسخ. معجم البلدان.
١٢ - هو أخو السلطان ملكشاه: انظر حول عصيانه الكامل لابن الاثير - ط القاهرة مطبعة الاستقامة ج ٨ ص ١٣٦.
١٣ - تتبع قرية لطمين ناحية محردة في محافظة حماه، وتبعد عن حماه مسافة ٣٦كم.
١٤ - في ترجمة آق سنقر - مدخل ص ٢٦٩: «داية السلطان ادريس بن طغان شاه، وحظي عند السلطان ملكشاه».
١٥ - حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق. معجم البلدان.
١٦ - لخلف بن ملاعب في موسوعتنا اكثر من ترجمة مفيدة المعلومات في كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠ - ٣٨٥.
١٧ - انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢١ / ٢٢٨.
١٨ - دارا بلد في لحف جبل بين نصيبين وماردين. معجم البلدان.
١٩ - لمزيد من التفاصيل، انظر مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
٢٠ - الري الآن ضاحية لمدينة طهران.
٢١ - قرب معرة النعمان. معجم البلدان.
٢٢ - تتبع تلمنس الآن منطقة معرة النعمان في محافظة ادلب السورية وتبعد عن المعرة مسافة ٦ كم وعن ادلب ٤٥ كم.
٢٣ - وادي بزاعا. انظر مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٧٢.
٢٤ - اضيف ما بين الحاصرتين من ترجمة آق سنقر. مدخل ص ٢٧٢.
٢٥ - سبعين قرية قريبة من حلب. معجم البلدان.
٢٦ - مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب. الآثار الاسلامية في حلب لاسعد طلس. ط. دمشق

١٩٥٦ ص ٢٤١ .
٢٧ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ ذلك انها درست .
٢٨ ـ ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م

٢٩ ـ عانة بلد مشهور على الفرات بين الرقة وهيت يعد في اعمال الجزيرة . معجم البلدان
٣٠ ـ لرضوان ترجمة مطولة في كتاب بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٧ ـ ٣٩٦ .
٣١ ـ لدقاق ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، انظر في كتاب المدخل ص ٣٨٦ .
٣٢ ـ لجناح الدولة حسين ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي المدخل ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩ .
٣٣ ـ اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق من تاريخ دمشق لابن القلانسي ـ ط . دمشق ١٩٨٣ ـ ص ٢١٣
٣٤ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩١ ، ٣٩٥
٣٥ ـ لطغتكين ترجمة قصيرة في تاريخ ابن عساكر ، نشرتها في ملاحق المدخل
٣٦ ـ أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ـ انظر ترجمة خلف بن ملاعب
٣٧ ـ سكمان بن أرتق . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ومن المفيد مقارنة ما جاء هنا بما جاء في الترجمة لوجود بعض التعارض
٣٨ ـ سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر، معجم البلدان
٣٩ ـ المجن القوعي ، مقدم احداث حلب . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢
٤٠ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ـ ٤٧٤ .
٤١ ـ الجزر كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
٤٢ ـ سميساط مدينة على شاطىء الفرات ، هي الآن في تركيا . معجم البلدان ـ الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨٠١.
٤٣ ـ من أمراء التركمان وقادة جيوشهم وهو عند ابن الأثير في الكامل : ٨ / ٢٢٨ « اصبهبذ صباوو »
٤١ ـ انظر المدخل ص ٣٨٨
٤٥ ـ الافضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المتحكم بالخلافة الفاطمية . انظر المدخل ص ٣٩٢ .
٤٦ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ .
٤٧ ـ في تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ « لمعاودة النزول على دمشق » وهو الاقوم
٤٨ ـ الضمير يعود هنا الى يغي سيان . انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٤١ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٥٠ ـ بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب . معجم البلدان .
٥١ ـ ارتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من اعمال حلب . معجم البلدان .
٥٢ ـ بليدة في منطقة اريحا محافظة ادلب السورية كان بها حصن ، مازالت خرائبها شاهدة على عظمة ماضيها . انظر معجم البلدان وانظر الخبر ايضا عند ابن القلانسي ص ٢١٩ .
٥٣ ـ الروج من كور حلب المشهورة في غربيها . معجم البلدان .
٥٤ ـ معرة مصرين من قرى محافظة ادلب وتتبع اداريا لها وتبعد عن ادلب مسافة ١٠ كم .
٥٥ ـ حارم الآن من مناطق محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم
٥٦ ـ معلومات ابن العديم هنا على درجة عالية من الدقة ، والانبرت هو الامبراطور ، اراد به والد بوهموند جويسكارد النورمندي ، وهناك خلاف حول اصل وشخصية الزراد انظر وقارن وليم الصوري ـ تاريخ الحروب الصليبية ترجمتي ـ ط. بيروت ١٩٩٠ ص ٢٧٩ ـ ٣٣٢ .

٥٧ - انب حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . وعم قـرية غناء بين حلب وانطـاكية . معجـم البلدان .

٥٨ - انظر وليم الصوري ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وجسر الحديد كان مقاما على العاصي انظر خـريطة انطاكية ص ١٢٤ من وليم الصوري .

٥٩ - انظر يوميات صاحب اعمال الفرنجة في كتابي الحروب الصليبية - ط . دمشـق ١٩٨٤ ص ٢٣٩ - ٢٦١ . وليم الصوري ص ٣٣٧ - ٣٦٤ .

٦٠ - الفوعة الآن من قرى محافظة ادلب وتبعد عنها مسافة ١٣ كم .

٦١ - انظر حوله الأعلاق الخطيرة لابن شداد قسم حلب - ط . دمشق ١٩٩١ ج٢ ص ٩٤ .

٦٢ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٦٨ - ٢٧١

٦٣ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٧٨ - ٢٨٢ .

٦٤ - انظر المدخل ص ٣٩٢ .

٦٥ - تبعد خرائب كفر طاب عن خان شيخون - الى الغرب منها - قرابة ٣كم .

٦٦ - انظر الأعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج٢ ص ١٣٨

٦٧ - انظر ابن القلانسي ص ٢٢٩ .

٦٨ - قبة ابن ملاعب « وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية » .

٦٩ - المسلمية من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافه ١٥كم .

٧٠ - بلدة من نواحي حلب بينهما يوم واحد . معجم البلدان .

٧١ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٢٣٢

٧٢ - هاب قلعة عظيمة من العواصم . معجم البلدان .

٧٣ - ماتزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافة ١٨ كم الى الشمال منها .

٧٤ - اسمها الآن مسكنة تبعد عن حلب مسافة ٩٠كم «الفايا كورة بين منبـج وحلب . معجـم البلدان

٧٥ - انطاكية نعم اما الرها فكانت دويلة قائمة بذاتها لها حاكمها .

٧٦ - انظر ترجمة دقاق منتزعة من تاريخ دمشق لابن عساكر .

٧٧ - الخشت من انواع النبل أو الخناجر .

٧٨ - الأثارب من قرى محافظة حلب - منطقة جبل سمعان .

٧٩ - املاك بيت المال . المدخل ص ٣٨٩ .

٨٠ - تل قراد حصن في بلاد الارمن قرب شيختان . معجم البلدان .

٨١ - غير اسمه الآن الى بني قحطان ، كان يقع امام جبلة . معجم البلدان .

٨٢ - هو العشارنة في محافظة حماه في منطقة الغاب .

٨٣ - اي قفز .

٨٤ - في ترجمة رضوان - المدخل ص ٣٩٠ : « واستدل على ابي الفتح الصـائغ رئيس الملاحـدة بها » .

٨٥ - بقاياها في سوق الصابون بحلب . انظر الآثار الاسـلامية والتـاريخية في حلب ص ٢٥١ - ٢٥٣ .

٨٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٢ - ٣٠٣، ترجمة الب أرسـلان المنتـزعة مـن بغية الطلب في ملاحق الجزء الاول من المدخل .

٨٧ - الذي أبلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلي : المدخل ص ٢٩٥ .

٨٨ - كذا بالاصل وجاء في الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٢٧١ : برسق بن برسق صاحب همـذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي » .

٨٩ - لم يذكر ابن القلانسي هذا الخبر لكن أكده ابن الاثيرج ٨ ص ٢٧١، مع المزيد مـن التفـاصيل الهامة .

٩٠ ـ ماتزال بقايا رفنيه قائمة قرب بلدة بعرين « بـارين » على الطـريق الذي يصـل مصـياف بحمص ، هذا وما أورده كل من ابن القـلانسي ص ٣٠٦ وابـن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ بشـأن رفنية يخالف رواية ابن العديم هذه واوضح ابن الاثير ان الذي استولى عليه عسكر السلطان ثـم آل الى خير خان هو مدينة حماه ، وهو الصحيح .
٩١ ـ دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب . معجم البلدان .
٩٢ ـ تل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشـق ، وفيه خـان ومنزل للقـوافل وهـو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان . وتبعد تل السلطان عن ادلب ٤٧ كم .
٩٣ ـ كذا وعند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ « جيوش » .
٩٤ ـ يتوافق هذا مع ماأورده ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ص ٢٧٢ .
٩٥ ـ في ترجمة الب أرسلان بن تتش روى ابن العديم « فلما وصل الى دير حـافر » واورد ابـن الأثير ج ٨ ص انه قتل سنة ٥١١ هـ واعطى المزيد من التفاصيل ، ومن أجل قلعة نادرة وهي قرب بالس انظر الاعلاق الخطيرة قسم حلب . ج ٢ ص ٢٥ هذا ودير حافر مـركز ناحية تـابعة لمنطقة الباب في محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٥٠ كم .
٩٦ ـ للبرسقي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .
٩٧ ـ ياروقتاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .
٩٨ ـ كان خير خان قد أسر ايلغازي سنة ثمان وخمسـمائة وذلك اثناء نزوله على حمص . انظـر ابن القلانسي ص ٣٠٥ .
٩٩ ـ سنجة نهر يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطـرة عظيمة . معجم البلدان .
١٠٠ ـ الحجر : الأنثى من الخيل . القاموس .
١٠١ ـ أي ان أسره كان من الملائكة .
١٠٢ ـ ريذوماسيور . انظر حوله وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٢ .
١٠٣ ـ مريمين من قرى منطقة جسر الشغور محافظة ادلب وتبعد عن ادلب ٨٥ كم .
١٠٤ قارن وليم الصوري ج١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٢ .
١٠٥ كفر روما قرية من قرى معرة النعمان . معجم البلدان .
١٠٦ الراوندان قلعة حصينة من نواحي حلب . معجم البلدان .
١٠٧ ـ ترمانين الآن احدى قرى منطقة حارم محافظة ادلب وتبعد ادلب مسافة ٧٦كم .
١٠٨ ـ مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القـلانسي ص ٣٢٠ ، وابـن الأثير ج ٨ ص ٢٩٤ ، الروايات حول معركة دانيث لسنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م التـي انتصر فيهـا الفرنج حسب رواية وليم الصوري ج١ من ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .
١٠٩ ـ تتوافق هذه الرواية مع ما اورده باختصار ابن القلانسي ص ٣٢٣ ، لكن ابن الاثير تحـدث في ج٨ من ص ٢٨٩ عن نشاط جوسلين في منطقة طبرية ، وصـفين هي منطقة ابـي هـريرة قـرب الرقة حاليا .
١١٠ ـ قرية كبيرة في جبل السماق من بلد حلب . معجم البلدان .
١١ ـ لعلها كانت قرب باب الجنان .
١١٢ ـ سرمدا قرية تابعة لمنطقة حارم في محافظة أدلب وتبعد عن ادلب مسافة ٦٤كم .
١١٣ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الواقعة في نص ابن الازرق الفارقي .
١١٤ ـ الهري بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان ، القاموس .
١١٥ ـ نبل من قرى أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٢ كم
١١٦ ـ حربل من قرى منطقة اعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٠كم .
١١٧ ـ أو في التفاصيل حول هذا الموضوع في نص السرياني المجهول .

١١٨ ـ تل قباسين من قرى العواصم من اعمال حلب . معجم البلدان .
١١٩ ـ البيرة بلدة في تركية الان ـ اسمها بيرة جبك ـ على الفرات قرب سميساط الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٦٩ .
١٢٠ ـ تسمى الآن بجامع ابي ذر في محلة الجبيلة . الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ١٩٢ .
١٢١ ـ كركر او جرجر : حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) غربي الفرات تولاها الخراب . اللؤلؤ المنثور ص ٥١٨ .
١٢٢ ـ ويعرف ايضا باسم حصن زياد بارض ارمينية بين آمد وملطية . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٦ ومن اجل الاسرى انظروليم الصوري ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ . مع نص السرياني المجهول .
١٢٣ ـ باذقوسا : جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال . معجم البلدان .
١٢٤ ـ جبرين : قرية على باب حلب . معجم البلدان .
٥طظ ـ حداثين من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٦ كم .
١٢٦ ـ عقر بوز من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٦ .
١٢٧ ـ الجشير : المواشي على انواعها .
١٢٨ ـ قارن واستفد من السرياني المجهول .
١٢٩ ـ مع نص السرياني المجهول انظر وليم الصوري ص ٥٩١ ـ ٥٩٥ .
١٣٠ ـ حيلان قرية قرب حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء سيقت الى حلب . معجم البلدان .
١٣١ ـ اسمه الآن الشيخ محسن . الآثار الاسلامية ص ٥٦ ـ ٥٨ .
١٣٢ ـ انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب ج ١ ص ٢٧١ ـ ٣٩٩ .
١٣٣ ـ هو الآن المدرسة الحلوية . الآثار الاسلامية ص ٥٩ ـ ٦٢ .
١٣٤ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٢٥٢ .
١٣٥ ـ هي في محلة الجلوم . انظر الآثار الاسلامية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
١٣٦ ـ العزيب من الابل والشاء التي تعزب عن اهلها في المرعى ، وإبل عزيب لاتروح على الحي . القاموس .
١٣٧ ـ الحاذوتة الآن اسمها تل الحواصيد ، وتبعد عن حلب مسافة ٦٠كم .
١٣٨ ـ مشحلا : قرية من نواحي اعزاز من اعمال حلب . معجم البلدان .
١٣٩ ـ بالو : قلعة حصينة وبلدة من نواحي ارمينية بين أرزق الروم وخلاط . معجم البلدان .
١٤٠ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
١٤١ ـ اسمه الآن مقام الصالحين . الآثار الاسلامية ص ٥٢ ـ ٥٣ .
١٤٢ ـ بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧
١٤٣ ـ لدبيس ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٤٧٨ ـ ٣٤٩٣ .
١٤٤ ـ مايشد حول الساق .
١٤٥ ـ الثفر : الجلدة التي توضع تحت النيل ويربط بها حلس الدابة .
١٤٦ ـ مدينة الآن بتركية هي في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
١٤٧ ـ حملة شارات وأعلام كانوا يقومون بوظيفة مراقبة أمن الجيش ونظامه .
١٤٨ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة آق سنقر البرسقي في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .
١٤٩ ـ عم : قرية غناء ذات عيون جارية واشجار متدانية بين حلب وانطاكية ـ معجم البلدان .
١٥٠ ـ ماتزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه وهي في منطقة جبل سمعان ـ محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم . انظر بغية الطلب ص ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ حيث المزيد من التفاصيل .
١٥١ ـ له ترجمة مفيدة في بغية الطلب انظرها فيما تقدم .
١٥٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١٨ .
١٥٣ ـ كذا بالاصل وهذه الرواية مشوشة صوابها مارواه ابن العديم نفسه في بغية الطلب ص

٣٢١٨ ـ ٣٢١٩ : « نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز والامير حسن قراقش وجماعة امراء في عسكر قوي الى باب حلب واتفق الامر على ان يسير بدر الدولة وخطليا الى باب الموصل الى المولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر الى الموصل فلمن ولى عاد الى منصبه ، واقام بحلب الامير حسن قراقش والرئيس فضائل بن بديع ، واصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما ، وطمع بملك حلب وسير سرية الى حلب مع الامير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل الى حلب ، واطلع الى القلعة واليا من قبله ورتب الامور » .

١٥٤ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ .

١٥٥ ـ تبعد شامر عن مدينة حلب مسافة ١٢ كم وهي من قرى منطقة جبل سمعان .

١٥٦ ـ التكحيل هنا : امرار ميل محمي على الجفنين حتى يلتصقا .

١٥٧ ـ لزنكي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥٧ .
اعيد نشرها في هذه الموسوعة .

١٥٨ ـ السن مدينة على دجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الاسفل . معجم البلدان .

١٥٩ ـ خارج مدينة حلب . بغية الطلب ص ٣٨٥٢ .

١٦٠ ـ الكبر قباء محشو يتخذ الحرب . المعرب للجواليقي ص ٢٥٢ .

١٦١ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ (حوادث سنة ٥٢٤ هـ)

١٦٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٦٥٨ ـ ٦٦٠ .

١٦٣ ـ غالبا ماكان السر جئنية من المشاة ذوي التسليح الثقيل وممن كانت الكنيسة تتولى الانفاق عليهم .

١٦٤ ـ مرى بن ربيعة ، وحسان بن مكتوم . انظر بغية الطلب من ٣٤٨١ ـ ٣٤٨٢ . تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦٦ .

١٦٥ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٤٨٢ .

١٦٦ ـ مراغة بلدة مشهورة عظيمة هي اعظم بلاد اذربيجان واشهرها . معجم البلدان .

١٦٧ ـ رام حمدان من قرى ناحية معرتمصرين محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٥كم .

١٦٨ ـ عقرقوف قرية من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد اربعة فراسخ .

١٦٩ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٧٤ (حوادث سنة ٥٢هـ) مع الحواشي .

١٧٠ ـ صلاح الدين اليغيسياني ، من اكبر شخصيات دولة زنكي .

١٧١ ـ أتى ابن الأزرق الفارقي على ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، انظر نصه المتقدم مع التعريف بالاماكن الجغرافية

١٧٢ ـ عقر الحميدية قلعة حصينة كانت للاكراد ببلاد الموصل.الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ص ٨١١ .

١٧٣ ـ عند ابن الأزرق « تل شيخ » ووافقت رواية ابن العديم هنا رواية ابن الاثير ج٨ ص ٣٤٣ .

١٧٤ ـ أي سنة ٥٢٨ هـ ، انظر تاريخ حلب العظيمي ـ ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٣٨٦ ، وارخ لها ابن القلانسي ص ٢٩٠ ـ ٣٩٢ بين حوادث السنة التالية ٥٢٩ هـ .

١٧٥ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٣٨٧ ـ ٣٩٠ وانظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر .

١٧٦ ـ في ابن القلانسي ص ٣٩١ « وخيم بارض عذراء الى ارض القصير » ١٧٧ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٣٩٢ .

١٧٨ ـ تعرف الآن باسم بعرين وهي من قرى منطقة مصياف في محافظة حماه وتبعد عن حماه مسافة ٤٢كم .

١٧٩ ـ عاصر ابن الازرق الفارقي هذه الاحداث وموارده على درجة عالية من الاهمية ، انظرها في موسوعتنا هذه .

١٨٠ ـ المعلومات لدى ابن القلانسي أوسع ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، وسيكون لمعين الدين انر دور السيادة في دمشق حتى وفاته فبعد وفاته بقليل سقطت ـ كما سنرى ـ لنور الدين محمود بن زنكي . انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٤١٥ .
١٨١ ـ هو فولك أوف انجو . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٦ ـ ٦٨٩ .
١٨٢ ـ هو يوحنا بن الكسيوس كومنين . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٤ ـ ٦٨٦ .
١٨٣ ـ ملك دولة أرمينية في كليكية .
١٨٤ ـ وصف ابن العديم كل من عين زربة والمصيصة وبغراس ومدن الثغور الاخرى في كتابه بغية الطلب ص ١٥١ ـ ١٧٢ .
١٨٥ ـ في تقويم البلدان ص ٢٣٠ وبالقرب من عين الجر ضيعة تعرف بالمجدل وهي على الطريق الاخذ من بعلبك على وادي التيم هذا ، وتعني كلمة مجدل : حصن .
١٨٦ ـ استخدمت بيزنطة أعداد كبيرة من العناصر التركية الوثنية بمثابة مرتزقة في جيوشها .
١٨٧ ـ القادة الكبار .
١٨٨ ـ كان هذا البرج من أشد ابراج سور حلب مناعة .
١٧٩ ـ قرية قريبة من حلب على نهر قويق . زبدة الحلب ـ ط . دمشق ١٩٥١ ج١ ص ٢٦٤ .
١٩٠ ـ جسر شيزر وكان عليه موقع حصين غير بعيد عن شيزر نفسها .
١٩١ ـ لمزيد من المعلومات انظر ابن القلانسي ص ١٤٥ ـ ٤١٨ .
وليم الصوري ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧ .
١٩٢ ـ ماتزال قلعة ابي قبيس قائمة . وتبعد عن مدينة حماه مسافة ٥٤كم .
١٩٣ ـ الاكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . معجم البلدان .
١٩٤ ـ تل عمار في منطقة اعزاز محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٣٣كم .
١٩٥ ـ زردنا في جوار مدينة ادلب وتبعد عنها مسافة ٢٠ كم .
١٩٦ ـ عند العظيمي في تاريخ حلب ص ٣٩٤ « وفتح دارا ورأس العين » .
١٩٧ ـ الكهف احدى قلاع الدعوة في جبال بهراء .
١٩٨ ـ دارا مدينة بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
١٩٩ ـ رأس العين احدى المدن السورية على نهر الخابور مقابل الحدود التركية .
٢٠٠ ـ .جبل جور واحد من حصون ديار بكر قريب من ارمينية . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٧٦ .
٢٠١ ـ حصن ذي القرنين حصن يقع تحته رأس دجلة شمالي ميافارقين . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٨٣ .
٢٠٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ مرآة الزمان ج١ ص ١٧١ .
٢٠٣ ـ احدى قلاع ديار بكر . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٨٢٠ .
٢٠٤ ـ هدم عماد الدين هذه القلعة وعمر مكانها واحدة جديدة حملت اسمه « العمادية » معجم البلدان .
٢٠٥ ـ من قلاع ديار بكر .
٢٠٦ ـ بلدة من ديار بكر قرب اسعرد . معجم البلدان .
٢٠٧ ـ هما في اقليم نصيبين .
٢٠٨ ـ بلد بين ماردين والرها اسمها اليوم ويران شهر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٥ .
٢٠٩ ـ باسوطا الآن في منطقة عفرين محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٦٩كم .
٢١٠ ـ كان النقابون يفتحون ثغرة باسفل السور تملأ أثناء العمل بالخشب ثم تحرق الاخشاب فينهار السور .
٢١١ ـ لمزيد من المعلومات انظر بغية الطلب ٣٨٥٠ ـ ٣٨٥١ .

وانظر ما جاء عند المؤرخ السرياني المجهول .
٢١٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الباهر ص ٧٠ ـ ٧٢ .
٢١٣ ـ عزا وليم الصوري ص ٧٤٢ مقتل زنكي الى مؤامرة دبرها صاحب قلعة جعبر .
٢١٤ ـ يكتب ايضا « الجاووش » وهو المنادى الذي يتولى استنفار العساكر لتخرج الى القتال ، وقرأنا في النوادر السلطانية لابن شداد « فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر » .
٢١٥ ـ كانوا يذكرون « انه كان عليهم منه جور وظلم في ايام ولايته ، وأكثر ما كان يذكر عنه من الظلم مايلزم الناس به من جمع الرجالة للقتال والحصار » بغية الطلب : ٢٨٥٢ .
٢١٦ ـ من أنواع النقود النحاسية قد يوازي كل ١٣/ منها درهما فضيا .
٢١٧ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٨٥٥ ـ ٣٨٥٧ . وزالت معالم القبة الآن ، وكانت قرب مايعرف الآن بباب بغداد ، ودلت بعض الحفريات الاثرية على مكان القبر .
٢١٨ ـ أوفى التفاصيل حول هذه الواقعة عند المؤرخ السرياني المجهول .
٢١٩ ـ انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٢٥ .
٢٢٠ ـ الحديث هنا عن حصار دمشق للمرة الثانية الآن من قبل مايعرف بالحملة الثانية ، مع ماتلته من أحداث انظر وليم الصوري ص ٧٧٩ ـ ٧٩١ .
٢٢١ ـ من عمل حارم ناحية العمق ، ولعلها المعروفة الآن باسم يغله في محافظة ادلب ـ ناحية كفر تخاريم .
٢٢٢ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين لأبي شامة في موسوعتنا هذه .
٢٢٣ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .
٢٢٤ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة قسم حلب ـ ج١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ .
٢٢٥ ـ اسمه الآن جامع التوته ، انظر حوله الآثار الاسلامية ص ٦٣ ـ ٦٤ .
٢٢٦ ـ تحدث ابن شداد عن هذه المدرسة وترجم للذين درسوا فيها . الاعلاق الخطيرة قسم حلب ـ ج١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧١ .
٢٢٧ ـ حصن كيفا ، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٨٤ .
٢٢٨ ـ ويقال له تل يعفر وتلعفر ، بلدة بالعراق غربي الموصل على طريق سنجار الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ـ ج٢ ص ٧٧٣ .
٢٢٩ ـ انظر الروضتين ج١ ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٢٣٠ ـ قال ياقوت « انب حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب له ذكر» وفي ايامنا هذه انب قرية تتبع ناحية محمبل ـ منطقة اريحا ، محافظة ادلب ، وتبعد عنها بقرابة كيلو متر واحد تل انب الاثري ، ويشرف هذا التل على كل من وادي الغاب وسهل الروج . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
٢٣١ ـ انظر وليم الصوري من ٧٨٩ ـ ٧٩٣ ، ٨٠٤ ، ٨١٤ .
٢٣٢ ـ انظر القصيدة كاملة في الروضتين ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ .
٢٣٣ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين ج١ ص ٦٠ ـ ٦٢ .
٢٣٤ ـ انظر وليم الصوري ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤ .
٢٣٥ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٤٢٣ .
٢٣٦ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٤١ .
٢٣٧ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٤
٢٣٨ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ب٩٨ ـ٩٩ .
٢٣٩ ـ ويعرف ايضا باسم كفر سوت ، قرب بهسنا . معجم البلدان .
٢٤٠ ـ من اجل مرعش انظر بغية الطلب ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ .
٢٤١ ـ من اجل ملوك ، انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧ .

٢٤٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٠٨ ـ ٨١٤ .
٢٤٣ ـ بقايا هذا الحصن على مقربة من سلمية على الطريق الواصلة بمدينة حماه .
٢٤٤ ـ انظر بغية الطلب ص ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ .
٢٤٥ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٥٠٩ .
٢٤٦ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٩٠ ـ ٨٩٢ .
٢٤٧ ـ الجومة : من نواحي حلب . معجم البلدان .
٢٤٨ ـ اليزك : الحرس المتقدم او الطلائع .
٢٤٩ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٨٧ ـ ٨٨٨ .
٢٥٠ ـ بحيرة قدس هي بحيرة قطينة حاليا قرب حمص .
٢٥١ ـ انظر وليم الصوري ب٨٩٤ ـ ٩٢٢ .
٢٥٢ ـ تيزين من نواحي حلب ، كانت تعد من اعمال قنسرين . معجم البلدان .
٢٥٣ ـ في الروضتين نقلا عن العماد الاصفهاني « نزلوا على عم » الروضتين ج١ ص١٣٣ ، هذا ويوجد الآن في منطقة حارم قرية اسمها صفصافة .
٢٥٤ ـ انظر وقارن الروضتين ج١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .
٢٥٥ ـ حصن الشام قرب طرابلس . معجم البلدان .
٢٥٦ ـ بلد بالصعيد الادنى من ارض مصر ، على شاطىء النيل في شرقيه معجم البلدان .
٢٥٧ ـ على عشرة أميال من المنية . وليم الصوري ص ٩١١ ـ ٩١٣ مع وصف المعركة بتفاصيل مفيدة جدا .
٢٥٨ ـ انظر وليم الصوري ص ٩١٣ ـ ٩٢٢ .
٢٥٩ ـ هونين حصن بجبل عاملة في جنوب لبنان الحالي انظر معجم البلدان .
٢٦٠ ـ الملوحة قرية كبيرة في قرى حلب .
٢٦١ ـ نبع السرياني في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
٢٦٢ ـ انظر لمزيد من التفاصيل وليم الصوري ص ٩٢٨ ـ ٩٣٦ .
٢٦٣ ـ توفي نتيجة نهمه وتخليطة بالطعام.انظر ماذكره ابن الأزرق الفارقي
٢٦٤ ـ في الروضتين ج١ ص ١٨٣ :« وساروا اليه وان ابن الهنفري وفيليب بن الرفيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدمة اليه » .
٢٦٥ ـ على مقربة من بلدة نوى في حوران سورية .
٢٦٦ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٤٨ ـ ٩٥٣ .
٢٦٧ ـ قلعة قريبة من منطقة صافيتا .
٢٦٨ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٦٢ ـ ٩٦٣ .
٢٦٩ ـ هي الآن مركز ولاية في تركية وتبعد عن انقرة مسافة ٢٢كم .
٢٧٠ ـ انظر حولها الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .
٢٧١ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٦ .
٢٧٢ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٥ .
٢٧٣ ـ قال ياقوت في معجمه « وبقرب البلقاء من اطراف الشام موضع يقال له الرقيم ، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف » والمعنى بهذا منطقة البتراء بالاردن .
٢٧٤ ـ خير مصدر حول موضوع التوسع الايوبي في اليمن هو كتاب « السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن » لمحمد بن حاتم اليامي ـ ط . بيروت ١٩٧٤ .
٢٧٥ ـ للصالح اسماعيل ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ١٨٢٢ ـ ١٨٢٦ .
٢٧٦ ـ يعرف موقعها الآن باسم جامع الشيخ معروف . الآثار الاسلامية ص ٧٢ ـ ٧٣ .
٢٧٧ ـ أي الطبول . القاموس .
٢٧٨ ـ في بغية الطلب ص١٨٢٣ : « وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة

حلب مع شاذبخت ، وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الامـراء ، وتجهـز الملك الناصر صلاح الدين من مصر الخروج الى الشام ، وطلب ان يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدبير ملكه » .

٢٧٩ ـ كشف حديثاً عن سجن كان تحت الارض في قلعة حلب عثر به على مايزيد عن عشرين مـن الهياكل العظيمة .

٢٨٠ ـ الضابط المسؤول عن حراسة باب القلعة .

٢٨١ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص حيث يستخلص ان الجرن الاصفر كان من احياء حلب .

٢٨٢ ـ مسجد السيدة علوية بنت وثاب زوجة ثمال بن صالح وأم محمـود بـن نصر مـدفونة فيه الاعلاق الخطيرة قسم ـ حلب ج١ ص ١٨١ .

٢٨٣ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٥٤ ـ ٥٥ .

٢٨٤ ـ انظر الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

٢٨٥ ـ لم يرد اسم هذه الدار او الحمام في الاعلاق الخطيرة .

٢٨٦ ـ انظرها في الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٢٣٤ .

٢٨٧ ـ المكان الذي يقوم فيه الآن بناء المكتبة الظاهرية بدمشق .

٢٨٨ ـ منذ ذلك الحين اقيم لصلاح برج خشبي كان لايفارقه خوفا من الاغتيال .

٢٨٩ ـ وصل الى مرتبة الوصاية على بلدوين بـن عموري . وليم الصوري ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧ .

٢٩٠ ـ جبلا زين العابدين وكفراع شمالي حماه .

٢٩١ ـ انظر ماكتبه ابن الازرق الفارقي .

٢٩٢ ـ من منتزهات حلب المشهورة . انظر تاريخ حلب لابن الشـحنة ـ ط .طـوكيو ١٩٩٠ ص ١٣٢، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

٢٩٣ ـ انظر تاريخ ابن الشحنة ص ١٣٢ .

٢٩٤ ـ جبل ليلون جبل مطل على حلب بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .

٢٩٥ ـ ذكر ابو شامة في الروضتين ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ نقلا عن ابن ابي طي ان هـذا الرجـل اصله من المغرب ظهر أولا في قرية مشغرا في غوطة دمشق ثم هـرب الى بلد حلب ، وكان ذلك سـنة ٥٧٠ هـ ، واعتقد ان لفرند تصحيف لكفر نجد ، وكانت ـ كما قال ياقوت ـ قرية كبيرة من اعمال حلب في جبل السماق ، كما ذكرها ابن العديم في بغية الطلب ص ٤٧٧ وكفر نجد الآن من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٧ كم .

٢٩٦ ـ بزاعا بلدة من اعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب .

٢٩٧ ـ من أنواع الدروع السابغة .

٢٩٨ ـ مصياف غربي مدينة حماه .

٢٩٩ ـ تل خالد من الحصون التي كان نور الدين قد انتزعها من جـوسلين . انظـر تـاريخ ابـن الشحنة ص ٧٧١ ، ٢١٤ .

٣٠٠ ـ لعل لهذا علاقة بالقيامة التي اعلنت من قبل في قهستان بوساطة امام ألموت . انظـر كتـاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ ط . بيروت ١٩٧٠ ص ٩٠٠٨ .

٣٠١ ـ افضل المعلومات حول هذا الحدث لدى ابن الازرق وكذلك مرآة الزمان

٣٠٢ ـ اي الجامع الاموي بحلب .

٣٠٣ ـ على مقربة من باب القلعة الصغير من جانب خندقها . الاعلاق ـ قسم حلب ج ١ ص ٧١ .

٣٠٤ ـ البغلطاق رداء بلا أكمام يلبس فوق الثياب . انظر معجم مفصـل في اسـماء الالبسـة عند العرب.اينهارت دوزي ـ ط امستردام ١٨٤٥ ص ٨١ ـ ٨٤ .

٣٠٥ ـ المسؤول عن حفظ مراكب اللالا .

٣٠٦ ـ لعل عدد من استدعاه ممن كان يثق به كان اثنين .

٣٠٧ ـ عم قرية غناء بين حلب وانطاكية.معجم البلدان .
٣٠٨ ـ فلنط لماني كونت فلا ندرز . انظر وليم الصوري ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧ .
٣٠٩ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٠٢ ـ ١٠٠٥
٣١٠ ـ تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب كانت تعد من اعمال قنسرين . معجم البلدان .
٣١١ ـ اطمة الآن من قرى منطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٨٩كم .
٣١٢ ـ الجمدار المسؤول عن ثياب الحاكم .
٣١٣ ـ ذكر ابن شداد بعض اسواق حلب في كتابه الاعلاق ، كما ذكر بعضها ابن الشحنة ، واهتم بها طلس في كتابه الآثار الاسلامية ، راجع الفهارس .
٣١٤ ـ في بغية الطلب ص ١٨٢٦ « له نحو من ثمانية عشر سنة » .
٣١٥ ـ انظره في موسوعة أطراف الحديث النبوي ـ اعداد محمد السعيد بسيوني ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ج٣ ص ١٨٢ .
٣١٦ ـ في مجلة الفرافرة تحت القلعة . انظر الآثار الاسلامية ص ٣٢١ .
٣١٧ ـ الجاندار : حافظ السلاح .
٣١٨ ـ شيح الحديد قرية كبيرة في طرف العمق . بغية الطلب ص ٤٧٤ .
٣١٩ ـ حصن الدربساك قريب من بغراس . بغية الطلب ص ١٥١ .
٣٢٠ ـ الاخترين مركز ناحية تابعة لقضاء عزاز في محافظة حلب ، وتبعد عن حلب مسافة ٤٥ كم .
٣٢١ ـ البركسطوانات : دروع الفرسان أو الحيوانات في الحرب .
٣٢٢ ـ البغلة دعامة تبنى للجدار الواهي وتحشي الاساس لتقية من السقوط . موسوعة حلب المقارنة للاسدي ط. حلب ـ مطبعة جامعة حلب .
٣٢٣ ـ كانت الاحص كورة كبيرة من كور حلب قصبتها خناصره . معجم البلدان ، هذا ونقل ابن العديم في ترجمته لزنكي ـ بغية الطلب ص ٣٨٥٧ ـ ٣٨٦٤ ـ وصف دخوله الى حلب عن عمه ووالده .
٣٢٤ ـ تعرف ايضا باسم اشمول ، ذكرها ابن الشحنة ص ٢٤٥ بين منتزهات حلب .
٣٢٥ ـ دارا مدينة في لحف جبل بين ماردين ونصيبين ذات بساتين ومياه جارية . الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٩٢ .
٣٢٦ ـ باشورة كل قلعة مدخلها .
٣٢٧ ـ على مقربة من بالس انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٢٥ .
٣٢٨ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ : « فخرب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالس وحصن كفرلاثا » .
٣٢٩ ـ قلعة مطلة على الفرات قرب جسر منبج.الاعلاق ـ قسم الجزيرة ص ٨٢٦ .
٣٣٠ . سروج بلدة قريبة من حران من ديار مصر . معجم البلدان .
٣٣١ ـ في منطقة منبج قرية اسمها « كرسان » فلعلها الموقع المقصود .
٣٣٢ ـ كفر لاثة من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٢٠ كم .
٣٣٣ ـ بلية بين ماردين ودنيسر من اعمال الجزيرة . معجم البلدان .
٣٣٤ ـ انظر ماذكره ابن الازرق الفارقي .
٣٣٥ ـ بابلى وباسلين من منتزهات حلب . انظر الاعلاق ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٣٦٧ ، ٣٧١ .
٣٣٦ ـ من منتزهات حلب ، ابن الشحنة ص ٢٤٦ .
٣٣٧ ـ عد ابن الشحنة ص ٢٣٧ باذقوسابين حارات حلب خارج الاسوار .
٣٣٨ ـ من أنواع النشاب المرم بواسطة النوابض ، ومعروف ان الأسلحة تطورت كثيرا في هذه الفترة .
٣٣٩ ـ مقام ابراهيم الخليل داخل القلعة .
٣٤٠ ـ الضمير يعود هنا الى زنكي ، فقد طالبه الجند بالرواتب المقدرة لهم مع التعويضات .
٣٤١ ـ الخبز الراتب .

٣٤٢ ـ أي بدون نفقات ومرتبات .
٣٢٣ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ « وان يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقـة وسروج وأن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي » .
٣٤٤ ـ كان صلاح الدين شافعيا .
٣٤٥ ـ امتداد مسقوف لقاعة مشرفة على الشارع يطل منه الحاكم فيرى مايجري بالخارج دون ان يرى وهو بالوقت نفسه متمتع بالحماية .
٣٤٦ ـ لعله اراد أبا موسى الاشعري ومارلج بين الناس عن موقفه في التحكيم .
٣٤٧ ـ عبارة بغية الطلب ص ٣٨٦٠ أقوم وأوضح قوله :« ووبخه على ذلك ، فقال وهو بالقلعة : لم نخرج منها بعد ، فمافات شيء ، فاستهزأ به » .
٣٤٨ ـ خارج أسوار المدينة . الاعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج١ ص ٦٦ ، ٣٩٦ .
٣٤٩ ـ على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق . بغية الطلب ص ٣٨٦٢ .
٣٥٠ ـ الفولة قرية في قضاء الناصرة . معجم بلدان فلسطين لمحمـد شراب ط . دمشـق ١٩٨٧ . وانظر ايضا وليم الصوري ص ١٠٦١ ـ ١٠٦٢ .
٣٥١ ـ ويسمى ايضا جبل طابور ، يقع شرقي الناصرة . معجم بلدان فلسطين .
٣٥٢ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧ ـ ١٠٦٩ ـ ١٠٧١ .
٣٥٣ ـ الزردخاناه : مستودع حفظ الاسلحة ، ويبدو من النص انه كان يحفظ به مافضل من دخل الاوقاف .
٣٥٤ ـ مكث ابن شداد لدى صلاح الدين وهو الذي الف حوله كتاب المحاسن اليوسفية .
٣٥٥ ـ من أشهر أئمة الصوفية .
٣٥٦ ـ هي عنجر الحالية في لبنان على مقربة من الحـدود السـورية اللبنانية الحـالية قبـل بلدة شتورا .
٣٥٧ ـ لم يرد ذكرها هذا الموقع في المعاجم العامة او المتخصصـةبفلسطين ، ويسـتفاد مـن وليم الصوري ص ١٠٧٠ ، أنه كان على أطراف البحر الميت .
٣٥٨ ـ سبسطية قرية في الشمال الغربي من مدينة نابلس على بعد مسافة ١٥ كم منهـا . معجـم بلدان فلسطين .
٣٥٩ ـ تمثل مدينة جينين (جنين) الراس الجنوبي للمثلث المتكون من مرج بني عامـر . معجـم بلدان فلسطين .
٣٦٠ ـ ابن اسد الدين شيركوه ، وكان اقطاعه حمص .
٣٦١ ـ مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة بينهما سبعة فراسخ . الاعلاق ـ قسـم الجـزيرة ص ٧٦٨ .
٣٦٢ ـ كفر زمار : قرية من قرى الموصل . معجم البلدان .
٣٦٣ ـ شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان.معجم البلدان .
٣٦٤ ـ في مفرج الكروب ج٢ ص ١٧٩ « عيسى بن بلاشق » .
٣٦٥ ـ كذا بالاصل ولعلها تصحيف « كمر » أي قباء ونطاق .
٣٦٦ ـ تحولت الى مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية في محلة سويقة علي.الاثـار الاسـلامية ص ٢٢٨
٣٦٧ ـ سلف ان ذكرت أن راس الماء يعرف الآن باسم نبع السريا ومنه تشرب بلدة الشيخ مسكين في حوران .

٣٦٨ ـ بوادي الأردن قرب عقبة افيق . معجم البلدان .
٣٦٩ ـ كانت طبرية لزوجة القمص ـ الكونت ـ ريموند الثالث صاحب طرابلس .
٣٧٠ ـ على بعد ٧ كم غرب مدينة الناصرة . معجم بلدان فلسطين .

٣٧١ ـ صحف بالاصل الى « جفري » .
٣٧٢ ـ صاحبة طبريا .
٣٧٣ ـ كانت يبنا من اقطاعيات الفرنجة الهامة ، وهي تبعد ٧كم عن البحر وكانت قبل عام ١٩٤٨ محطة قطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
٣٧٤ ـ انظر كتابي حطين ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ١٦٧
٣٧٥ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
٣٧٦ ـ هونين الآن في جنوب لبنان .
٣٧٧ ـ كوكب قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة . معجم البلدان .
٣٧٨ ـ سلف ان نقلنا عن ياقوت ان عفر بلا : بلد بغور الاردن قرب بيسان وطبرية .
٣٧٩ ـ هي بحيرة قطينة الحالية .
٣٨٠ ـ هي مدينة طرطوس الحالية .
٣٨١ ـ غير اسمها برغم صحته بالعربية الى قلعة صلاح الدين ، فصهيون اسم مشتق من الصهوة وصهوة الجبل أعلاه .
٣٨٢ ـ انظر النوادر السلطانية لابن شداد ـ ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٦٠ ـ ٦١
٣٨٣ ـ من الواضح أن مصدر ابن العديم هو ابن شداد ، لأنه كان من شيوخه ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦١ ـ ٦٢
٣٨٤ ـ اليزك : الطلائع .
٣٨٥ ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦٢ ـ ٦٣ .
٣٨٦ ـ تعرف ايضا باسم كوكب الهوا وهي قرية الى الشمال من بيسان . معجم بلدان فلسطين .
٣٨٧ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٣ ـ ٦٥ .
٣٨٨ ـ في المحاسن اليوسفية ص ٦٥ : مرج برغوث .
٣٨٩ ـ ماتزال بقاياها قائمة في جنوب لبنان .
٣٩٠ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٥ ـ ٦٦ .
٣٩١ ـ الطشت دار المسؤول عن غسيل أواني السلطان وثيابه واحيانا حمامة ووضوئه .
٣٩٢ ـ الخروبة حصن كان على مقربة من عكا . معجم بلدان فلسطين .
٣٩٣ ـ زيادة اقتضاها السياق .
٣٩٤ ـ من انواع ستائر الحماية والدفاع .
٣٩٥ ـ الأوج سكان المناطق الثغرية المتقدمة .
٣٩٦ ـ تبعا لابن شداد المحاسن اليوسفية ص ٨٧ كان قلج ارسلان على وفاق ضمني مع ملك الالمان .
٣٩٧ ـ التينات : حصن على شاطىء البحر بين بياس والمصيصة . بغية الطلب ص ٢٢٣ .
٣٩٨ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٨٧ ـ ٩٤ .
٣٩٩ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
٤٠٠ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٩٧ .
٤٠١ ـ انظر حوله بغية الطلب ص ٥٥ ـ ٥٦ .
٤٠٢ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .
٤٠٣ ـ بلدة في ديار بكر يقال لها حاني ايضا الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٨٨ .
٤٠٤ ـ انظر كتابي حطين ص ١٨٢ ـ ١٨٤ .
٤٠٥ ـ اي من الفضة .
٤٠٦ ـ اران اقليم مشهور بين اذربيجان وأرمينية . معجم البلدان .

حواشي القسم الثاني من زبدة الحلب

(١) ارجح انه قصد هنا أريحا جبل السماق ، لا أريحا فلسطين ، وتتبع بلدة أريحا الآن محافظة ادلب ، وتبعد عنها مسافة ١٣ كم وعن المعرة ٢٠ كم ، و٦٠ كم عن جسر الشغور (الشغر) .
(٢) رأس العين بلدة في الجزيرة السورية تتبع محافظة الحسكة ، وتبعد عن الحسكة / ٨٤ / كم ، وهي الى الشمال الغربي منها .
(٣) كذا بالاصل ، وفي مفرح الكروب « غرقوس » فلعلها تصحيف « عربسوس » أي « أفسوس » .
(٤) الارتيق من كور حلب قرب عزاز . بغية الطلب لابن العديم ـ تحقيقي ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ ص ٤٣٧ .
(٥) مرض تظهر آثاره على الوجه والجلد .
(٦) تصغير قلة ، وهي أعلى مكان في القلعة ، أو أنها تصحيف « قبيلة » .
(٧) كان يعرف ايضا باسم تل عرن ، وهو مايزال يحمل الاسم نفسه ، وهو قرية في جبل الأحص تتبع منطقة السفيرة ـ محافظة حلب ، وتبعد القرية ٥ كم عن السفيرة ، يتوسطها تل كبير ، هو تل عرن . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
(٨) ضريبة على رؤوس المواشي عرفتها بلاد الشام حتى وقت قريب .
(٩) حصن على اربعين ميلا من ملطية ، في الجنوب الشرقي منها .
(١٠) كذا بالاصل ، ولعله أراد « الملقى » أو أنها تصحيف « الحلقة » .
(١١) كذا بالاصل ولعلها « يغزو » .
(١٢) ماتزال تحمل الاسم نفسه قرب سلمية ، يراها على يمينه الخارج من سلمية الى حماه .
(١٣) أي ما يماثل مدير المراسم .
(١٤) هي توقات عند ياقوت ، بلدة بين قونية وسيواس .
(١٥) قراءة ترجيحية ، بسبب طمس مطلع السطر .
(١٦) فراغ بالأصل .
(١٧) فراغ بالاصل .
(١٨) فراغ بالاصل .
(١٩) على مقربة من قونية .
(٢٠) جاء في نهاية هذه الصفحة من مخطوطة باريس : يقول كاتبها : كتبت هذه النسخة من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين ابي حفص عمر بن احمد بن عبد الله بن أبي جرادة الحلبي ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، وهذا آخر ما وجدته بخطه .

وذلك لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ست وسبعين وستمائة ، أحسن الله ختامها ، والحمد لله ، وصلاته على نبيه محمد وسلم .

حواشي تراجم بغية الطلب

(١) قال عنها ياقوت في معجمه : بلدة مشهورة عظيمة ، أعظم وأشهر بلاد اذربيجان .
(٢) كذا في الاصل . هذا ولم يصلنا حرف « الميم » من بغية الطلب .
(٣) بانياس الجولان انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيقي: ٣٧٢ ـ ٣٧٩ .
(٤) أسعر الحرب : أوقدها . القاموس .
(٥) تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٤١٥ و .
(٦) جبلان صغيران الى الشمال من حماه اسمهما « جبل زين العابدين وجبل كفراع » .
(٧) تحمل بقاياها الان اسم بعرين . وقامت على مقربة من رفنية ، وكانت ذات مكانة كبيرة في هذه الفترة . وهي تابعة الان اداريا لمنطقة مصياف . وتبعد عن بلد مصياف ١٧ كم وعن حماه ٤٢كم .
(٨) خارج حلب . انظر الجزء الاول ص ٣٤٧ .
(٩) موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان .
(١٠) في محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٣٢١ .
(١١) محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٢٥٣ . ٢٥٤ . ٢٦٧ .
(١٢) كذا بالاصل ، وهو وهم صوابه « خمسمائة » .
(١٣) لقد سبق لابن العديم ان أورد هذه الاسماء ، سلطان شاه ، وابراهيم ، ومبارك ، انظر ترجمة رضوان السابقة .
(١٤) ابن عساكر الظاهرية ، ٣٣٦٨ ، ٣ / ٤١ ـ ظ ، وقد نقل ابن العديم كل ما أورده ابن عساكر في ترجمة الب ارسلان اللهم الاكلمة « ببالس » حيث قتل الياليا . (١٥) انظر العظيمي : ٣٨١ ـ ٣٨٢ .
(١٦) كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان . معجم البلدان .
(١٧) قلعة حصينة في شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان . معجم البلدان .
(١٨) خرتبرت أو خربوط أو حصن زياد ، في اقصى ديار بكر . بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، معجم البلدان .
(١٩) قلعة حصينة وبلدة من نواحي ارمينية بين ارزن الروم وخلاط . معجم البلدان .
(٢٠) من سنة ٥١٧هـ . لمزيد من التفاصيل انظر كتابي الحروب الصليبية ٢ / ٥٩٦ ـ ٥٩٨ ، ٧٦٤ .
(٢١) لم اعثر على ترجمة لرضوان بن تتش في تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠ .
(٢٢) كان من عادة امراء السلاجقة تطليق بعض زوجاتهم لاسباب دينية وسياسية ، وعندما كانت احدى الزوجات تطلق كان ينعم بها على احد رجالات الدولة لتوثيق صلته بالاسرة الحاكمة ، ثم ليقوم بتربية ابن الامير او السلطان من هذه المطلقة ، وصار زوج الجديد يعرف باسم اتابك . وكلمة اتابك هي كلمة مركبة من اتا ومعناها أب أو عم وبك التي تعني أميرا و مقدما و ما يعادل ذلك من القاب الزعامة ، لقد كان هذا هو اصل منصب الاتابك الذي تطور فيما بعد تطورا كبيرا حيث كسب صفاتا كثيرة جديدة .
(٢٣) دقاق بن تتش صاحب دمشق . انظر ترجمته المنشورة ضمن هذا الكتاب .

(٢٤) انظر نص العظيمي .
(٢٥) كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
(٢٦) اي علم وفهم ــ القاموس .
(٢٧) لم يصلنا ايا من كتب حمدان .
(٢٨) تاريخ دمشق لابن عساكر : ٥ / ١٤٤ ــ ظ .
(٢٩) اي من اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح وكنت معادية للفاطميين المستعلية في القاهرة تمارس ضدهم وضد سواهم الاغتيال السياسي الطقوسي . انظر حولهم كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة الذي ترجمته الى العربية ط . بيروت ١٩٧١ .
(٣٠) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة أوطاني » .
(٣١) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة لاحلب » .
(٣٢) ماتزال تحمل هذا الاسم نفسه وتتبع الآن محافظة ادلب ــ منطقة حارم وتبعد عن ادلب مسافة / ٧٦ / كم .
(٣٣) الشاعر المشهور ، سلفت ترجمته في المجلدة السابقة فيمن اسمه الحسن .
(٣٤) التكحيل هنا امرار ميل محمى على الجفنين حتى يلتصقا .
(٣٥) بناها الشريف الحتيتي مقدم احداث حلب جنوب القلعة الكبيرة . انظر كتابي امارة حلب ــ ط . دمشق ١٩٨٨ ص ١٧٨ ــ ١٧٩ .
(٣٦) منظمة شعبية بلدية أشبه بأنواع الميليشيات ، انظر كتابي امارة حلب : ٢١٦ ــ ٢٢٠ .
(٣٧) صاحب تل باشر .
(٣٨) قرية كبيرة ظاهر حلب ، معجم البلدان .
(٣٩) قرية في احواز حلب .
(٤٠) من قرى اطراف مدينة حلب .
(٤١) لفظة فارسية تعني القائد الكبير ، او الاعلى .
(٤٢) تاريخ العظيمي : ٣٧٧ ــ ٣٨١ باختصار شديد .
(٤٣) انظر العظيمي : ٣٦٨ .
(٤٤) انظر العظيمي :٣٦٤ .
(٤٥) انظر العظيمي : ٤٩٩ .
(٤٦)مربنا المزيد من التفاصيل في ترجمة البرسقي .
(٤٧) لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيقي ط .دمشق ١٤٠٣ : ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .
(٤٨) مواشي ودواب وقطعان السلطان .
(٤٩) لم اقف على تعريف لهذا الموضع .
(٥٠) في جنوب العراق من قبائل عقيل بالاصل .
(٥١) كان اسم قلعة جعبر قديما « دوسر » وذلك قبل ان يستولي عليها في القرن الخامس هـ جعبر بن سابق القشيري الذي منحها اسمه .
(٥٢) انظر تاريخ العظيمي : ٣٧٠ ــ ٣٧٤ . ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ وليم الصوري ترجمتي ــ ط . بيروت ١٩٨٩ ح ٢ ص ٦٢٧ ــ ٦٢١ .
(٥٣) اي يخيفه تعرضه للتعرق .
(٥٤) هذا موقف رائع قلما نجده عند مؤرخ آخر .
(٥٥) لم استطع الوقوف عليه .
(٥٦) كتب ابن العديم في الهامش : أظنه واوهنت .
(٥٧) الرجل السريع الاستماع للصوت الخفي ، والفهم . القاموس .

(٥٨) الال : العهد والحلف والجار والقرابة . القاموس .
(٥٩) ضرب من الفلوس يتفاوت صرفها بالنسبة للدينار بين لن ولخر .
(٦٠)مقامات الحريري – ط . القاهرة – محمد علي صبيح واولاده – المقامة التاسعة والثلاثون – العمانية ص ٤٣٥ .
(٦١)تاريخ العظيمي :٣٨٧ .
(٦٢) اعظم واشهر بلاد اذربيجان . معجم البلدان .
(٦٣) اي مقدار .
(٦٤) بلد مشهور من أعمال اذربيجان حصن كثير الخير والفواكه . معجم البلدان .
(٦٥) مقدم احداث حلب .
(٦٦) طغتكين أتابك دمشق .
(٦٧) ليس في كتاب تاريخ العظيمي الموجود ، ولعله مما أورده العظيمي في تاريخه الكبير الذي يعتبر بحكم المفقود .
(٦٨) انظر العظيمي . ٣٧٢ .
(٦٩) انظر العظيمي : ٣٧٤ .
(٧٠ (انظر العظيمي : ٣٧٧ .
(٧١) اي قفز .
(٧٢) كذا في الاصل والصحيح هو مودود ، على أنه يرد كذلك في بعض المصادر .
(٧٣) لم اقف لرضوان على ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠ .
(٧٤) انظر العظيمي : ٣٩١ – ٣٩٢ .
(٧٥) عرفت حلب وغيرها من مدن الشام ولاسيما دمشق منصب رئيس المدينة منذ القرن الخامس او قبيل ذلك . وغالبا ما كان مقدم الاحداث هو الشاغل لهذا المنصب ، وهذا ما مكنه من شغل دور فعال ومؤثر .
(٧٦) نسبة الى تقي الدين عمر الذي سيكون صاحب حماه ومؤسس حكم الاسرة الايوبية فيها .
(٧٧) كذا بالاصل ، بدلا من رؤوس ، ونسبت الأقمشة المهداة الى مصدر صنعها .
(٧٨) الاضراس : اشتداد الزمان.والافراخ : الافزاع – القاموس .
(٧٩) انظر سيرة صلاح الدين لابن شداد – ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٣٩ .

٧٤٩٥ -

المحتوى